صندوق الأخطاء

رواية

عبد الستار ناصر

الكتاب: صندوق الأخطاء

الكاتب: عبد الستار ناصر / كاتب عراقي

الطبعة: ٢٠١٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

ناصر، عبد الستار
عبد الستار ناصر – صندوق الأخطاء –
الجيزة– وكالة الصحافة العربية.
تدمك : ١- ٥٩ – ٥٧٧٢ – ٩٧٧
١٦ ص، ١٨ سم .
أ. العنوان٢٢٥ رقم الإيداع / ٥٧٣٢ / ٢٠٠٣

صندوق الأخطاء

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة لابد منها

لا أدري كيف كتبت هذه الرواية، مع أنني قررت الكف عن دخول هذا العالم المتشابك العسير الذي يتعبني حقاً، فأنا لست ذاك الرجل الصبور الذي يجلس مئات الساعات حتى يكتب في عمل واحد، وحين أخبرتكم في رواية "أبو الريش" بأنها ستكون آخر الروايات، كنت أعني ما أقول، لكن شيئاً سرًّيا غامضا راح يأخذني ببطء ساحر إلى "صندوق الأخطاء" والتي أراها من طينة الرواية السابقة، من الغابة نفسها، ومن طيورها الجارحة وثعابينها السامة وذئابها التي تحوم حول الجثث المقتولة.

قلت لكم حينها إن العالم مهما بلغت عدالته ليس عادلاً، وحكيت قصتي مع "فديركو فيلليني" ومذكراته الرائعة وكيف أن السينما تسربت إلى أدق شراييني وأوردتي ومسامات جلدي، وسأعترف ثانية أن السينما ساعدتني على دخول (فخ) الرواية، عساني أحقق ذلك الحلم الجميل في أن أكتب شيئاً من رحيقها وانفعالاتها ودهشتها، ومن هنا كنت أنا المخرج والممثل وكاتب السيناريو ومصمم الخدع السينمائية فيها،

وأدرى أن النحاج في مهمة كهذه يشبه المستحيل، لكنني ما كنت أطمع في المستحيل، بل تمنيت رسم الصورة المخيفة المرعبة التي صارت من نصيب البلاد التي أحب، تلك المدينة التي عشت طفولتي وصباي ومشاكساتي شبابي وفحولتي بين أزقتها وشوارعها الخلفية، أمشي يومياً في دوربها المعوجة الغربية وأكشف بعض أسرارها الدفينة، وأحيا في حلاوة أهلها وطيب روائحها وعطر صبايا في كل جزء منها!.

رأيت أن رواية "أبو الريش" ما زالت بحاجة إلى بقية، بشرط الذهاب عميقاً إلى دهاليز بغداد ومعتقلاتها، وجنونها الباطن خلف أسوار قصور السادة الذين ذبحوها ونحن على قيد الشهيق، بينما العالم كله يتفرج على الدم الذي يتسرب منا ولم يقل فينا ما نستحقه من رحمة، فما كان علينا غير أن نهاجر نحو المنافي والشتات، وصار الحنين إلى دجلة والفرات وشارع الرشيد وسوق السراي حالة ثانية من حالات القتل التي فرضها علينا رجال الأمن والمخابرات في بلد "عزّام جبارة" الذي ما عاد من أمان فيه ولا شفقة.

سأقول عن هذه الرواية بعض ما قلته عن "أبو الريش"، فهي عين الكامير التي صوّرت الوثائق والدلائل وأوراق الضبط، نيابة عن المظلومين وأعطتها مع بصمات الأصابع إلى القضاة الشرفاء في الأرض، وإذا ما تم الحكم على القتلة وأرباب السوابق سنرى معاً حجم الزلزال الذي ضرب العراق، ومن ثم عمق الهوة بين الشعب وحاكمه، سنرى جثث المذبوحين

المبقورة بطونهم والمقطوعة أعضاؤهم والمكسورة أسنانهم والمسمولة أعينهم دون ذنب سوى أنهم على غير وفاق مع العبودية والجرائم والأخطاء.

لهذا السبب، رأيت أن "صندوق الأخطاء" كان لابد أن يكتبها من بعرف أسرار البلد الذي جئت منه، حتى يقصّ عليكم حكاية الخوف واليأس والنفاق والغش والقتل والتهجير والاحتيال والظلم والتحقير والاغتصاب والذل، وعن كل ما هو مسكتوت عنه من جرائم عزام جبارة وعائلته.

خسر العراق طوال حكم هذه العائلة المفسدة في الأرض، أعظم ما كان بين يديه من قوة ومال ومحبة ومساواة وأمانة وكبرياء وحياء وحكمة ورحمة وإحسان وعزّة نفس وخلّة وقانن وإنصاف وابتسامة، جاءت عصابة الرئيس ببطء وهدوء وعلى غفلة من طبية الناس، وتسللت كما اللصوص إلى النفوس والبيوت، حتى إذا ما تمكنت من القفل والمفتاح بدأت هجومها الوحشي الذي ما يزال حتى يومنا هذا بدون هوادة، كان الهجوم الأول قد سلب القوة والمال وكسر طوق المحبة والمساواة الأمانة، وجاء هجومها الثاني أعنف وأكثر فتكاً بالشعب، يوم أن طعنوا القوانين والحكمة والحياء، فمات إحسان الناس فيما بينهم، وصارت الكبرياء وعزة النفس محض تسميات لا وزن لها وما من قافية تحميها من الزلل، وهكذا انتهت الرحمة والخلّة والإنصاف بين البشر وما عدنا نرى أيما ابتسامة على الشفاة، حيث مات كل شيء في الجسد

العراقي حتي إيمانه وأحلامه، وصار العار هو الحاكم الأوحد في مدينة العيب والمخازي.

كنت أرى الرواية على أنها جزء من الحياة، أو على الحياة نفسها مسبوكة من حروف وسطور تتكوّم في مكان اسمه الكتاب، حتى نرى على صفحاته ما جرى لمجموعة من البشر في زمن ما، وعلى رقعة من مكان نعرفه، ولا ندري حقيقة ما يدور فيه من خبايا وأسرار، والذي يكتب الرواية عليه بالضرورة أن يأتي بشيء لن نسمع به ولا نعرفه، ولم ندخل إلى صومعة خطاياه أو أخطاء صومعته، إلاّ بنسبة ما نعرف عن الشمس والنجوم والقمر، فنحن نرى أجرام السماوات وهي تضيء الأرض والحياة من حولان، لكننا لا ندري حقيقة ما فيها من حجر وتراب وصخر ومعادن ورمال وجبال وخفايا، والحال مع الشمس والنجوم والقمر هو نفسه حال الروايات التي نمضي إلى قراءة ما جاء فيها من صراعات وحروب وعشق وخسائر وألغاز ومصائب، إذ من غير الممكن اكتشاف ما يفعله نظام المسالخ والدم في عراقنا المسكين، وليس من المعقول حصر الجرائم والموبقات التي حملت وشم هذا النظام الدموي إذا لم نكتب تاريخ ما جرى، ونرسمه لذاكرة المستقبل ومذكراته، لئلا تطمس الحقائق بمرور الزمان، وعندها يكون من مهمات الرواية كشف المستور المدفون تحت طيات الدبلوماسية والخطابات والتصريحات الكاذبة المزّورة، وحتى يصل القارئ إلى نقطة الضوء التي ما زالت مطفأة أمام عينيه بفعل التزوير في حقائق التاريخ الذي أراد الطاغية عزّام جبارة إعادة كتابته على

هـواه حتـى يطمـر جبـل الجليـد كلـه تحـت ميـاه التـسويف والتـدليس والدجل!.

إذا كان (غارسيا ماركيز) و(ماريو بارغاس يوسا) و(ايزابيل اللّيندي) و(جورج أورول) و(كونستانتان جيورجيو) و(نيكوس كازنتزاكي) و(ايفو آندريتش) وعشرات غيرهم، تمكنوا من تصوير وتشخيص الأخطاء في أوطانهم، واستطاعوا رسم الحياة على حقيقتها في مساقط رؤوسهم، فقد أرغموني بإبداعهم العظيم على زيادة ماء بحورهم نقطة أو بضع نقط تضاف إلى السحر الذي سكبوه فوق ثرى الإنسانية، وعلى طريق البشرية المزروع بالأشواك والحساسية والرصاص والفوضى.

صندوق الأخطاء، يحتاج إلى مفتاح واحد لا يملكه غير قارئي مهما تكرر استنساخ هذا المفتاح، وإذا ما تمّ فتح الصندوق فسيعرف القارئ لماذا اعتذرت عن تكرار تجربتي في كتابة الرواية ولماذا عدت ثانية إليها، ودعوني أخبركم بأن الجلوس قرب المدفأة في موسم الشتاء متعة لا توازيها أية متعة، حتى أننا لا نصدق في أيام الصيف كيف أننا جلسنا أمام تلك المدفأة الرهيبة، وكتابة الرواية تشبه الجلوس قرب النار في موسم الصيف، لكن إعجابكم بها، إذا ما تحقق ذلك، وحده من يأتي بالشتاء والبرد والمطر وأنا في حضرة النار التي سوف تغازلني مثلكم، هذا كما تعلمون هو سرّ بقاء المبدع في منزل الكتابة.

عبد الستار ناصر

٢٠٠٣

الفصل الأول

متحف الموت

في قطار المساء، المساء المحضوب بالغبار والكآبة، من بغداد إلى البصرة، تحركت الحقائب الصغيرة صوب مقصورات النوم الفارهة، ونحو الخشب المهشم الفقير في الدرجة الثالثة من رحلة الليل، الليل الذابل الذي لا يشبه أي ليل في العالم، كان المقاتل حمد محمود الصالح الذي حصل على نوط البسالة منذ شهور – مع أنه لم يحارب – يمتطي صهوة الحصان الحديدي في طريقه إلى جبهة القتال، بكالوريوس حقوق بدرجة ممتاز، محض جندي لا فرق بينه وبين الحطب الذي يُساق إلى محرقة الموت.

الموت العراقي الذي لا أهمية لأصحابه، أخبره الملازم أول حسان أبو المكارم أن البغال في معارك الشمال أغلى من عشرة أفراد بمستوانا، وإذا ما مضينا إلى أربيل أو السليمانية أو أعالي الجبال هناك، سينبغي علينا الولاء لكل بغل نراه على شعاب الثلوج، البغل في أيام الحرب يحمل رقماً وأوسمة كما الجنود وله من الحقوق ما يوازي ثلاثة من المقاتلين، أما شهادة الحقوق التي حصلنا عليها بعد أربعة أعوام من

الدراسة وسهر الليالي، فما هي غير عشب بري يحرقونه دون أيما ندم عليه!

البغال عندها حصة محترمة من الطعام، كما أنها تتمتع بإجازتها ولها نصيبها في النوم والنظافة والحماية.

ثمة أحلام تأتي منذ الطفولة والصبا، أن نملك زمام أنفسنا ونحقق ما نريد من الصبوات، ولم تكن الحرب من جملة ما فات على افتراضنا، أنا حمد محمود الصالح أشكو الليلة من حزام مربوط به وإليه، أحارب من؟ ولماذا؟ وهل تراني سأقاتل إنساناً من لحم ودم؟ وبرغم أن الحروب انتهت منذ حين، إلا أننا لم نزل في الخنادق بانتظار حرب أخرى! منذ خط عزّام جبارة على أعناقنا ونحن في حالة حرب، حتى أننا نسينا كيف تكون الحياة بلا قتل ودون قنابل أو رصاص؟!.

أخبرني قائد الفيلق وأنا بين مئات الجنود، أن الموت سيأتي فوراً إذا لم نقتل، والذي تأخذه الشفقة بعدو جاء عليه فهو لن يعيش حتى يرى نتيجة رهافة قلبه الغبيّ.

صرنا نفترض الحرب، ونفكر فيها ونعيشها، الأوامر تقول: أنتَ لم تزل في أرض المعركة، وما عليك غير أن تتخيل، ممنوع أن نبقى دون حرب، ولا أحد يعلم كيف يجيء القتل الأول، نمضي إلى الموت على شكل رصاص كثيف، وبدورهم – عبر خيالاتنا – يتحركون صوبنا على هيئة ألغام بشرية لا ندري ساعة انفجارها.

الموت هو لغة الليل والنهار، لا شيء سوى (موت) واقف هناك يتربص بالمئات منا، وليس من أحد ينطق بما يفكر فيه: ما جدوى كل هذا؟ إلى متى سنبقى على سفوح المذلة؟ ذبلت أغصان الربيع ومضت أمطار الشتاء كما رحلت أغاني الصيف وتساقطت أوراق الخريف، ما من شيء يتغير وما من أمل في خبر سعيد.. حتى الجرائد التي تصل إلينا من بغداد ما عدنا نقرأ ما ينشر فيها، محض كلام يتكرر عن نصر لم نره وعن بطولات نحن أول من يرى انكسارنا فيها، ها هي فرقة الإعدام على بعد خمسة كيلومترات من خادقنا، تنتظر رعشة قلوبنا، إنهم (يتخيلّون) خوفنا الرهيب الذي رميناه إلى أعمق جزء من أجسادنا لئلا نُذبح بمشانق أسيادنا، التي تلوح على مقبرة من بطولاتنا المزورة.

لماذا نستمر في الحرب ما عاد من أحد يحاربنا؟ لماذا يرغمنا العرفاء على التدريب والرماية كل صباح، أي مخيلة مريضة تلك التي يفرضونها علينا؟ أي تعسف وأي نزعة شر رمونا إليها؟

خسرتُ رهاني مع الصبر، ولم أعد أتذكر (غيرها) تأتي كما المغيب خجولة ساحرة، ثم تمضي مثل خيط باهر وتختفي وراء النخيل الذي أمطروه بالرصاص والبغضاء، ولم يعد غير شيء محروق يقف أمامنا برؤوس سوداء لا تسأل عما حلّ في جذورنا.

لغة الحب غير مسموح بها تحت وابل الرصاص الذي تطلقه على العدو الذي نرفض أن يغادرنا، وأن أحببت عليك أن تخفي سرك بين فراشك والشهيق لئلا يتهمونك بالمبوعة والبطر.

قلت (كم أحبها) وتذكرتُ أن رهافة قلبي الذي يصفونه بالغباء قد تقتلني فعلاً ولن أرى (سلمى) إلا يوم قيامتي إن كان حسابي عادلاً ودخلت الجنة مثلها.. أتذكر الشاعر الذي قال:

أحاول أن أستريح لدقائق من حُبكِ
فيغافلني قلبي ويهرع إلى
براركِ الشاسعة كحصان
مجنون ضجر...
قلبي مجنون أكثر مما يجب
شرسٌ وضجر وجامع
وأنا شاعر لا يجيد ترويض قلبه[1]

برغم أنها حرب لا قتال فيها، وليس من أحد يتوارى في التراب، رأيت أن الفقراء وحدهم من بقوا على امتداد شعاب الجنوب قرب السوائر والأحزان، ربما سألت – مرة واحدة – عن غنيّ بيننا أو نصف غنيّ (تبهذل) مثلنا في هذا الفقر الموحش، فما كان من أمري غير محو إجازتي ورفصهم نزلي إلى بغداد لرؤية أهلي.

وما همّني بقائي تحت سطح الأرض، ولا منعهم لي من أخذ حريتي عدنان الصائغ.

---

[1] عدنان الصائغ.

طوال شهرين من الأوامر وتضميد جراح الفقراء من لدغ العقارب وأخطاء التدريب، بل أحزنني النقيب ماهر الناصري حين قال: "هذا ليس من شأنك أيها الحمار"، ثم قال بصوت رادع مثل حافر ينشب في لحمي:

– السادة الكبار هم الذي يفكرون نيابة عنك وعني، هل تفهم؟ الكلام الزائد لا يناسب الحمير..

حتى أنه لم يقل (البغال) حرصاً على مشاعرها، ولم أستطع السؤال (ماذا عن أبنائهم؟ ألا تحق عليهم المتاعب كما فرضت علينا، أم أنهم أيضاً يفكرون ويسكرون ويحملون نيابة عنا)؟! لكن النقيب ماهر الناصري تركني وهو يكرر: "ستبقى هنا يا حمد، ستبقى هنا دون إجازة حتى تتعلم أن السكوت من ذهب"!.

أتسلق مخيلتي على مضض، ينبغي أن تتذكر الأوامر في كل لحظة (ممنوع أن نبقى دون حرب)، وأعرف أن الجنوب لا يفهم المزاح ما دامت الأخطاء تتسابق نحو ريف برىء أرغمه القادة على الحروب والمهالك والصمت، الحمام يطير على مقربة منا، والبلاهة تجثو على رقال العساكر، هل ثمة من رأي البلاهة تركب فوق أجساد البشر؟.

لا أحد منهم يعرف ماذا سيفعل بعد قليل وأين ستنتهي حدود المخيلة؟ أحرص على البقاء حياً مهما كلف الأمر، لكن الجنود الفقراء

حولي يسألون أنفسهم: ماذا سنفعل بعد هذه الليلة؟ ماذا ترانا سنفعل غدا ولا أحد يهمه أمرنا؟ لماذا نحن هنا وليس من عدو ولا صديق؟!.

أخرج من فمي الرصاص بأعجوبة، رصاص حقيقي كثيف نرميه على عدو لا نراه، عدو غادرنا منذ سنين وما عاد يسأل عنا أو يلتفت إلينا، أركض بين الشظايا، وأمضي إلى خندقي تحت وابل من الرعب، عليك أن تمعن في الخيال، أرى العشرات من جراحنا ومنهم من يتقامون الموت بين لحظة وأخرى، بينما الضباط الكبار يضحكون وراء خنادقنا وهم يكتبون على ورق أبيض مخطط عدد (الشهداء)، مع أن الموت لم يأخذ أي واحد منا، لكنهم مرغمون على كتابة ما نأمر به مخيلة الرئيس!.

في آخر خطاب له، قال عزام جبارة: إن العدو الذي يتربص بخيراتنا ما يزال على حالة قرب حدودنا، فيا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم إن ربك بالمرصاد لهم، وما يزال الرئيس يلعب وينهض في كلام الله عسى أن يحدع العسكر بالمكوث في الخنادق بعيداً عن ملذاته ومجونه ولياليه الحمراء.

تمكنت في أول الليل، أن أكتب رسالة قصيرة من ستة سطور إلى (سلمى) برغم أنني لا أعرف عنوانها البريدي، قلت فيها: سبحان الذي أسرى بك نحوي أيتها الغالية، كم أتمنّى البقاء حياّ حتى الشهر التالي عساني أرى طيفك البهيّ الساحر، وهذه المرة سيدتي سأطلب يدكِ من الوالد العنيد وأقول بصوت قاهر غير مقهور، إنني أحبك فعلاً، لكن

المهم يا جميلتي أن تكوني معي في تلك الحرب الباردة أمام والدكِ الذي لا يفهم كيف أجببتك جدّ الجنون!.

لا فائدة من كتابة الرسائل إلى الأهل والمحبّين، فهي لا تصل أبداً، إلاّ إذا أعطيتها مع جندي يتميع بإجازته، شرط أن يكون قريباً من بيتك أو من الزقاق الذي تسكنه، وإلاّ، فما من أحد يفرّط بأيامه الثلاثة من أجل رسالة لا تعنيه بشيء، ولا أدري لماذا رحت أمزق الرسالة إلى نثارات ناعمة حتى لم يبق من دليل على رهافة قلبي الغبي، برغم أنني ما زلت أرى بعض الكلمات تبزغ أمامي وهي تحتال على أصابعي وتعاند عيني، كلها تمزقت ولم يبق منها غير (الحرب) و(الجنون) و(سيدتي)!.

هي حرب لا تنتهي أبداً، هل ثمة من يستأجر حرباً حتى يموت فيها؟ نحن – تحت قيادة عزّام جبارة – البلاد الوحيدة التي تصنع الحروب حتى إذا كان العالم كله على وفاق معها، وما دامت حربنا محض خيالات علينا صناعتها، فقد منحونا بعض الرحمة والتسليات في الليل، إذ هبط علينا التليفزيون مثل ملاك جميل، وصار يحكي بيننا بصوت شجي حاذق، رأينا أعياد الميلاد في لاهاي وباريس وروما، رأينا السلام يمشي في شوارع مدريد وأثينا، رقصت نجوى فؤاد وغنّى ملحم بركات، كدنا نرقص مع نجوى ونغني بحصبة حنّا السكران، لكن حلّت البلوى بعد قت قصير، وجاءنا البهلوان على طول الشاشة، كيف أكتم سرّي وأنا أرى هذا الدنيوي المارق يحطّ على أنوفنا حتى يوشك أن

يكسرها؟! الوصية الرابعة من وصايا عزام جبارة تقطع نشوة النفوس وتذاع بالصورة والصوت.

مهرج على شاشة، أراهن أنه لا يصدق ما صار إليه، تأريخه محض أكذوبة، غَزَل منها الغرائب والعجائب، وها نحن نحارب الهواء تحت قيادته، نصطاد نسمة من هواء نقي تحت طيّات التربة، نسمع صوته في كوابيسنا ونشتعل غيظاَ، هو يعرف أننا نشتعل غيظاً، ولهذا يرمي علينا المزيد من حطب الخطابات البلهاء والوصايا والمواعظ والنصائح التي أعادتنا كثيراً إلى الوراء وقضت على أجمل ما كان فينا، بهلوان يسخر حتى من أمهاتنا وبناتنا، كم من مرة راح يكرر فيها على شاشة التليفزيون أن العراقيين قبل (سقوطه) على عرش بغداد كانوا حفاة عراة وهو الذي أنقذهم من أشواك الدنيا ومن زهرير الشتاء، ولا مفر من الصبر، سنغلق التليفزيون، ونمزق الجرائد، ونرقص مغازلات الراديو، لئلا نحرق أعصابنا بأنفسنا.

وماذا عن الجداريات في كل شارع ومبنى، والصور المنشورة كالبعرور في الحدائق والبارات وأكشاك الفلافل والمقاهي وباصات الركاب ومراحيض النساء؟ لا فائدة، إنه يحاصرنا في كل جزء من حياتنا وأيامنا وزوايا بيوتنا وتحت سرير نومنا، إذ لم نره في النهار سيأتي في الليل، يتسلل إلى أحلامنا ويندس عنوة بين شهيقنا وزفيرنا، غابة من الجرذان والزواحف، وبقايا جصص نشم روائحها، ونصحو على جثث أكثر، ومئات الفئران تغزو ثيابنا ولا ينفع معها صراخنا أو طلب النجاة

منها.. محض حياة لا أهمية لها مرغمون على شطب أيامها، على أمل واحد، أن تصحو ذات فجر أو ذات صباح أو ذات هياج، ونرى صورة البهلوان تحت أحذية الفقراء وهي تلعن اليوم الذي جاء فيه.. ياه، كم من الصور، وكم من التماثيل، وكم من الأخطاء ستمزق وتنهار في ساعة واحدة من زمن الفرح المدمّر؟.

عدت ثانية إلى أوراقي، كتبت لها كمن يعتذر منها، قلت لها: هذه الرسالة أكتبها وأدري بأنها لا تعني أي شيء، من الصعب قول الصواب إذا كانت البلاوي تحاصرنا، أما لماذا أكتب، فتلك حكاية أخرى، أطراف ما فيها أنني لا أرى الكلمات التي أخطّها الآن تحت هذه العتمة وبين جدران هذا الرمس الذي نهجع فيه حتى يحمينا من الشظايا والمفاجآت، أفرح برغم الظلمة العنيفة وأنا أكتب اسمك مرتين وأقوله مع نفسي مئات المرات: سلمى، كم أحبك يا سلمى. ثم أصحو من (الهوى) قبل أن يوقظني البعوض.

انتهت أيام عقوبتي ونزلت إلى بغداد، أرى على مسافة أميال كم هي كئيبة وخائفة تلك الصحراء المرمية على امتداد الضجر، صحراء مخيفة مثل عربيد من الفراغ يمتد على يمين الطريق، على شماله وجنوبه وشرقه، صحراء قبيحة لا عشب فيها ولا نسيم ولا صدى، كان يمكن بدلاً عن تلك الحروب المسعورة التي راحت فيها ملياراتنا من أثمان النفط أن نزرع الصحراء كلها، ونجعل من بلادنا الحزينة أكثر مدن العالم

فرحاً وبساتين وملاعب يمرح فيها الأطفال، لكن القائد أراد عكس ذلك تماماً، بماذا يعنيه أن يكون العراق جميلاً إذا كأن القبح هو المزروع في أعماق سيدنا الحاكم؟ إنه هو نفسه من قال على شاشة التليفزيون: يكفي أن يبقى في العراق مليون إنسان شريف ولا حاجة بنا إلى بقية الملايين... وماذا يعني بالشرفاء؟ إنهم المتملّقون له من قادة الجيش وشعراء ماء الوجه المسفوح، إنهم كل من باع اسمه وضميره وسمعته ورماها تحت حذاء الرئيس، آه يتبرع بالبشر ويرمي بهم إلى الموت كما لو كان هو الخالق الذي أعطاهم رمق الحياة، ثم عاد ليأخذ أرواحهم ما دام الأمر من أوامره!.

يا لها من صحراء فقيرة من البصرة إلى بغداد، حتى النبات البرّي الذي يظهر عفواً على كل أرض غادرها ما نبت فيها، وها هي الدبابات تمعن في سحقها وردم أيّ أمل في زراعتها، والقنابل يقطت عليها كما المطر، بينما قائد حروبنا يقول ملء فمه:

إن العراق هو جنة الأمة العربية وأجمل بقاعها، وسوف نعمل على أن تكون أعظم مما تورنها الآن!.

وهذا ما حصل فعلاً، فما من بيت من الشمال إلى آخر كوخ في الجنوب إلا ومات فرد واحد من أولاده مقتولاً أو معتقلاً في السجون السرّية، أما الحروب فقد تركت الجثث تهبأ للكلاب والزواحف، وصار المعوقون أكثر حضوراً في الأسواق والشوارع الفرعية، عثرت كاميرات الحلفاء على مقاتل مقطوع اليدين هاجمته الطيور الجارحة والكلاب في

وقت واحد، كان يصرخ تحت السماء وفوق تراب الأرض (اقتلوني بارك الله فيكم، اقتلوني يرحمكم الله) فما كان من طائرة الهليكوبتر إلا أن قصفه برصاص كثيف يكفي لقتله، وقتل الكلاب والطيور معاً ولم يقل قبل موته سوى (لعنة الله عليك يا عزّام جبارة).. صار فن التسول أكثر فنون البلاد شيوعاً، ماتت القصائد وانتحرت الموسيقى كمبدأ وهاجرت الروح إلى مئات المنافي، سدني، تونتو، ماليمو، ميتشغان، هلسنكي، كولنيا، لندن، أمستردام، حتى أقاصي الثلوج، لم يعد من طائر يغدر في الرصافة وما من شاعر يغازل بساتين الكوخ، يا لهذه الصحراء كم هي فارغة ومملة متى نصل المدينة؟ وما نفع هذه الصور الملصوقة عند أعلى رأس السائق؟ القائد يضحك مع عجوز كردي، القائد يشرب الشاي، القائد يحمل ابنته على فخذيه، القائد يتبول، القائد يمتطي حصاناً أبيض، القائد مع القادة العرب، القائد يبتسم مع طفل فقير، القائد يرتدي الكوفية والعقال، صور صغيرة منسوجة على شكل سجادة سيئة الصنع، وتحت عشرات الصور كتب السائق "إنا لله وإنا إليه راجعون"، وعلى جانبه سترى كلمات بالحبر الصيني تقول من راقب الناس مات هماً.. وأيقتت أن سائقنا هذا، حاله حال بقية الناس، يضع الصور حتى يعلن الولاء ويرحم نفسه من أية شبهة ستأتي حتما ذات ساعة أو ذات يوم، أوذات تقريري سرّي يكتبه ابن آوى!.

كنت قد نسيت الصورة التي ألصقها السائق على الزجاج الخلفي لمركبته، إذا بها القائد وهو يصلّي في ضريح الإمام الحسين، لا أحد

يدري ماذا كان يقول وهو يرفع يديه إلى السماء، لكن الناس تدري أنه يتمنّى من الله لو أنه جاء بشعب آخر يحكمه غير شعب العراق، حتى ينجو يجلده من المصير الذي مضى إليه بقية الطغاة، ويا لها من مشاهد يرفض العقل نسيانها على مرّ العصور، أعضاء تسحق في الطرقات، رؤوس مهشّمة، أجساد مقطعة إلى أشلاء، تصفية الساسة في المعتقلات بحجة تنظيف السجون، اغتصاب البنات الجميلات في قصور أولاد الحاكم، قطع رؤوس النساء بالسيف بتهمة الزنا والدعارة، تهديم البيوت عند أول شك بشأن ساكنيها، والناس في هياج رهيب لكن دون حنجرة أو لسان، ها هو القائد المحنك يدعو الرّب أن تمر السنوات أسرع قليلاً عسى أن يموت موتاً سريراً، موتاً هادئاً بأوجاع عابرة، مثل موت القديسين، وينتهي من مسافة الرعب التي سوف يقطعها قبل موته والتي لن يعرف بعدها ماذا حل ببقية عائلته، وما جرى لحمايته وبيادقه وأزلامه، أما مصير الشعراء الذين غنوا ورقصوا وأحنوا هاماتهم تحت بسطاله اللّماع طوال تلك السنين الغبراء، فلا أظنه سيتذكرهم عند الطعنة الأخيرة.. إنهم شعراء فعلاً بما حدث لهم!

دخلتُ إلى بيتي بعد ثلاثة شهور أمضيتها في شرق البصرة، غبار الحروب المتفرضة يملأ مسامات جلدي وزئير الرصاص يطاردني، أشعر بفراغ رهيب تحت جلدي، كأنني محض فقاعة تمشي على قدمين، رأيتُ ملامح أهلي أقل ترحيباً بي، حتى ظننت أن كارثة حلت بهم في غيابي،

لم أسأل عما جرى، كنت أريد النوم على فراشي بعد أن أهلكني النوم في تلك الخنادق المحشوةّ بالكوابيس والعقارب.

في الصباح، صباح البيوت الهادئة التي لا تدري أيّ شيء عن الروح التي أزهقوها في حروب مزوّرة، تحت دش بارد طرطشني، غلت جسدي بكثير من العنف، حتى أنني جرحت ظهري وأنا أحاول مسح الرمال عن مساماتي، إذا بي أرى أختي (ليلي) وابنتها (عذراء) وهما ينظران إلى سعادتي بكثير من الاستغراب والدهشة والبلاهة، اقتربت من عذراء، وقلت لها بهدوء: "ماذا جرى في غيابي"؟ إذا بها تقول فوراً :

– ابن الرئيس اغتصب صديقتي إسراء... أخذتها حمايته من الجامعة ورمتها تحت رجليه.. رجال الحماية دخلوا ممرات الكلية وهو يسخرون من أساتذتنا ومن حارس البوابة الذي طعنوه بخناجرهم حتى الموت.. الفتيات الحسناوات هربن إلي بيوتهن فوراً، أما أنا فلا أظنني سأذهب للدراسة بعد الذي رأيت.

أظنّها كانت ساعة الصفر التي تأتي خلفها الثورات والمعارك وحمل السلاح على كفّ الموت، ذلك أن إسراء واحدة من أجمل بنات المحلة، وحدها بينهن التي تمكنت من النجاح والحصول على شبر في كلية الفنون الجميلة، قلت (وكيف تم ذلك؟ ومن أخبركم بهذا)؟ ذلك أن الناس في كل جزء من زقاقنا التعبان يرفض إعلان أسراره أو كشف

المستور من عوراته وخسائره، فكيف عرفتهما - أنت وأخي - يسرّ موجع رهيب كهذا؟ إذا بها تخبرني بكارثه أكبر وبلوى لم أصدق أنني سمعتها أبداً، ذلك أن ابن الرئيس أحرق إسراء في برميل من البنزين حين بصقت عليه، بعد أن قالت إن فعلته لن تنتهي على خير كما قد يظن، قالت له بأنها ابنه الشيخ (هداد الحميري) وأن أهلها لن يتركونه يعبث في أعراض الناس، وكررت عليه أن فعلته لن تمر بلا عقاب.

لكن فعلته مرّت ومثلها مئات الاغتصابات ولم يحدث أيّ شيء، لا سيما وأن ابن الرئيس قال أمام حفل كبير من رجال الصحافة: "إن الله خلق البشر على نوعين، السادة والخدم، وعليكم اكتشاف من هم السادة بيننا ومن هم الخدم؟!.

يومها (بلع) الصحفيون الإهانة الكبرى، ومضى كل واحد إلى بيته حتى يكتب مقالته في مدح "الأستاذ" الذي ضربهم بالحذاء على رؤوسهم بغية كسب الرضا وإنقاذ النفس من عقاب مؤكد إذا حال أي واحد منهم الاعتراض أو الانزواء أو رفض انخراطه في هذا السلك الموحوم بأسلاك الذل!.

صارت الصحافة محض جارية خرساء لا تنطق إلا حين يخبرها "الأستاذ" الجاهل بما ينبغي أن تنطق به، اختفى الناس في سراديب الموت وما من أحد يسأل عنهم، خصوبة الأرض أخذت أجسادهم تحت وابل من التراب وانتهى أمرهم في جحور، وأنها ستظهر ذات يوم بعد

رحيل القصاب الأكبر، ورم الخوف أصاب الناس جميعاً، وتسرّب سرطان الذل إلى البيوت والأزقة والحارات، وما عاد من أحد يشكو أو يتذمّر إلا داخل تجويفات جسمه التي أحرقها الإحساس بالعار والفضيحة.

يا لها من صحراء تمتد من الحرارة حتى منتصف الحمّى، لا إيقاع غير الصمت، لا شيء سوى صرير الريح تمرح تحت فضاء شاسع مخيف، كم ساعة من الجهة حتى باب البيت؟ وكم شجن ودمع وأسى حتى نجلس على مائدة الطعام نلتهم القهر وأخبار القائد مع الخبز المحمّص بالبكاء والذي أحرق الروح والكبد "ابن الرئيس اغتصب صديقتي إسراء، هذا الولد المقزّز رماها في برميل النفط وأحرقها وهي لم تزل على قيد الحياة"!!

كنت أهمس في داخل أشلائي: ليرحمك الله يا هتلر العزيز، فما كان من ابن عندك يفعل ما يفعله كلاب الرئيس.

أنظر إلى أختي وهي تبكي، ربما أصابها الذعر على مصير ابنتها عذراء، فما من أحد معصوم من مثالب هؤلاء الحفاة الذين ركبوا سفينة الحكم على غفلة من الحقائق والصواب، كل شيء ممكن في بلد مضطوب من خارطة العدالة، محكوم عليه بالإذعان والصمت وطمر الشهيق.. وهل تراني بكيت مصير (سلمى) إذا ما جاءها واحد من سماسرة الرئيس أو ابنه أو حماة قصورهم ومضوا بها إلى قبو اللذائذ ثم عادوا بها محض إنسانة لا تملك غير رداء أبيض تمزّق بين عفونتهم

وصار مجرد خرقة تنزف الدم على مشارف مستقبل غامض قبيح؟! إنهم يتسابقون على إزالة البكارات، ولهم أرشيف في الرأس يحكي أبشع الجرائم والموبقات، حتى أنهم ضحكوا أكثر مما تتسع الأفواه، ولم يعد من أحد منهم يصدق ما يعنيه الثأر أو القصاص، فقد قال الابن الثاني للرئيس عزام جبارة في إحدى حفلات مرسى الزوارق: إن الشعب أعطانا أكثر مما نريد وعليه أن يأخذ منا أقلّ مما يحلم به!.

الغريب أنه لا أحد يصدق ما نحن فيه، والذي نحن فيه نوشك نحن أنفسنا ألا نصدقه بعد كل فعل أكثر غرابة يأتي منهم، المسألة ببساطة، هي أن الجرائم تأخذ شكل الحلقات، الأولى أهون شراً من التي بعدها، وحين تصل نحو الحلقة الثامنة مثلاً سترى أن ما فات من جرائم لا يرقى إلى مستوى الجريمة التي أنتَ أمامها الآن، وهكذا تذبل وتنسحق ذكرياتك عن تلك الجرائم السبع التي ستكن أصغر مما أنت فيه اليوم، ثم،على مرّ الوقت المزحوم بالقتل وهتك الأعراض عليك نسيان ما مضى من موبقات صغيرة حتى تذكر للعالم ما وصلوا إليه من أخطاء وخطايا، ودواليك ستنسى الجريمة الثامنة يوم وصولك إلى الجريمة ما بعد الألف، والعالم مثلك أو حولك سوف ينسى أيضاً!.

جرعة من فيتامين الوقت، حتى نتعلّم شطب النكبات، وربما نعلّقها كما الثريا في متحف الرأس ونوهم أنفسنا بأننا سنرد الصاع لمن جرّدونا حتى من ورق التوت، وأيضاً، بمرور الزمان، سوف نسكت على حفنة

أخرى من السفالات مادمنا قد اعتدنا السير، ونحن عراة تضحك منّا الذئاب والفئران والنساء!.

خرجت من بيتي عند المساء، أبحث عن أصدقائي نوفل ورياح عساني أقضي بعض الوقت في سكرة أو سهرة نثرثر فيها، قد أنسى بها غضبي الذي انهمر من بين عظامي ومسامات جلدي كما الهدير، رأيت المحلة ما زالت نائمة على عرش من الذل، أطرق باب رياح، تأتي أخته الشعشاء التي تلثغ الراء وتخبرني أنه في المقهى، أمضي إلى مقاهانا الذي اعتدنا عليه، وما من أثر لصديقي، أشرب الشاي وأنا أدور برأسي حول جدران المقهى، ماذا حلّ بنا؟ صارت المقهى أشبه ما تكون بوكر من أوكارهم، مزحومة مقهى وقاقنا بالصور التي رأيتها أعلى رأس السائق مع ثلاث منها لم أرها من قبل، واحدة في الكعبة وهو يثاب بيض (بيوس) الحجر الأسود، ثم صورة له وهو يقرأ في كتاب الله، وثالثة يصطاد العصافير في مزرعة لا ندري مكانها، ثلاث حالات من البهتان والكفر والضحك على ذقون البسطاء، فهو لا يؤمن بالله حتى يمضي إلى كعبته الشريفة، وما اقترب يوماً من قدسية كتابة العظيم، إلاّ حين يخدع الناس بالتماهي مع قانون الرّب، أما اصطياد العصافير فهي لعبة مزدوجة أراد فيها القول إن اصطياد الناس ليست مهنته، على أنه يعرف الصيد إذا ما انقلب الحال عليه! وقبل أن أغادر مقهى الطرف جاء صبيّ يلهث عن تعب واختناق وهو يمد يده اليمنى بصورة أخرى راح صاحب المقهى

يلصقها بفرح كاذب بين بقية الجنائز المرفوعة حولنا مثل مشانق تسخر منّا.

كانت صورة للقائد عزام جبارة وهو يمسك ميزان العدالة قرب وزارة العدل في (الصالحية) أما ملابسه هذه المرة فكانت سوداء تشبه جلباب القضاة، أظنها أكثر الصور إضحاكاً إذا ما تذكرنا أن المحاكم صارت محض اسم على غير مسمّى، إذ كيف تجرؤ مثلاً على الدفاع عن متهم أخذوه من بيته بقوة السلاح ولا أحد يعلم أين مكانه وماذا صار من أمره؟ هي مهنة ملغاة إلى إشعار غير معلوم، فالمحاكم أو ما بقى منها، باتت لتنفيذ شؤون الزواج والطلاق وترتيب الوكالات الخاصة عند كاتب العدل، وبضعة أمور تنتهي بلصق الطوابع ودفع الضرائب، أما المحاماة والدفاع أو حتى السؤال عن مصير المغيّبين في المعتقلات فهذا شأن آخر سيقطع لسانك فوراً إذا ما حكيت فيه!.

وقبل أن يقطع لساني خرجت من المقهى أبحث عن صديقي (نوفل) وليتني لم أسأل عنه، رأيته في شارع الكفاح يحمل بندقية كلاشنكوف وهو عائد إلى بيته بعد تدريب يبدو أنه على جانب من العنف، سألته عن حاله، لا أدري، ربما كان يسألني عن حالي، اختلط الأمر ولم أعد أصدق ما أسمع، تركته وأنا مأخوذ إلى حالة من العصاب لم ينقذني منها سوى فراشي الذي رجعت إليه ورميت بأوجاعي عليه، ماذا قال نوفل؟ إنهم فرضوا عليه الانخراط بجيش آخر يحمي الداخل من ذوي النفوس المريضة، وما هو شكل هذا الجيش العجيب يا نوفل؟

قال وما سمعت، سمعتُ وما رأيت، رأيتُ وما كنت أريد أن أرى، إنهم يأكلون الذئب حياً، ويلتهمون الأفاعي يسلخون جلودها ويقطعون رؤوسها، إنها وجبة شهية، بل أطعم من لحم الخروف، قل أي شيء آخر يا نوفل، لا أريد أن أسمع بجيش آخر، يكفي ما لدينا من البساطيل والرصاص والخنوع، الحياة عسكروها تماماً، حتى الصغار صار واحدهم يلعب في الدبابات والمجنزرات ويحطم طائرات صاحبه، وحين تبدأ حربهم فما من نهاية لها، حتى يرجع الأطفال إلى أمهاتهم والدماء تسيل على ثيابهم، ضحايا حرب صغيرة تتناسل عن حروب أكبر.

بلاد كلها معلّبة في صندوق (الخاكي) وما من أحد يرى فضاء الله أو يدري بالجمال الذي يغزو الدنيا، أين لذائذ الحب الطافر بين الضلوع؟ ماذا جرى للغناء الذي أطربنا أيام زمان؟ كيف اختفت القصائد التي انتشينا بها؟ من سوق منّا شارع (أبو نوآس) وكرادة مريم وكورنيش الأعظمية؟ لماذل منعونا من زيادة الأولياء في كربلاء وباب المراد وقنبر علي؟ ماذا حلّ بهذا الوطن المسكين؟ كم نوع من أنواع الجندرمة لدينا؟ كم نوع من باعة الضمير؟ كم نوع من شعراء الدينار؟ وكم نوع من اللصوص والهبّشية؟ لماذا نحن دون بقية البشر من تهدّم كل شيء أمامه حتى الأمل؟ أين ولّت أموالنا من النفط والزراعة والكبريت والسياحة واستثمارات العالم فوق ترابنا، أعني ترابنا الذي كان أغلى من الذهب وصار – أيام قائدنا عزاّم – أرخص من بعرور الماعز؟ ماذا جرى؟ كيف صار الوطن هكذا بعيداً عن اليدين، ومنذ متى صرنا نخفي شهيقنا

وأفكارنا بين جدران البيت خوفاً من الكلاب الشمّامة؟ أين رحلت بغداد التي كانت تتبغدد بين السيّاح والنساء والمهووسين بها؟ ولماذا اختفت البصرة عن أبصارنا؟ حتى الكاظم ما عاد يكظم غيظه؟ فماذا حلّ بنا؟!.

الموت صار أشرف ألف مرة من البقاء حياً، هكذا حياة ليس فيها غير النهب والتدريب وكلام معجون بالسم، ومسؤول كبير كذّاب، يا نوفل، الموت أشرف من انتظار حروبهم التي لا تنتهي، إنهم حلقة وصل بين الجريمة والمجرم، إنها حروب مباعة سلفاً، وثمة من يدفع، ألا ترى حقيقة ما نحن فيه من ظلم وفساد وذل؟ إنه بلد سريالي مخنوق من سقفه حتى نعليه، وإذا كان غيرنا مغلوب على أمره، فنحن لا أمر لنا أصلاً وما لسان، أنا أخاف اليوم الذي يبترون فيه حتى عضونا لئلا نزاحم أولادهم في المتعة والشهوات، هذه الهمجية غلبت كل شيء طّيب في حياتنا، بماذا تنفعك الأفاعي ولحم الذئاب أيها المسكين الذي يتباهى بسلاح مصوّب إليه؟! خدعوك يا نوفل، وربما رضيت لفنسك أن تُخدع، الحكاية وما فيها أنهم يستأجرون كل شيء من خارج العراق، بما في ذلك أساليب التعذيب وغسل الدماغ، حتى صارت البلاد (جارية) حسناء بلهاء ترقص في قصورهم ويضحكن على بلاهتها، لكنهم في الوقت نفسه يسرحون على جسدها البض الطازج الطري الذي أفقدهم صوابهم.
لم يبق من إجازتي غير يوم واحد، مرّت الساعات بسرعة البرق وأنا أغفو على فراش تطارده الكوابيس وتزحف نحوه الطناطل والسعلوات وعبيد الشط، لا أدري ولا أفهم ولا أعلم أي شيء عن مغزى حياتي، وأنا أدور

من فلك أبله إلى مدار غبي، لا رغبة عندي في البقاء حياً وأنا أقرأ أخبار الدنيا خارج هذه البلاد التي أصابها العجر، وصارت مجرد عجوز يمتطيها العساكر وتسخر منها جنردمة الحروب، لا فائدة من سنواتي ولا نفع – أيّ نفع – من شطب تقويم ساعتي، وأنا أنقل نفسي من جبهة إلى أخرى ومن حرب إلى حرب أكثر خراباً، وحتى إذا اكملتُ شهور خدمتي في الجيش، من يضمن لي خروجي من هذا البعبع الذي بات كل شيء في حياتنا المغلّفة بالأوامر والسواد؟ فجأة، قررت الهروب من البارود الممزوج برائحة الدم، من مخيلة القائد المريض الذي يصّر على أن نقاتل حتى إذا اختفى العدو من الكرة الأرضية كلها، لن أعود إلى جبهة السخريات والبطش والمذلات التي لا أحد فيها غير المساكين من أولاد الفقراء، سأعرف كيف اختفي عن أنظارهم، عندي موهبة التمثيل إذا ما أحرجني أحد في السؤال عن اسمي، وأسباب بقائي خارج أسلاك الجندية، ربما أتمكن من التسلل خارج البلاد وقد أحصل على جواز سفر بأي سعر يفرضوه على، سأبيع إِشيائي وملابس وحجارة بيتي، أريد الانعتاق من لحم بغداد ومن عظام العراق عساني أعثر على نفسي في أيما شبر خارج الوطن الذي باع مواطنيه دونما ثمن، سأحرق (الخاكي) وأبيع بندقيتي وأشتري نصف حريتي حتى يحين الوقت لكسبها في بلد آخر أو تحت سماء لا يعرفني فيها حتى أنا، تفسّخ لحم البلاد وتهرأ الجلد والقائد يضحك في الصورة لم يزل؟ هل ينبغي أن نتفسخ ونذعن ونموت حتى يستمر عزام جبارة في الضحك منّا؟

كان أول فعل رسمته في ذهني رؤية عائلتي أطول وقت يمكنني فيه إبقاء ملامحهم في ذاكرتي إذا ما تركت العراق دون رجعة إليه، بكيتُ على صدر أمي، قلت لها – دون أن تسمعني – أعذريني يا أحب الناس على فعلتي، صارد البلاد مولة وإسطبلاً لحمير السيد الرئيس، هذا الذي اسمه الوطن ضاع منا وأنا خائف عليه، لكن خوفي على ذاكرتي أكبر، يجب أن يبقى بعض الشهود لئلا تموت الحقائق كلها.. سمعتها تهمس: ما بك يا بني؟ ماذا دهاك يا حمد؟ لم تكن هكذا منذ عامين؟ فماذا جرى؟.

لم أنطق بما أفكر فيه، اكتفيتُ بطبع (بوسة) على جبينها المرصّع بالحكمة والبراءة، كنت أريد أن أهرب عن الأرض بأسرها، لكن الطريق إلى المجرّات العليم لم يكن من نصيبي، لذلك أيقنتُ أن الطريق إلى الحرية لن يكون كما أتمنى، وبرغم ذلك أحرقتُ ثيابي العسكرية وأعطيت البندقية إلى تاجر رخيص أعطاني ثمناً أرخص منه، المهم، صار عندي من النقود ما يكفي البقاء حياً أكثر من ثلاثة شهور، لا أدري نسبة التهور فيما فعلت، ربما جننت، ربما عافني وعّي في ساعة غيظ، كل شيء أفعله يأتي من شخص داخل جلدي يفرض سطوته وسلطته يأمرني ثم يغادرني فأصحو على سطوة عزام جبارة وسلطة الرعب التي أربكتني.

منذ طفولتي – برغم النحس الذي يطاردني – وهم يقولون عني حمد المحظوظ، ولا أحد يشعر بما أعانية من أوجاع وإحساس بالذل، لا أدري عن أيّ حظ يتشاورون فيما بينهم، مع أنني ما رأيتُ سوى الخيبة

والمرارة وحطام إنسان اسمه حمد محمود الصالح الذي أعيش في جلده وأحمل اسمه، وأمشي بين الناس بقامته.. لكنني بعد أن أحرقت بدلتي العسكرية وبعتُ بندقيتي وهيأت نفسي للرحيل، جاءني (الحظ) فعلاً وراح يطرق بابنا بهدوء وحلاوة، تلك كانت على ما أظن أكبر مفاجأة في حياتي، دونها لا أدري ما الذي كنت سأحمله من هموم ومتاعب غير التي رأيت؟

أنا الذي فتح الباب أمام (حظي) الذي جاء علي هيئة عميد في الجيش اسمه (عزيز عارف الدوري) قال مساء الخير، فقلت له: "أهلاً وسهلاً، طال" وقوفه عند الباب، كما طال غبائي وأنا أتساءل عمن يكون، راح يكرر "مساء الخير" وأنا أكرر (أهلاً وسهلاً)، بعدها بدأ الخير ينهال على شعابي وممرات دمي وخفايا دارنا التي ما عرفت أية بهجة على مدى سنوات خلت.. قال فوراً وبلا رتوش وكأنه يدري بأنني أدري لماذا آتى:

- أنا عزيز عارف الدوري..

لم أنطق بشيء، أتذكّر اسماً بهذه النبرة، لا أدري أين سمعته ومتى:

- هل تعرفني؟

نظرتُ إلى وهج غريب في عينه، هل تراني رأيته على شاشة التليفزيون أم خطف عفواً في حلم أو فوق جريدة، أم جاءنا في حروبنا التي تتخيل دباباتها وطائراتها؟ عجيب أمري، فأنا أعرف تلك الملامح الصارمة، رأيتها في زاوية من زوايا بغداد، لكن رأسي يرفض أن يتذكر، مع

أنني تمكنتُ من القول دون خوف، بل نطقت الحروف بسرعة لا تناسب طوله، ونجومه اللامعة على كتفيه".

– عفواً، معذرة، أنا آسف حقاً، لكنني لم أسمع بك.

كم أراها عسيرة ومضحكة وقاسية (الآن) حكايتي مع العميد الأكثر شهرة بين رجالات عزام جبارة أنني لم أتذكره مطلقاً، بل هرب اسمه وتاه تماماً عن مخيلتي، وأظنه أحسّ بشيء من الإرباك والخجل وهو يكرر:

– أنا العميد الركن عزيز عارف الدوري، قائد فرقة المشاة الثامنة، من حماة السيّد الرئيس عندما كان نائباً... عزيز عارف الدوري، ألا تذكرتني الآن؟

وما عرفته ولا تذكرت ملامحه، لكنني أهزّ رأسي بإشارة كاذبة وهل يخفى القمر؟ وقد أحسّ بذلك، مع أنني قلت له:

– نعم تذكرتك الآن، تفضل سيدّي العزيز، أنا جندي في شرق البصرة وإجازتي تنتهي غداً.

قال وهو يبتسم بأناقة، تسلل الدم ثانية إلى وجنتيه، بينما عطر الكولونيا يتناثر من مسامات خدّيه:

– يبدو أنك لا تعرف لماذا أتيت؟

ما كنت أعرف طبعاً لماذا جاءنا هذا القائد الخطير، ذلك أن أكبر شخص نعرفه لا يملك نجمة واحدة من نجوم العميد الذي حطّ على

ربوع بيتنا الفقير، حينها سمعت صوت أمي خلف ظهرى، وهي توشك أن تهلهل عند الباب:

أهلاً وسهلاً، البيت بيتك، تفضّل يا عزيز.

أحلى ما في أمهاتنا، أنهن لا يعرفن الوجاهات والعنطزات ولا شأن لهن بالتسميات والصفات الكبيرة، هكذا تفضل يا عزيز وكفى!.

أحترم الروح التي ما تذلّلت ولا انكسرت أمام الكبار من المسؤولين، حتى أن إحداهن قالت ذات مرة لعزام جبارة وهى تأخذ منه مفتاح البيت الذي وهبه إليها: "والله العظيم يا عزام كنت أعرف أن مفتاح الجنة بين يديك" ولم يغب منها عزام جبارة التي ذكرت اسمه دون أي زخرفة وبلا صفة عليا أو لقب عظيم يسبقه، مادامت قد اعترفت أن مفتاح الجنة بين يديه.

وقبل أن يمرق عزيز عارف الدوري إلى بيتنا وإلى حياتنا فيما بعد، أيقنتُ أن شيئاً يشبه الزلزال سيأتي على سنواتنا وعلى شكل أيامنا التي ستدخل مع هذا (الدوري) الذي قال (بسم الله..) ثم اتسعت أمامه الفروع والجدران والممرات في محلة (قنبر علي) التي نسكنها منذ عصور والتّتار والمماليك، أراه يمشي دون عجرفة أو مياه، لكنه يجلس متنشياً على مكان في البيت ليس من نشوة فيه، محض بيت آل للسقوط منذ ولادة جدي الثالث، حجر فقير من بيوت بغداد العتيقة، لعل عزيز الدوري حاول أن يحتفظ بابتسامته وهو يلتفت يميناً وشمالاً، ولا يرى من

أثر على الجدران لصورة قائده المفدّي! كاد أن يسأل عن غياب (عزام جبارة) وكيف يمكن ترك أرانب تقفز ما بين الأعشاب و(ابنة المعيدي التى تشبه الموناليزا) و(الإمام على وهو يحمل سيفه الشهير)، إلى جانب صورتي وأنا طفل في الرابعة من عمري أستحم في طشت الغسيل.. قالت أمي وهي كعادتها تخفي أسنانها وراء يدها اليسرى:

- عزيز جاء يخطب ابنة أختك عذراء.

ربما لم أفهم جيداً ما سمعته من كلامه، ثمة فوارق بين هذا العميد وبين تلك العذراء، فارق في السن يتجاوز نصف المعقول، وفارق بين خطورته وضعفها، وفارق آخر بين قيادته وعبوديتها، ثم أنها لم تزل محض طفلة لا أدري إن كان عمرها يناسب الزواج من عملاق كهذا يمكنه أن يفعصها تحت جرمة الشاهق المهول، لكن صمتي أزعجه، ربما أراد سماع من ينطق بأي شيء في تلك البرهة المخطوفة من زمن الارتباك إذا بي أقول دون وعي، وربما دون إرادتي:

- هذا شرف عظيم لا نستحقه سيادة العميد.

هكذا، كلما فعلت أمي، كدت أحذف العميد وسيادته لولا تربيتي على الخنوع والمذلة التي فرضوها علينا في حرب المخيّلة، والتي نمسح فيها أحذية القادة، ونحني جذوعنا حين يأمرون ونأكل بقايا طعامهم بعد أن يشبعون، وقبل أن تتسع ابتسامة العميد زهواً بما نطقت به، رحت أقول:

– لم يبق من شيء سوى رأي عذراء، ونبارك بعدها ما أراد الله من خير لكما.

قال عزيز الدوري وقد امتدت ضحكته إلى أرجاء البيت، علامة نصر في حرب محسومة مسبقاً:

– أسلوبك في الكلام يعجبني، أنت تشبه الشعراء فيما تقول، رأيت الكثيرين منهم في حضرة الرئيس عزام جبارة حفظه الله ورعاه.

كم ابتسم كما الشعراء، وأنا أنظر في عينيه:

– أنا أكتب الشعر فعلاً، وربما أعود إليه بعد نهاية فترة التجنيد إذا أراد الله أن نبقى على قيد الحياة، ولا تنشب أية حروب أخرى.

وهنا، تذكرتُ ما يقال عن حمد المحفوظ، حين سمعتُ عزيز عارف الدوري يقول بصوت حاسم مؤكد:

– يمكن أن تكتب الشعر منذ الليلة، ومتى تريد، لأنك لن تذهب إلى شرق البصرة بعد هذا اليوم، أنت الآن واحد من عائلتي، حتى إذا رفضت عذراء الزواج مني.

لم أصدق ما سمعت، هذا كلام يطربني، فالحياة بدون ثياب عسكرية يعني أنك تحيا كما البشر، أما تلك الملابس المقرفة فلا فرق بينها وبين العبودية والمذلة.

البندقية التي بعتها إلى ذاك التاجر الرخيص، كيف تراني أستعيدها ثانية وأنا أعرف هذا النوع من المرابين والسماسرة؟ ذهبت إليه ورجوته أن

أشتريها بعد ثلاثة أيام على بيعها، كنت أعرف تماماً ما سيخبرني به، إذ قال إنه باعها إلى تاجر آخر وليس من السهل إرجاعها، فقلت "إنني عائد إلى الجيس وإذا لم أعد معها أنت تعرف ماذا يعني ذلك بالنسبة لي"، لكنه قال مع حشرجة في صوته – وكنت أعرف أيضاً ما سيقول – إن الأمر قد يحتاج إلى عشرة دنانير وربما أكثر من ذلك، إذا بي أقول فوراً:

– سأعطيك الدنانير العشرة التي تريد، لكن أرجوك أن تسرع.

وقبل أن يسمع القول هزّ رأسه إشارة على أن البندقية ستكون بحوزتي حال تسلميه المبلغ، هكذا انتهت إليه البلاد في النخاسة وفي عصر أولاد (العوجة)، فما من شيء لا يباع وما من شيء لا يشترى، لما في ذلك العيب والتقوى، الحرام والفضيلة، العار والشرف، كل شيء جاهز ومعروض للبيع والشراء، وفي اليوم التالي كانت الدنانير الزائدة على ثمن البندقية قد وصلته، وكذلك السلاح الذي ما كنت أظنني سأحتاج إليه، عادت الرصاصات كلها والبندقية أيضاً، ورحت أنتظر ما سيفعله عزيز عارف الدوري بشأن حياتي التي راحت تمشي على شريط من حرير، بينما زواج ابنة أختى راح بدوره يأخذ شكل الزغاريد والليالي الملاح التي انتهت بزواج إمبراطوري في فندق شيراتون، مع حفنة من السعادات المبعثرة هنا وهناك، وكان أعجب ما جرى في ذلك الحفل المهيب أن الرئيس بنفسه حضر زفاف ابنة أختي عذراء، وكانت (مكارمه) لهما قطعة أرض على نهر دجلة مع سيارة مرسيدس ومليون دينار ورحلة إلى بيروت لقضاء شهر العسل الذي دام سبعة أيام، كان المفروض أن

يرجع بعدها عزيز عارف الدوري إلى عمله في فرقة المشاة، لتسخين مخيّلة الجنود لئلا تصبح الحرب نسباً منسيا.

وعاد العمى إلى بغداد، ومنها إلى حرب يصنعها بنفسه وقد يموت فيها بعض المهمشين، حتى يستمر وهجها وتنتصر فيها على عدو ما عاد يسأل فينا، كم مرة سمعته يكرر كالببغاء:

– الحرب شرف، ومن لا يحارب لا شرف له.

كلهم يكررون أقوال عزام جبارة، القادة والببغاوات والوزراء واللصوص، وإذا ما قال الرئيس "ليس من طعام أطيب مذاقاً من البراز، وليس من شراب ألذ من البول"، ستراهم جميعاً في مراحيض بيوتهم وهم يأكلون ويشربون.

لم أكن أعرف ما سأفعله في غياب عزيز الدوري، قال لي إنني واحد من عائلته، وهذا يعني –كما أراد – بقائي خارج أسلاك التدريب الذي حصد بعض المرضى دون حساب أو شفقة، بل أسعدهم أن يموت هؤلاء حتى نكتبهم في عداد الشهداء ونعزف السلام الجمهوري في جنازتهم ونقنع أنفسنا أن الحرب لم تزل تحرق اليابس والأخضر، ثم نستمر في الغناء للقائد المنتصر الذي يهزم الأعداء كل يوم.

كنت أنتظر رجوع العميد بكثير من الهلع، إذ من غير الممكن رجوعي وحدي إلى جبهة الجنون بعد إجازة تجازتها بأسبوعين وليس عندي ما يبرر ذلك!.. فات على غيابه ما يقرب من خمسة عشر يوماً لم

نسمع أي خبر عن المكان الذي راح إليه، وهو نفسه لم يتصل بنا حتى نعرف ما يجري ثمة بين الشظايا والرصاص والجحيم الذي يرسمونه بأنفسهم ثم يدخلون إليه!؟.

أنا نفسي لم أستطع الخروج من البيت لئلا يمكنني (الانضباط العسكري) فأمضي إلى ساحة الإعدام فوراً كما تنصّ القوانين على ذلك في زمن الحرب.. وإذا ما قلت لهم إن الحرب انتهت منذ أيام المشمش والزعرور يكون قتلك حينها مجرد تسلية لقضاء الوقت! ولو أن القانون يسري على الجميع ما همّني الأمر، لكن أولاد المسؤولين يسرحون في البارات ويمرحون في فنادق الدرجة الممتازة ويرقصون مع الحسناوات ويبعثرون الدنانير تحت خلخال المومسات، وما من أحد يقترب من أذيال ثيابهم، مع أنهم كلهم في سن التجنيد، لكن القانون الذي يكتبه عزام جبارة له قياسات خاصة وبرامج خاصة وعزف وقح قاتل على جلود الفقراء حصراً.

رحت أنتظر عودة زوج ابنة أختي حتى ينقذني مما صرتُ فيه من عجز ورعب وحصار، لكن عزيز عارف الدوري لم يعد إلينا برغم مرور ما يزيد على عشرين يوماً وليلة، وكان ذلك أكثر مما تحتمل أوردتي في البقاء تحت سقف البيت دون مقهى وبلا أصدقاء ودونما أمل، حتى جاء يوم الخميس الذي حلّ مثل عرس باهر، ليلة أن رأيت زوج عذراء وهو يطرق الباب الذي فتحته بنفسي، إذا به يقول وهو يبتسم: كيف حالك يا حمد الصالح؟.

لم أكن أعرف كيف حالي، غلبتني أوجاع الخوف وانتظارات الليالي، وراحت كآبتي تسابقني إلى الجزع والحيرة، فنظرت إليه وكدت أقول ما لا يرضيه، لكن شيئاً غريباً داخل جلدي يرفض الصراحة أمام هذا الرجل الذي يمسك بزمام أموري وشؤون عائلتي، وأظنني قلت له: "أنا بخير بارك الله فيك، لكنني معتقل ومحجور في البيت ولم أخرج منه طوال غيابك.. أريد أن أطمئن على حالي حتى أرى الدنيا وأمشي بطولي كما يفعل بقية خلق الله".

لم يزل يبتسم وهو يقول:

– ولماذا سجنت نفسك ولم تخرج مثل بقية خلق الله؟ هل نسيت أنك من عائلتي؟

قلت له وأنا أفتح الطريق أمام قامته الفارعة:

– أنت تعرف بأنني مجرد جندي، وإذا أمسكوني في أي شبر من بغداد، الله وحده يدري بما سيفعلونه بي.

عندها جلس هادئاً وهو يضحك من غبائي:

– قل لهم إنك (خال) زوجة عارف الدوري ولن يحدث لك أي شيء.. يا لك من أحمق، يبدو أنك لا تعرف الدنيا وما فيها.

أجل، كنت الأحمق الذي أشار إليه قائد الفرقة الثامنة مشاة، أحمق بما تعنيه حروف هذه الكلمة السوداء التي أكرهها، كما أنني لا

أعرف أيّ شيء عن هذه الدنيا التي يمرح فيها الكبار ويسرح على جنائنها الأسياد، قلت، وما زالت البلاهة تمتطي جسدي:

– بصراحة، لم أفكر في أمر كهذا.. أعرف أن الهروب من الخدمة حسابة الموت دون محكمة أو كلام.

قال بسرعة:

– تذكر دائماً يا حمد، وفي كل مكان تمضي إليه أنك واحد من عائلة عزيز عارف الدوري، وإذا نسيت ذلك مرة واحدة فما من أحد يدفع الثمن غيرك.

لم أستطع السؤال عن مصيري مع الجيش، وماذا سأفعل غداً؟ كانت "يا لك من أحمق" قال: في لحمي وتنهض في مساماتي، قلت في ذات نفسي: سأترك الأمر حتى تهدأ أعصابي، المهم أن أعرف لون مصيري غداً وهل ثمة من يعرف مصيره في البلاد التي أغرقوها بالدم والمسالخ والوصايا العجفاء وبالحروب التى أضافوها إلى حروبنا؟ ليس من أحمق يمكنه العيش بين براميل الحماقة وصناديق الأخطاء التي صارت بعض مصيرنا المرئي، وأكبر المصائب هي أننا لا ندري متى سينتهي كل هذا الخراب وماذا سنفعل حتى نسرع في نهايته؟!.

نسيت سلمى وأنا أتلظى جزعاً بين بندقية لابد من إعادتها، وخوفاً على مصيري إذا ما تخلّى عزيز الدوري عن حمايتي، أنا الأحمق الذي ألصقني العميد على لوحة اهتماماته من أجل ابنة أختي وليس من أجل

سواد عيني، لابد من ترتيب أموري في الجيش قبل أن تشبع غرائزه من فتنة عذراء... من يدري قد يرميني سوء حظي إلى جب لن أخرج منه طوال حياتي، أنا الذي فكرتُ بالهجرة صوب حياة أخرى بعيدة عن المساخر والقتل والصحراء، بعيدة عن مخيلة الحرب التي أرغمونا بسببها على البقاء في خنادقها خوفاً من عدو مفترض.. لابد من حلّ عاجل قبل أن أخسر كل شيء، سأعتذر من سلمى إذا تمكن رأسها الجميل أن يفهم كل ما أنا فيه من ذل ورعب وطلاسم، أشعر أحياناً بشيء يشبه النمل أو الذباب يتطاير أمام عيني، يدور حولي، يوجعني، يسخر مني، هل تراها إشارة (عمى) مبكر وأنا مازلت في ريعان الصبا واليفاعة، أم هي حالات اشمئزاز تغلبني على أمري مما نحن فيه؟.

لم يكن عندي من الوقت ما يكفي للحب، إنني أبتعد مرغماً حتى عن نفسي، خوفاً على هذا الجسيد المرهون منذ طفولته للغزوات والتدريب وعسكرة المسامات، حتى صار مجرد شيء يتحرك صوب معسكرات ووجماجم وأنهار من دم.. كتبت على ورقة خلعتها من دفتر مهمل تحت سريري:

– أعرف أنك الآن معي، وغداً لن أراك.. لا الربيع ولا الشتاء، لا الصيف ولا الخريف، لا أنا ولا أنت نتمكن من تبديل الأسطورة التي نسجت خيوطها حولنا.

شعرت حينها بشيء من الاسترخاء، الكلام مع سلمى بهذه الطريقة يختلف بعض موتي، سأكتب آها اعتذاراتي عما قات من الوقت، سوف تفهم ما أعانيه من ألم بين ضلوعي وأنا هكذا قريب منها وبعيد عنها في الوقت نفسه... قرأت الرسالة ثانية، لا أدري لماذا ضحكت على كلماتي وأنا أقول: "يالك من ماكر وخبيث وكذاب، أي ربيع وأية أسطورة وأي حب هذا؟ إنك لم تسأل عنها ولا تدري بما حل بها وما جرى لها منذ مئات الساعات، ثم تكتب عن أسطورة حب وشتاء وخريف!؟ أنت أول من يدري بأن الزمان الذي تحيا فيه لم يعد صالحاً للحب والشوق وسهر الليالي ومناجاة الحبيب، أنت في الزمن الوقح المائل نحو الوساخة والظلم وبيع ماء الوجه، زمن عزام جبارة الذي علّم الشعب كيف تموت الرحمة بين البشر وكيف تذبح أقرب الناس إليك دون أن ترمش أهدابك أو يقشعر جلدك أو تخجل مما فعلت!.

جائني بنفسه عزيز عارف الدوري، خارج ذلك الكبرياء المخيف، قال فوراً، ربما نطق النخيل أيضاً، والطيور معاً:

– مبروك، انتهى ما كنت تخاف منه، لقد أصبحت منذ اليوم تحت إمرتي أنا، اطمئن، يمكنك البقاء في البيت أو الذهاب إلى أي مكان تشاء.. لن يحاسبك أحد بعد هذه الساعة وما عليك سوى تسليم البندقية و (اليطغ) وتأخذ براءة ذمة بما كان لهم عليك.. زين؟.

لا أدري سرّ تعاستي أمام ذاك الخبر العظيم الذي سمعته، ربما طغت سعادتي حدّ أنني لم أعد أشعر بما يدور حولي، قلت له وأنا أحتفظ ببلاهة لم أعشها أبداً:

– ماذا أقول لهم؟ كيف أذهب إليهم وقد مرّ على نهاية إجازتي أكثر من أسبوعين؟

قال بهدوء كمن يحكي عن سيجارة رماها في الطريق:

– إنهم يعلمون بما أخبرتك به، ما عليك سوى تسليم السلاح والملابس، وإذا حدث أي مكروه قل لهم إن عليك الاتصال بي، مع أنك لن تحتاج إلى ذلك مطلقاً.

كنت قد أحرقت الملابس العسكرية في حالة غضب عارم، والآن بات من المفروض شراء بدلة ونطاق وبيرية، حتى أنتهي من إكسسوارات الدُمية المقاتلة التي كنت أنام وأصحو خلف ثيابها.

رحت أقول مع نفسي وأنا أبحث عن ملابس الموت في سوق الهرج:

– ابن العوجة يصنع الحروب حسب المقاس الذي يريد، حرب لقضاء الوقت، وحرب للفرجة والمباهاة، وحرب للتخلص من السلاح الفائض، وحرب تصنعها بالمخيلة، والعجيب أننا نخسرها جميعها ونغني لها، ثم نكررها ثانية وثالثة ورابعة حتى يستمر الغناء وقرع الطبول!!.

انتبهت برغم طوق النجاة الذي أنقذني من حروب الرئيس المزورة، كيف أننا نسينا الكثير من الصفات العظيمة التي كانت هي قانون حياتنا وشريعة أرضنا، فما عدنا نفهم معنى الحياة أو العفة أو الأمانة، بل صارت مفردات الحرية والرأفة والحلال مجرد أشياء تذكرنا للتباهي وللتسلية في أوقات الفراغ!.

الفصل الثاني

صندوق الأخطاء

في القطار نفسه، من بغداد إلى البصرة، لكن بثياب مدينة نظيفة تحركتُ صوب الجنوب مع بندقية وكيس ملابس، هذه المرة أنام في الدرجة الممتازة التي تسلمت ثمنها من عزيز عارف الدوري الذي قال بزهو لم أره في أحد ممن أعرفه:

– من يناسب عزيز، عليه أن يكون عزيزاً مثله.

وعلى مسافة أوجاع صارت محض نوم ملوكي باذخ، شربتُ البيرة وأنا أحدق من وراء الزجاج إلى صحراء كئيبة طولها أطول من طول افتراضي "لماذا بنوهم جنودنا بحرب لا أساس لها، ومن أجل من حاربنا سابقاً إذا كانت أرضينا تتسع لبناء بلاد أخرى وراء الفرات الحزين"؟ رأيتُ من الفراغ ما يكفي بناء بغداد ثانية وثالثة ورابعة وعشرة مدن بمساحة الكويت، وما يكفي من القبور لمائة مليون جثة، فمن أجل ماذا كنّا نحارب ذات الشرق وذات الجنوب، بالطعم البيرة في غرفة ترقص على رنين سكة الحديد، وأنا أرى (لا شيء) على امتداد خمسمائة كيلومتر من الأرض المذبوحة التي لا عشب فيها ولا طيور تحلق فوقها

ولا من قطرة ماء أو صواب على طول طولها.. يقال إن الحروب التي عشناها جاءت من أجل كرامة البقاء والحفاظ على حقوقنا وطرد كل من يفكر في نهب ممتلكاتنا.. وأنا، هذا الأحمق الذي حصل على بكالوريوس الحقوق بدرجة ممتاز، لا أرى شبرا واحدا من هذه الصحراء الغبراء المهملة! صحيح أن (غازي) ملك العراق أراد الكويت ذات عام من فوران الدم، لكنهم قتلوه، ويوم هلّ علينا (عبد الكريم قاسم) كان بدوره قد طالب بها، فما كان منهم غير أن شطبوه من ذاكرة التراب، بل حرموه حتى من قطعة أرض يموت فيها، لماذا والحال كما نرى ما يزال عزّام جبارة حياً مع أنه تجاوز الخطوط الحمراء كلها؟! أما من تفسير لهذا الظلم الذي نحن فيه؟.

رماني القطار على أرض البصرة، ومضيت فوراً إلى فندق حمدان قررتُ البقاء ليلة واحدة قبل ذهابي إلى مكاني في جبهة الشرق، سوف أسهر في بار "ماري" وأرى ابنتها "ماتيلدا" في الشارع الوطني، كما يفعل أقراني في كل مرة يتحركون فيها نحو الموت.. صحيح أنني لم أتعلم احتساء الكحول الصعبة، واكتفيت عادة بما تفعله البيرة الباردة، لكن الأمر مختلف هذه المرة، فأنا أحتفل بانعتاقي من رحم الواجبات العسكرية، ومن حالة الضجر التي نعيشها هناك بين الخنادق والعقار والعرفاء... مطموس إلى عتقي بلدة انتصاري على تضاريس المهانات والذل، أنام على شرشف من حرير، وأنغمس في لحم حسناء لم أراها إلا في حلمي، يمامة تطير حول رأسي وتنطّ فوق بندقيتي، وأنا أتشابك مع

حفنة من النساء في لقاح أبدي لم يكن غير حلم كاذب يتكرر منذ صباي عبر شقوق، وانتصاب ذكوريتي التي ذبحتها المعارك والأوامر وأخبار الساعة بعد منتصف الليل، هل من عراقي ما يزال يحتفظ بصفات الذكورة بمعناها الدفين خارج لعبة الجنس ومغازلة الأنثى؟ أي رعب تسلط فوق شموخ النفووس وأية مؤامرة دبروها ضد انتصاب الرؤوس؟ من أين يستورد عزام جبارة هذا المخطط الجهنمي الذي تمكن فيه من خصي الرجال وذبح البطولة؟.

في بار ماري، شربتُ قرمزياً لاذعاً، قيل إنه نبيذ باريسي جاء خصيصاً لماتيلدا عبر حدود إيران، ربما كنت أميل إلى حقائق أعرف أنها محض أكاذيب لزيادة المتعة في بار مرغوب كهذا يعشقه أبناء البصرة منذ عشرات السنين.. أحنيتُ جذعي طرباً على أغنية تقول: "غريبة الروح لا طيفك يمر بيها".. رحت أكررها مع نفسي، صحرائي جرداء مروّعة، وفاتورة أيامي لن تصرف أبداً، لم أكن في تلك الساعة غير شخص أحدب ملفوف بعناقيد من أوهام كمسته حتى أختفى عن رحم الإغواء والمتاهات، أسكن في دغل من دخان، بينما كبريائي لم تزل معي، وكذلك خمرتي القرمزية اللاذعة، أنا القيصر الوحيد في هذا (البار) لا أحد يمكنه زعزعة عرشي، نابليون بونابرت، ربما كنت شاهنشاه العالم، كان النبيذ الجميل يسري في تلاتيف وشعاب جسدي مثل وخز لذيذ شهي، وأنا أحتسي العقيق الساحر وأشم رائحة الكولونيا تأتي من وراء الفزع وتأخذني إلى الصراخ بكل ما تملك حنجرتي من رعونة وحماقة:

– أنا القيصر الوحيد، اسمعوني جيداً، أنا جيفارا ابن الحارة، أنا الحجاج بن يوسف الثقفي، جئت أنزع الرقاب التي أثمرت وحان وقت قطافها، أنا شاهنشاه الدنيا، لا أحد يمكنه زعزعة عرشي أيها الجبناء، أنا نابليون بونابرت، أنا القيصر الوحيد بينكم.. هل تفهمون؟!.

وقبل الثانية عشرة، رمونى على الرصيف، أكاد أسمع من يقول: لا وجود لقيصر آخر فى هذا المكان، يكفينا قيصر واحد يا ابن القحبة.

عدتُ إلى غرفتي في فندق حمدان، لا أدري كيف وصلت، ومن الذي أرشدني إلى فراشي، أتذكر من قال:

– غداً عليك أن تدفع الحساب وترحل، قبل الواحدة ظهراً ينبغي خروجك فوراً يا سيد نابليون بونابرت.

هناك من يضحك وراء ظهري:

– حلّت علينا البركة يا مسيو جيفارا وابن الحارة، يسكرون بفنجان عرق شباب آخر زمن.

أسمع طرقاً على باب غرفتي، يبدو أن الساعة هي الواحدة ظهراً، جاءت بسرعة صاروخ نووي، إذا بي أمام رجل بشارب كث يبتسم وهو يقول:

– هل أنت حقاً قريب السيد العميد عزيز عارف الدوري؟!

وقبل أن أنطق بشيء راح يكرر:

– نحن آسفون يا رجل، آسفون جداً والله، كان عليك أن تخبرنا بذلك، العتب عليك، فنحن لا نعرف نابليون ولا قيصر ولا جيفارا، ولا أحد ممن ذكرتهم ليلة البارحة، نحن جنود السيد العميد عزيز الدوري – حرسه الله وبارك فيه.

لم أفهم حقيقة المشهد الجنائزي الذي أصبحت فيه، من أخبرهم – أو أخبره – بمكاني، وماذا يعني ذلك بالنسبة لي؟ إنني أحيا في قمقم الغرائب والعجائب، أتحرك بخيوط لا أحد يراها، لكنها ترفعني وتسحبني وتجرجرني دون إرادتي، بل تصنع مني ما تشاء بلا إشارة من يدي ودون أوامر مني، ترى من يكون عزيز عارف الدوري غير كونه زوج ابنة أختي، والعميد المهاب قائد الفرقة الثامنة مشاة؟ لو أنني رأيت ما جرى في مسلسل عربي، كنت أغلقت التليفزيون، أما أن أعيش بنفسي مهزلة كهذه فهي محض بلوى حتى إذا كانت تخدمني وتنقذني من براثن هؤلاء الذئاب.

برغم طوق النجاة الذي رفعني من الحضيض نحو السماء، تركت فندق (حمدان) وذهبتُ إلى مكاني في جبهة القتال، لم أكن ذلك الجندي الأخرق الذي لا يساوي ولا يعني أي شيء، ثمة من جاء يرحب بي ويأخذني بحفاوة وإجلال، بل يأخذ كيس الملابس والبندقية مني، وهو يبتسم مثل شحاذ، يفتح الطريق أمامي محني الظهر وقد وقف عند باب من قماش سميك:

– سيدي بانتظارك، أوراقك أنجزناها منذ البارحة، وما عليك إن شئت سوى السلام على السيد المقدم وبقية الرفاق.

ثم كل شيء في نصف ساعة فقط، صفّ مرصوص من الجنود يقول "وداعاً أيها العزيز.. مع السلامة يا حمد الصالح"، ثم أرى نفسي فيما يشبه قداساً كنائيسياً، وأنا أزحف على بساط من الخجل والشك، لا، أدري ماذا أفعل بينهم وماذا سأقول، عاجز تماماً عن أية خطوة صوب هذا المذبح الذي يلقني مثل كاهن عظيم.. لا أريد أن أصدق ما أرى لئلا يسلبني الغرور بعض اشمئزازي منهم ومن أسيادهم، فهذا شيء طارئ سينتهي مثل حلم ارجواني عند أول الصباح، كم أدهشني ما أنا فيه من احترام ومحبة، هكذا سبحان الله، في لمح البصر، صرتُ غير ذاك الإنسان المزعج الذي أعرفه في نفسي، حفاوة لم أعشها أبداً، كلمات محبة لم أسمعها طوال شبابي، حتى أن (المقدم) الذي كنت أخاف نطق اسمه، جاء يعتذر عما إذا كان قد أسمعني ذات مرة كلاماً لا يناسبني، بل يبسط اعتذاره ثلاث مرات على رفضه إجازتي يوم إبقائي تحت وابل الرصاص والرعب ومخيلة الحرب الرعشاء ولم يسمح لي بالنزول نحو بغداد لرؤية أهلي وحبيبتي، ها هو يطعج الحروف ويعجن الكلمات بطريقة مضحكة:

– أرجو لك السلامة يا حمد، ويشرفني أن تصل تحياتي وتبريكاتي إلى سيدي العميد عزيز عارف الدوري، يا الله، كم أتمنى لو أنك تنسى

عقوبتي عليك، ما كنت أريد ذلك طبعاً يا ولدي، أنت تفهم الحياة هنا ولابد من الحزم والشدة لئلا تختلط الأمور ونفقد السيطرة على أحبائنا الجنود، بارك الله فيك يا حمد، كنت أعرف أنك من طينة غالية وشريفة، وعساك أن تتذكر تحياتي واحترامي للسيد العميد، وكم نأمل أن نراه بيننا هنا في جبهة الشرفاء، قل له رعاك الله أن مخيلة القادة – هنا – لا تشوبها أية شائبة وأنهم في أعلى وأقوى معنوياتهم لصد أي هجوم يفكر فيه عدونا وعدو الله!

تهاجمني الصفات والتوسلات، وتركض خلفي الرجاءات والابتهالات، أرانب تتوسل، وفئران تسابقني عساها تأخذ مني وعداً بأي شيء قبل أن تسبقها القطط السمينة وتستولى على طيبتي وتنهل من مكرماتي! ولا أحد يمكنه أن يصدق في تلك الساعة كم كنت مرعوباً أكثر منهم، أتوسل الرجوع إلى بيتي قبل أن تفضحني رموش عيني وارتباكاتي.

رجعتُ مخموراً متخاذلاً إلى بيتي، وقد انتهى حزام الرعب عن جلدي، سأرى سلمى وأفتح أبوابي وشبابيك قلبي لحب لا يمنعني أحد من الرحيل إليه، سأرسم عش السنوات مثل لاعب ماهر، أسمع صدى قصائدي التي لم أكتبها بعد، أتشبّت برعشة حريتي بعد ذاك الحرمان الذي فرضوه على نومي ويقظتي سلمى، يا سلمى، لا شيء بعد الليلة سيمنعني عنك أيتها الحلوة المخلوطة في دمي وأوردتي وشرايين جنوني!.

رائحة الليمون أشمّها على الطريق الصحراوي، مع أن الصحراء لا تنفك تكبر من حولي وأنا أتمرغ في لهيب، لا أفهم أسراره يلّفني مثل ورم سرطاني، أنا الرعوي الذئب العبوس الذي كان حتى الأمس مجرد (نعجة) كتب الله عليها أن تنقذ عنقها من الذبح، فهل سأقول شكراً أيها العزيز العارف الدوري؟ كلا، إنني أنا كف وأعاند نفسي، وأرفض طغيان هذا الرجل المائل نحو السموم، فهو جزء من نظام سفّاح ما زلت أرى نفسي خارج تنويمته وعلى نقيض الراية التي يتسكّع بها بين الخراب وبين الإرهاب.. لا أريد أن أكون منهم ولا بينهم، عندي من القناعة بوساختهم من يكفي دهراً من الرفض لكل ما ينبع من بحور خطاياهم وأخطائهم، وإذا ما سألوني عن سرّ غيظي قد لا أعرف رسم الجواب، لكنني على أكثر من يقين بأنهم أسوأ ما خلق الله من فضلات البشر ومن غائط الشياطين!.

أركب باخرتي صوب دبكة ما من أحد يرقص فيها سواي، أتذوّق أشيائي على عتبة البيت الذي لم يعد بيتي، صار كما أرى مملكة لهذا الرجل الذي تزوج ابنة أختي وبات يملكني كما يملكها، دم عنيد بارد، لاعب بلياردو شاطر يضربنا بالعصا متى شاء ذلك، راهب أو قسيس مزيّف يمنع عني الموت حتى يفرضه في وقت لاحق.. ولا حق لمن يتذمّر أو يتحاذق أو يقول كلا، هذا نظام من إرث يتشابه، وليس من تجارة يمارسها غير تجارة الذل والإذعان للسياط.

أشعر بهذا الجرح، أنا الطالع من بكالوريوس الحقوق بدرجة ممتاز، ما من أحد ساعدني على النجاح، حتى (خربشاتي) على دفاتري كانت تخبر بما أعرفه اليوم، وعشيّة اليوم الذي نلت فيه امتيازي لم يحتفل أحد معي غير أمي وشياطيني!.

وها هم الآن معي، أخبروني بأنني أصبحتُ مجرد قواد يوم أعطيتُ صوتي لهذا الزواج العانس، عازف غيتار، أنا لكل من تزوج أُمي سأقول عمي، لا فرق بين نبيّ ونبي إلاّ وبما جاء له وليس لما يقول، وأنا لم أقل أيّ شيء، منبوذ من نفسي وساخط عليها، لست سوى شبح مرابي يسرق الفوائد من كيمياء السياسة المعجونة بالجرائم والأخطاء.. لماذا؟ أي مأزق رميتُ نفسي إلى أسفله؟ أي أنبوب أعوج دخلتُ من رأسه إلى ذيله كما القصبة العجفاء؟.

أحاول عزل روحي عن أخطاء جسمي، أنقر على الطبلة الجوفاء عساني أرقص بقوة وأنقذ نفسي من قسوة أخطائي، شريط من الذل سأمشي على شطريه مرعوباً إلى آخر يوم من عمري، أية أعجوبة ستنقذني من نفسي أنا الذي قرأت كثافة وجداني وقلت ذات يوم: لا بد أن أخرج من صندوق الأخطاء مهما كلفني ذلك من أوجاعه، لابد لهذه الروح أن تأخذ مداها في رحاب الأرض قبل أن يأتي موعدها صوب السماء، لم أكن عبداً وأنا في بطن أمي وليس من حق أحد أن يرميني إلى صندوق مغلق.

دون وعي صرختُ بين ممرات القطار:
- سأخرجِ من صندوق الأخطاء وأنتِ معي يا سلمى.

أسمع ضجة ضحك، أنذكّر بعدها أنني لستُ وحدي، وأن القطار ما يزال يركض على سكة حيرتي وقلة صبري.

اتصلت بها، ولم أعثر عليها، قال أخوها الصغير من أنت؟ وأغلق التلفون، ثم عدتُ ثانية بعد ساعة، قالت أمها:

- سلمى ليست في البيت، ونرجوك أن تكفّ عن أفعالك الصبيانية.

وفي المرة الثالثة عند الساعة الثامنة مساءً، سمعتُ سعالاً وحشرجة ظننتُ وقتها أن (الطنطل) سيخرج من بين أسلاك الهاتف، أفزعني ما أفكر فيه بشأن سلمى، هل ترها تزوجت؟ لا يمكن، ما بيني وبينها أكبر من زواج أو حلم أو نقش على شجر المحبة، صحيح أنني تركتها ما يقرب من شهرين، لكن حياتي كانت مغلفة بالخطورة مثل طفل في قلعة مهجورة يحرسها عفريت، فهل تهجرني سلمى احتجاجاً على ما فعلت؟ مع أنها تدري بما أعانيه ولا يمكنها أن تشعل الكبريت على هذا العصفور التائه المبلل الذي رجع إلى منزله بعد عذاب مرير.. سلمى ليست مجرد أنثى للغزل العابر ولم تكن من النوع الذي يطارد الغرائز من أجل متعة كما التوابل ستنتهي بعد أول نسمة في الصباح.

ماذا جرى وقت غيابي عنها، يبدو أنني خسرتها، وجاء الوقت الذي أكف عن إزعاج أهلها، لم تكن المسافة أطول من شهرين فماذا لو

كنت تركتُ البلاد وهاجرتَّ عنها إلى المنافي؟ أما قالت هي نفسها: "لو ذهبتَ إلى أبعد مجرات الكون ستراني هناك، وما عليك سوى أن تختار الجزيرة التي تشاء أو الكواكب الذي ترغب فيه، أنا لك في السراء وفي الضراء يا حمد"؟! لم نصل درب الضراء بعد يا سلمى، فأين الكلام الكبير الماحق الذي زلزل خطانا ونحن في أول الطريق؟.

شيء لا أعرفه يدور حولي، يمازحني ويسخر مني، زجاج ينكسّر إلى شظايا، عباءة تحتوي داخل سوادها رائحة مومياء وجلد سعلوة خرجت من البحر تواً، أمسك خاصرتي وأنوح مثل أرملة غادرها آخر المحبين، أمشي على رمل المسافة بين دارها ومقهى حسّون المعتوه أشرب الشاي مع جرعة ماء، أشمّ عطر الباميا ورائحة الملوخية المطحونة بالثوم والكرات والبصل، محلة سلمى مزحومة بالجدعان الذين غادروا مصر من أجل حياة أجمل، فما عثروا على شيء هنا غير جداريات الحاكم تطاردهم من شبر إلى شبر، ومن مدينة إلى مدينة، ليس من زينة في الشوارع غير يافطات الهزائم ونفايات الصور التي يمزقها الناس في آخر الليل، اعتراضاً على هذا المخبول الذي شبع من الضرب على خصيتيه وما زال يكرر على شاشة التلفزيون "يا محلي النصر بعون الله".. يا محلى النصر عليك بعون الله، وهل من شيء أحلى؟.

أصابه عرق النسا منذ ثلاثين سنة فما كان منه غير الانتقام من أُمهاتنا بسبب (العراق) الذي ألهب ظهره، رجل بارع في القتل، بارع في

ابتسامته التي يرميها إلى الناس ويراها بعضهم كما البخور أو البهارات، ليس من تقوى غير تطريز الفواجع ونثرها على اليتامى والمشردين هبة من القائد الضرورة، بارع في رفع شراع العبور الناجز الذي ما أنجز أي شيء ماكنة كذاب وفيزياء مؤامرات ومطحنة إزعاج، وها هم الجدعان في شارع الرشيد يتكوّمون على بريد الغربة في (شبه مربع) محكوم بالزعاطيط والجندرمة، وعشرة أنواع أخرى من الشرطة والعس وحماة إبليس، أين حوريات بغداد أيام كانت بغداد فعلاً؟ أين الحلاوة والبقلاوة والجوري؟ أين تلك الشانشيل التي انتشلت أحزان قلوبنا منذ مئات السنين ؟ أين ولّت المسرّات ومن يأمر اليوم بالمهالك والموبقات؟ مدنس كل شيء ولا مفر من الهجرة حتى إذا حقق لي عزيز الدوري نصف أُمنياتي، ما عدت احتمل النقائض التي أعيشها ولا الحب الذي يرغبون، أنا البوذي الذي سيحرق نفسه إذا ما أرغموني على قول (نعم)، بينما سفينة الروح تمضي شامخة على بحر كل أمواجه تصرخ: كلا. أتذكر شعباً قال (نعم) في الخامس عشر من تشرين أول ١٩٩٥ تحت الحراب والسيوف، بينما النفوس كلها تصرخ (كلا).. وما الفائدة؟ أكاذيب مغطاة بالسيلوفان، وشعارهم يقول إنه (يوم الزحف الكبير) وهل زحف الشعب على شيء غير النفاق على نفسه خوفاً من مذابح أكبر؟!.

ما نفع أيام الحقوق التي راحت في دراسة الحق لصاحبه مهما تأخر الزمن؟ ما نفع تلك السنوات التي تعلّمت فيها معني أشباح الباطل أوملائكة العدل؟ ما نفع امتيازي إذا لم أتميز عن سواي؟ حتى أصدقائي

نوفل ورباح ما عاد من أمل فيهما، بل ما عاد من أمل في أهل محلتي، ما عاد من أمل على طول بغداد وامتدادها، خاب الظن في البلاد بأسرها، والرصاص بالمرصاد لكل من يرفض عبوديته، بينما السجون تتناسل مثل بيض البعوض، ها هو الخوف يسري على إسفلت الزقاق، والأبواب كلها تغلق قبل التاسعة لئلا يأتي من يسأل عن خطأ ما، أو عن شتيمة كتبوها على الجدران، فما من شيء ينقذك من العقاب غير النوم، ولا مفر من حجر نفسك في بيتك، فخذا خير من الحجر في دهاليزهم وتحت سياطهم وكلابهم الجائعة التي تنتظر لحوم البشر!.

في البيت، بيتي، سألتُ عن ابنة أختي عذراء، أخبروني كم رقصت فرحاً هي نزفّ إلى عزيز عارف الدوري، كان فندق شيراتون يشهق بالأحبة من أهل (عزيز) وأقارب (عذراء)، حتى أن سيادة العميد طلب من إدارة الفندق تخصيص تسع غرف وثلاثة أجنحة لمن جاء من خارج العاصمة بغداد، وحش يملك الملايين وسلحفاة تمشي بهدوء مضحك، جائزة غير مرئية لهذا الناطور الذي يحلّق حولهما بدون أجنحة، تماماً كما يفعل قائده المحنك عندما يجلس في مخبأ متوّج بالضاحكين والشعراء والسفلة.

قلت لهم: ماذا قالت ابنة أختي ليلة زفافها؟ إذا بهم يسألون: ما بالك تسأل هكذا والبنت صارت من نصيب هذا الرجل المهم؟ ثعالب

على هيئة بشر، نحيب على شكل ابتسامات، ذهب وتصفيق ونشيد أخرس، وليس من أحد يخبرني عن الديم والدجاجة.. أرى قبالة عيني حطباً وفحماً وناراً، وليس من نافذة مفتوحة على الشبهات، سنونو يرفض الغناء على هذا الخواء، ربما جاء الملك المقيم على مسألة أحزاننا وصار ينقر على طبل آهاننا وفوق لوعة أحزاننا ونحن ننزل السلالم، بينما يصعدها كما الأراجوز وهو يلعب معنا لعبة (الدومينو) إذ يخفي بين أصابعه القطعة المعطوبة الخاسرة حتى يرانا نخسر قبله، الريح ممنوع معهم، وإن كنت العنيد الذي يريد فرض شروطه في اللعبة، عليك أن تموت فوراً حتى تستمر اللعبة كما يرغبون هم، مادام الربح لهم والخسارة لمن يفترض العدالة منهم.

جناح واحد، وربما مكنسة على شكل جناح، أحاول به رفع جسدي عن المحارق والقشور، مؤومنة تكفي (قارون) الدجّال مع ريشة أمسح بها ذنوبي وأنا أعرف جيداً ما فعلته بنفسي من أجل إنقاذنا، كيف تراني رميتُ بهذا الدرويش البهلول إلى زناد عزيز عارف الدوري متى سيضرب إصبعه على هذا الجبل الساخن الذي صار محض ممسحة، وإبريق ومشجب يعلّق فوقه نفايات أيامه ولياليه؟ لا غطاء لي بعد هذا القرد المائل الذي صار ملك يديه، لابد من (وكر) أخفى تحته توسلاتي وضعفي وسورة انفعالاتي، أنا الوديع الذي يملك الكثير من كنوز الحقوق والمعرفة وخانات من تأنيب الضمير.

في هذا القبو الذي هو بئري ويهجرني وهواجسي، أتشابك مع نفسي ضد نفسي، لا أدري ماذا أريد، أزحف مثل دودة تمشي بشال أبيض وبوجه صبوح نحو ما فعلته بعائلتي ساعة إن قلت نعم لزواج عزيز عارف الدوري بابنة أختي، وأنا عارف أي خنزير هو الرجل الذي رمينا بكبريائنا تحت يديه، أبكي على حثالة عقلي مع أنني تحررت من الجيش ومن طراطيش المخيلة التي تصنع منها الموت والمذابح والرصاص، ثم نرسم زئير الشظايا وزعيق الطائرات، وسيبقى أمر القائد هو قانون القاوانين: ممنوع أن نبقى دون حرب، نحن في حالة حرب، والنشامى ستبقى أصابعهم على الزناد ويا محلى النصر بعون الله.

الجاموس في المستنقع، والعصفور على الشجرة، والتلميذ في المدرسة، والأبرياء في السجون، والمرأة وراء التنّور، والرئيس – حفظه الله – في محفظة أسياده يحركونه باتجاه طهران مرة، وصوب الكويت مرة، قراقوز يتحرك شرقاً وجنوباً وشمالاً بخيوط نراها تحت أبصارنا، ونقول إننا ما رأينا أي خيط، الخوق هو دستور البلاد الوحيد، يبتغير كل شيء في هذا العالم المريب، المستنقع يغطى الجاموس، والشجرة فوق العصفور، والمدرسة في التلميذ، والسجون خالية من الأبرياء، والتنور يخبز المرأة، إلا قائدنا عزام جبارة المحفوظ في محفظة أسياده لا يتغير، فما يزال الخيط محفوراً على معصميه ورجليه وخصيتيه، أما فمه فما زال يقول:

– يا محلى (عون) ينصر الله.

ويقطع البث حتى إشعار آخر لترميم الفك المعوج، ورسم الصورة الصحيحة في المكان الصحيح: العصفور على الشجرة والتلميذ في المدرسة والجاموس في المستنقع وعزام جبارة في الحضيض.

في أول زيارة إلى قصر عزيز عارف الدوري، حسمتُ أمري على ترك البلاد، إذ من غير المعقول رؤية قصر كهذا موازنة المجاعة وطوابير الشحاذين قرب إشارات المرور، ورمٌ في صدري ينمو، زوبعة من غضب وأعاصير من الجزع يجرفها دمي نحو رأسي، وأكاد أسقط من فرط حقدي الذي ما تمكنت من كظمه، أي فرعون هذا، وكيف جاء بتلك الأموال التي أعطته قلعة بهذا الشموخ؟ مهما كان راتبه الشهري، محال أن يتمكن المرء من بناء قصر طالع صوب السماء كهذا.

مزرعة من شقائق النعمان، بستان من الرمان واليوكالبتوس، حشود من الطيور، ملاعق من ذهب وأكواب من طوكيو، خيول أصيلة تركض على هواها وترجع ثانية إلى مكانها، أما داخل إمبراطوريته في ممرات البيت وزواياه، فما من وصف يمكنه حسم الرهان على هيمنة هؤلاء الساسة الذين سرقوا الثور والمال والبقرة، حياة لا تعرفها ولم نرها حتى في أوهام السينما، ولم نسمع بها إلاَّ في حكايات الجان، إنهم داخل أسطورة من العيوب وجبال من الجرائم دون أن نعرف فكّ طلاسم أسرارهم أو الطريق إلى كهوف ملذاّتهم المشفّرة، حمير ولكن بثياب من حرير، البردعة في مكان خفي، ببغاوات لكن بلسان عربي تلثغ الراء

والفساد والدنس، نسغ عفن من الفس والوحشية والرعونة، لكن شكل العبيد والشعراء – حولهم – أعطاهم هيبة الملوك والفاتحين.

هذا العزيز العارف واحد منهم وليس أغنى من فيهم، بل هو محض خادم ذليل لقائده الأعلى، كان يبيع النفط في عربة يجرها حمار تعبان، نفق الحمار ولم يعد من أحد لديه غير التطوّع في جهاز الأمن، وفي كل مرة يموت فيها (بطل) بين يديه يصعد شبراً وترقية، حتي سمع به نائب الرئيس فأعطاه مجموعة أكفان لحفنة من الرجال سيقتلون تباعاً بعد وقت قصير، تمكن عزيز عارف الدوري من تنفيذ الواجب بسرعة لم يصدقها النائب الملهوف، إذا بهما معاً – النائب وعزيز الدوري – يتسلقان السلالم في وقت واحد، وما كان من أحد أسرع منهما، صار الأول رئيساً لجمهورية القتل ومضى عزيز إلى فرقة المشاة الثامنة، من بائع نفط جوال إلى قائد كبير، مسرحية مرايا، كل واحد ينافس الثاني بما اقترفت يداه أو سرقت، بائع ثلج مسكين هو نائب الرئيس، ونائب عريف في الجيش كان مسؤولاً عن تنظيف المراحيض صار وزيراً للدفاع، ومضمّد يزرق الإبر في مستشفى الرشيد بات رئيساً للوزراء، وقاطع طرق في تكريت صار وزيراً في الوزارات كلها، والجميع يرى الجميع على صفحة المسرح المغطَى بالتوابيت والضحايا، وزير يخاف من فَرّاش في وزارته، جنرال في مصانع الأسلحة مرعوب من بوّاب المصنع، كتابة التقارير يمكنها أن تكسر أيما رقبة وما من شفيع إذا جاء الكلام موزوناً ومقفّي كما القصائد، ولا علاج لهم – كلام – من وسواس الغد ومن

رعب المجهول غير القصف والنساء والعربدة حتى مطلع الفجر... هذا ما أخبرتني به (عذراء) ابنة أختي إذا قالت:

- بدأت أخاف مما أسمع، وما أسمعه لن أقوله أبداً، وإذا أخبرتك بما سيحدث بعد يوم أو يومين سأموت حرقاً في برميل من النفط، كما احترقت صديقتي إسراء، وما من شاهد سيعترف بما جرى أو بما رأى.

قلت لها: وأنا أيضاً لا أريد أن أسمع منك أي شيء، كوني بعيدة عنهم مهما كان اقترابك منهم، ليس من خطأ سيبقى أبد الدهر، وما من هدهد أو طاووس أو عقرب يمكنه العيش أكثر مما يستحق.

حكومة بلطجة من طراز يثير القرف، لا علم ولا ثقافة ولا معرفة، لا حياء ولا أخلاق ولا دين ولا أمانة، حفنة من الحفاة تحكم أرض النهرين يالحديد والنار والفسق والإذلال، بائع ثلج لم يدخل باب أي معسكر في حايته، يصير قائد أركان ووزير دفاع ومسؤولا عن باعة الثلج في جلولاء، سائق (ماطور) يمسك ثلاث وزارات ولم يحصل على شهادة الابتدائية، مدمن خمرة سلبوه بكارته في الصبا يقترحونه شيخاً على عفة المؤمنين، حارس مدرسة سرق حتى الطباشير يذهب سفيراً إلى الدانمارك، وتعلّم فيها أن الدبلوماسية تعني الكياسة والصبر والعبقرية، وما دام لا يملك أياً منها، فقد احتفظ بسفارته وأمضى فيها دهراً من المتعة وجمع المال وشراء ضمائر بعض الباعة، شقيٌ من حفاة العوجة، كانوا يسمّونه عزاّم أبو مخطانة ليس من أب له، فأعطوه اسم رجل عابر جاء

مشياً على اليدين، لقبوه (جبارة) بعد أن عبر النهار ذهاباً دون إياب، وصار عزّام أبو مخطانة منذ أن غرق ذاك العابر يسمى (عزام جبارة)، وقد تعلّم السباحة والغوص حتى يثأر لمن أعطاه اسمه وأنقذه من تلك الصفة التي تمكن أن يمحوها من ذاكرة أقرانه بمرور الزمن، إذ إنه قتل زمانه وصفاته وأقرانه في يوم واحد.. هذا الشقي، كما اعترفت عذراء هو الرئيس الذي يحكم الشعب والوزراء والسفراء وباعة الثلج! عزام أبو مخطانة، هو نفسه عزام جبارة، لكنه تعلم كيف يمسح أنفه بأوراق الكلينكس، وكيف يلبس البنطلون، بل علّموه كيف يشدّ ربطة عنقه وقيطان أحذيته ومتى يرفع سيفون المراحيض بعد أن هلك تماماً حتى نعلّم تلك الطلاسم (المزعجة)!.

عند جنوب القصر المهيب الشاسع المتفرع إلى قنوات وكراجات، عثرتُ على شوكة لم تزل على أسنانها بقايا دم متخثر، حفنة من الجراد تطير علي مقربة من أسلاك المزرعة، تخاف أن تقترب من بستان السيد العميد، نظرت وراء السياج، أنقاض بيوت وخرائب وما يشبه القبور، رجعت ُ فوراً إلى داخل القصر خشية أن يراني أحد من الحراس الموزّعين كما المسامير حول مساحة طولها يزيد على مخيّلتي، شربتُ عصير "الأناناس"، وما كنت قد تذوقته طوال عمري وما سمعتُ به ثم جاءت الخادمة بالتفاح والموز وعصير المانجا حتى أيقنتُ في تلك اللحظة المنزوعة من تاريخ الأرض بألا مكان لأمثالي على أرض تحكمها الوساخة ويتغلغل في ترابها الطاهر سماسرة القتل وشيوخ البذاءة، ولماذا نسيت

في حكومة البلطجة رئيس الوزراء، الذي لم يكن غير مضمد مستأجر لزرق الإبر، لم يقرأ كتاباً أو حتى نصف كتاب طول حياته، صار يأمر وينهي ويظن – سهواً – إنه لا يقل شبهاً بنوري السعيد أو عبد الرحمن البزاز، روبما يشتط خياله حتى يظن أنه أعظم شأناً من رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم ما دامت التسميات هي نفسها في الاحوال كلها!.

استوى عندي أن تكون سلمى معي أو لا تكون، لم يبق في جسدي مثقال أسف على ما نويت.. أشعر أن جلدي يتشقق في كل مرة أقارن فيها بين جوع الناس وثراء هؤلاء الذئاب، ثروات البلاد كلها لهم، ولا شيء للفقراء حتى الفتات، اقتربت من العميد عزيز عارف الدووري بقلب شجاع ولا أدري كيف ابتسمت في حضرته وأنا أقول :

– ما دمت في بيتك العامر هذا، هل أستحق منك هدية صغيرة ؟ أعني أنها صغيرة بالنسبة لك وكبيرة على صعلوك مثلي..؟ .

في تلك الساعة الغبراء من تاريخ العجائب، شعرتُ أن شبابيك السماء مفتوحة كلها على حقول قلبي وهو يقول :

– مهما كانت (هديتك) التي تفكر فيها يا حمد، ستراها بين يديك حالاً.
رأيت عويل الصحراء ولم أسمعه، تذكرتُ عربة النفط والحمار التعبان الذي نفق، أشم روائح الحرمل والبخور، ربما أتذوق طعم اليانسون وعطر القرفة وأنا أقول كلاماً يشبه الغزل:

– أحلم أن أسافر إلى بيروت أو دمشق أو عمان، وليس من السهل حصولي على جواز سفر.. أنا ما زلت كما تعرف مربوطاً بقانون الجندية ولا يسمح لي بالسفر ما دامت البلاد لم تزل في حالة إنذار.

ما من شيء يشبه الرمس المعتم إلا انتظارك نطفة الخلاص، أتحسس أصابعي، وأضرب الخنصر بالسبابة من وراء ظهري، رأيت النار، وما من رماد على ملامح الفرح، إذا به يضحك، عزيز عارف الدوري يضحك بكل ما عليه من نجوم ونياشين وأوسمة، يأتي رنين ضحكته من وراء الظلمات التي تحكّ عظامي وتسري في دمي، يضحك بقوة على نحول جسدي، ربما كان يضحك من طمعي وإسرافي وكثرة أحلامي، أنا الجندي الذي فاز بإنقاذ نفسه من الحرب والمذابح التي ستأتي حتماً، لكنه يكف عن الضحك فجأة ويربتُ على ظهري، ثم ينطق بالحكم على مصيري بثلاثة وعشرين كلمة فقط:

– غداً تذهب إلى دائرة الجوازات، سترى بانتظارك المراسل جعفر عبود، وسوف تأخذ الجواز قبل نهاية الدوام، خذ معك ثلاث صور لوجهك الخائف هذا .

مهزوز من أخمص ترابي إلى قمة رأسي، هذا عالم محكوم بالهيمنة والكفر والمصائد، أنحسر مأخوذاً بما أسمعه وما أراه، هيكل قنفذ يحتوي رعبه باحتواء رأسه بين الشوك والدبابيس والعاقول، ترى ماذا يفعل السادة الكبار على غفلة من هذا الشعب المغلوب على أمره؟ هل

ثمة شعب يمكنه السكوت كل هذا الوقت؟ أصغي إلى دويّ انفجار بين ضلوعي، أتلصص من خصائص عزيز عارف الدوري بائع النفط على حقائق البيوت الكبيرة، ماذا تراهم يغزلون من جرائم ولذائذ ووقاحات في لياليهم الحمراء السرية التي لا يعرفها أحد من أولاد (الخايبة)؟ أسرارهم الكبرى معهم، وبرغم هذا فما نعرفه عنهم يكفي لقلتهم دون أن يحاسبنا الله.

كم هو باهت ما تركته ورائي، شاحب كل شيء عرفته طوال افتراضاتي بأنني أملك الحق في بعض حقوقي، أرمي طوق نجاتي إلى البحر وأغرق فيه حتى أنقذ نفسي وأفترض السعادة حلاً، كم خسرنا منذ نزوح العوجة إلى بغداد؟ أسكت مذعوراً عما انطوى من تفكيك عائلي وأجلس وحدي في كوخ فقير بين الرهبان أمازح صحوى بما رأيت من كوابيس وأدخل في معارك لا جدوى منها وما من بشري يشاركني حربي، لكنني أتخيل معركتي (معهم) عساني أحقق شيئاً من النصر أخفف بعده ثقل ضعفي ونقص قوتي، قلت لهذا الرجل الذي كفّ عن الضحك والمزاح والتباهي:

- لا أدري والله أيها العزيز ماذا أقول عن هذه الهبة الكبرى؟ لكنه أسكتني بقوله:

- يا رجل، تذكّر أنك خال عذراء، وأنك ولي أمرها قبل أن تصبح زوجتي ثم أنك أدرى بما يعنيه السفر بالنسبة للشعراء.

وبرغم صوته الطيب الحنون، شعرتُ بشيء من البرد تسلل نحوي وأنا أفكر في حكومة عزام جبارة، في لمح البصر يحصلون على كل شيء يرغبون به، وفي لمح البصر يموت من لا يرغبون به!.

في صباح اليوم التالي، سميته الأربعاء الجوهرة، عند الواحدة ظهراً، كنت أمسك بين أصابعي (الباسبورت) المرقم **٦٤٦٢٥٣** وأنا أزفّ البشري لنفسي، وأدعوها إلى كأس من العرق الزحلاوي في بار لا اسم له، أمشي على أثر ممسوح وأرى المغيب الناعس على محك الضوء الطافر من مياه دجلة، ربما بكيتُ فرحاً بين طيات عنادي، أنا الحفيد البائس لعائلة أرادت الحياة صحيحة مقعولة أو نصف عادلة، فما أصابها غير الذل والخسارة والقلق!

أصابعي – وهي ترتعش – تمسك الكنز المرقم **٦٤٦٢٥٣** وبي مس من الجنون والفرح الطارئ العنيف، ترى هل يشاركني الناس في بغداد ما أشعر به، أم أننى وحدي طريد هذا الشوك الذي يتشظى فوق مسامات جلدي ويسري مخبولاً نحو عظامي؟.

حسناً، سأغادر الوطن الذي سرقه شيوخ النجاسة، لا شأن لي بهذا النسب الملصوق بأرض العوجة، فما من شيء أعظم من هدوء البال وحرية الغياب، لن أتخيل الحرب وفواجعها ولن أشارك فيها بعد اليو م، لن أمشي بعد الليلة لصق الحيطان خوفاً من العرفاء وكتاب التقارير وشرطة آخر المساء، حتى هزال جسمي سأحوله إلى سؤال عن الظلم

والمذابح وكثرة الحروب، فها هو نبض القلب يزفّ الوعد الذي أكون فيه خارج دولة الخراب والمسالخ، خارج الوباء والعنف والمذابح والخطابات الجوفاء، خارج الجداريات والمواعظ والسفالات، خارج بيت المحنة الذي تأسس على عظام الفقراء، خارج قلعة الحاكم الذي ما يزال يظنها (حصينة) ما دام يسكن بين خلاياها ومرمرها، وما عاد من شيء مهم غير أن أرى تأشيرة الخروج وأسمع نيراني وهي تُطفأ في (طشت) الخلاص، ستقول مسامات جلدي (تش ش ش) في ماء بارد، كما الثلج وينتهي كل شيء، ربما يصعد الدخان وأنا أطفئ ناري في ماء الحرية، عسى ولعل وربما أنسى وجه عزام جبارة حين أرى الجمال يهدهدني ويرعاني.

مسكت جواز السفر بين رعشة قلبي وأصابعي قرأت فيه اسم (حمد محمود الصالح) وأتمد لي أنه اسمي، وعلى الصفحة الصفراء من غلافه الأخير تحذير يقول: "هذا الجواز وثيقة ذات أهمية عظيمة ويجب ألا يستعمله أي شخص لم يصدر باسمه" المهنة: أعمال حرة، ومكان الإقامة بغداد، الطول متر واحد وسبعون سنتمتراً ولون العينين نرجسي فاتح والوجه دون علامات فارقة، مع أن اشمئزازي منهم يوشك أن يظهر فوق جبهتي وأهدابي، تذكرت في برهة من الزمن المغفّل تلك الوصية التي يقول فيها الحاكم "احذر من يكون ضمن صفوفك ويعمل لنفسه حسب" وشعرت بكمية من السخط على هذا المخبول الذي يقول ويكتب أشياء لا يفهم منها – هو نفسه – غير رنينها المجوف!.

أدخلتُ مفتاح حريتي في قفل هائل اسمه الوطن، أعترف بهزيمتي وأنا أغادر بغداد التي كانت حبيتبي، ربكتُ الباص في (علاوي الحلة) ولم أخبر أحداً بما نويت، متاهة أمشيها وحدي، لا أعرف شكل مصيري، لكنني نويتُ عليه بالثلاث: لن أعود حتى يتغير اللون والطعم والرائحة!.

باعة العصير والسجائر والفلافل يصرخون على بضاعى هي أرخص ما أراه قرب معصم الباص الذي أوشك أن يمشي، لا عزاء لي غير شمعة لا أملكها وحزمة من الصلوات وجماجم أحس بها ولا أراها، غبار وغيوم وثغاء خراف تقول وداعاً أيها الطيب المسكين، وداعاً أيها الكئيب المنحوس، إياك أن ترجع صوب البلاد التي خذلتك، إياك أيها الثعلب البريء أن تتذكر خارطة المكان الذي ستمضي عنه، أعوام في جدائل سلمى التي رفضت أن تراني، وأخفي خاطري بين أعشاب الموسيقى التي أسمعها تغنّي مع زكية جورج وسعدن جابر وزهور حسين، أشبك أصابع يدي على منارة تقول (الله أكبر) وأنا أصغر تحت هيبتها، أترعرع مثل طفل وقح في ساقية من الذكريات، كنائس وصلبان ومغامرات بلهاء ما عدت أملك منها أي شيء، رأيت من يقرأ في واحدة من جرائدنا، عند طرفها الأيسر وصية تنهق وما من أحد يلتفت إليها". لا تجعل عدوك يطمع في صفحتك ولا صديقك ييأس منه "وانقطع المعنى، كما انقطع النهيق حين رأيته يرمي الجريدة من نافذة الباص، وهو يرجو السائق أن يخفف من أحزان أغانيه المختارة.

قال السائق بكثير من الضجر:

– يا جماعة، الطريق أطول مما تظنون، الله يخليكم، لا أريد طلبات المستمعين، عندنا أشرطة كثيرة ومنوعة وسوف تسمعونها كلها، من داخل حسن إلى أحمد عدوية، بس طلبات خاصة ماكو.

تأفف أحد الركاب بصوت مسموع وهو يقول:

– الله يستر، هاي مو خوش بداية.

عند الحدود، لا أثر لحمامة أو غراب، أرض رخوة، صخور، آثار مجنزرات، خردوات أسلحة مهملة وحجارة من هذه المغارة، وليس من حبال تنقذني من الكهف الذي سأمضي إليه.

لكنني عبرت المحنة في غمضة عين، قلت لهم: أنا قريب السيد العميد عزيز عارف الدوري، فكنت أول من تسلم (فرمان) النجاة من بين أنيابهم وأول من عاد إلى مكانه في الباص وأول من أحس بالعار يلفّه هو يستعين بمن يكره! أعيش حالتين متنافرتين، القناعة بحماية العميد ابن السلطة، والقرف منه ومن أسياده معاً، إنني أكره نفسي حين أراها بحاجة إليهم، بينما أهرب من نيرانهم بمعونتهم، فأية بلوى دخلتُ إلى شراكها؟.

في منتصف الدرب الضيق بين حدود العراق وأجفان الخلاص، سمعت تراتيل جنائزية، محض خطوة بين القمع والحرية، قذائف وثقوب في جسد الأرض، ذهول ومعراج ورعاة من الزمن الحجري، ليس من قناع أخفي وجهي خلف برقعه، خيمة تشبه قبعة أتعرى خلفها عساني أهرب

مثل جاموس بري لا يحتاج إلى تأشيرة بين بلاد وبلاد، لكني بنفسم أقرع أبوابي وأعطيهم جواز سفري مع انحناءة بؤس ومناحة وفزع.

– المفروض أن مواليدك في الخدمة العسكرية ؟

نعم، أدري، أنا خال زوجة عزيز عارف الدوري، هو الذي سلمني هذا الباسبورت، يمكنك الاتصال به إن شئت، هذا رقمه في البيت وهذا رقمه في المعسكر.. لكنني عبرتُ المحنة في غمضة عين، وعندها رأيت أول طائر في السماء!.

خطوت الأمتار التي تشبه الجمر بين "طربيل" وأول زخة مطر على ثيابي، تش ش ش، انظر إلى السماء مثل رجل خرج من علبة، أمشي مترنحاً على مدرج الحلاوات دون مطاردة أو فحيح.. أنا النمرود الملفوف بفراش الورد، أتسلل نحو الحرية تحت وابل من الهلاهل والحالوب، مغلف بالدبس والراشي والعصافير مثل صنم (معبود) مطفأة كل الحرائق حولي، أنا لفة ثلج في جدول ماء بارد تحت شتاء يغطي في شتاء، تش ش ش. أذوب عن فرح عميق كأمير منفوش بالحسناوات والخمور، تلتف حوله الحلوات، شقراء وسمراء ومالحة، بلا رذيلة أو شقاة، حرام كل ما فات من عمري بين المزالق والعجرفات، ليس من بوابة إلى الخزامى غير بوابتي، وما من سطوة على عشائي وغنائي وأعصابي وبراءتي غير سطوة نفسي، جذوري هي الوثيقة، ومهاراتي هي قانون حياتي، أنا "السطة" الوحيد على ما تبقى من زيتوني واحتراقاتي

وقصائدي، لن أبيع صندل غرفة نومي ولا خزف ذكرياتي إلى أي خسيس مهما كان الثمن، أنا العتيق الذي لا تهمه ابتكارات العصر، وحجارتي أثمن من ذهب الدنيا أنام عبى بقعة من الصحراء وأقول (هذا عرشي) أمحو أرقامي في وطن ما رأى في إنسانيتي غير رقم خاسر، قد أتعرىّ في الشوارع والمواخير مثل مومس خرجت من (منزول) أو ملهى وأقول: المهم والأهم أن أرى حريتي، حتى إذا أحرقتموني على فحم أكير سخونة من الجحيم، وليس من باب سأخرج منها إذا رضيتم بحجزي وراء جنوني.

ماذا دهاني؟ كنت أصرخ في أعماقي، خجولاً من بقايا خوفي، وقد خرجت من حدود العراق، أصرخ دون صوت: اطمئنوا أيها السفلة، لا شأن لكم بي، ولا شأن لي بكم بعد هذا اليوم، أنا مجرد لحم (منكوش) أخطأتم في نكشه جيداً حتى يموت!.

والغريب في أمري، هو أنني كدت أنسى كل شيء، إلا حرق إسراء في برميل النفط، أية لحظت تلك التي يُحرق فيها الإنسان حياً؟ ومتى يجيء الوقت الذي سنحرق فيه ذاك الظالم حتى يتذكر الناس أن العين بالعين والسن بالسن ومن بدأ الجريمة أظلم.

أليس هذا هو قانون السماء؟ لكن ماذا فعلوا بي حتى أغضب منهم وأحقد عليهم كما أنا غاضب وحاقد الآن؟ وإذا ما سألني أحد عن سرّ غلياني وأسباب اشمئزازي منهم ماذا سأقول؟ أشعر أحياناً بأنني دون

قضية، وأن الغضب الذي يسري بين ضلوعي لا أساس له، فما من أحد مسني بشيء أو اقترب من لحمي بخدش، ثم فجأة أفكر في جروح الوطن الذي استباحوه وأغرقوه بالفسق والقتل والحروب فأصرخ بيني وبين أنفاسي: وهل من قضية أكبر مما ترى يا حمد الصالح؟.

بكيت مثل طفل وأنا أرمي نثاراتي على أرض (عمان) التي وصلت إليها في الواحدة ليلاً، قورة غضب من طريق أرهقني، ذبابات وطنين في رأسي، مع ترنيمة حب خطفت بين متاعبي وتساؤلاتي: وماذا بعد؟ ها أنت خارج الطوق والوصايا وجداريات المدينة، لا عزام جبارة ولا وصاياه ولا أكاذيب الحكومة التي طفحت كما المجاري، فماذا ستفعل؟ مخنوق هذا الطائش الذي يشتاق إلى طعم الكنافة والبقلاوة وعش الغراب، أحن إلى رغيف أبيض، إلى معطف ينقذني من العواصف والجنون، لا أعرف أي شيء عن شوارع وخبايا هذه المدينة، ماذا عن أزقتها وشعابها؟ ليس من شمعدان يضيء دروبي إليها، حقيبة مزحومة بمتاعبي وخاتم ذهبي جئت به للطوارئ إذا ما خبت النجوم حولي، قالت أمي: (خذه معك وليكن آخر شيء يباع إذا أقفرت الدنيا) .. قنطرة واحدة تكفيني شرط أن أعرف الطريق إلى شاطئ الأمان، لذلك مضيت إلى أول فندق رأيت لسمه وسط البلد، قلت لصاحبه – وربما كان حارسة – كم هي أجرة الليلة عندك ؟ قال:

– خمسة دنانير إذا كانت الغرفة لك وحدك وثلاثة دنانير إذا كان هناك شريك معك.

أسمع صهيل حصان آخر الليل، وليس من أحد معي، الواحدة والنصف بعد منتصف العتمة، لا أسمع غير الشخير، وأنا متوتر من التعب وطول المسافة التي قطعتها من بغداد إلى فندق (الريفيرا) قلت له لا مانع أن يكون معي شخص آخر، سأدفع ثلاثة دنانير عن كل يوم أمضيه في تلك الغرفة، رأيته ينقر على دفتر المسافرين، وهو يطالبني بدفعة على الحساب، كانت جزمته السوداء تنقر على الأرض مع قرقعة وازدراء (ربما أرادني أكثر إذعاناً مما بدوت له) كلا، يبدو أنني ما زلت أحيا بملابس الخوف التي صارت مثل زي رسمي موحد لكل عراقي حول تراب النهرين، كان صاحب الريفيرا يبتسم وما أظنه فكر لحظة واحدة في أن يراني بالصورة التي افترضتها ورسمتها في مخيلتي المسجونة تحت سفالات عازام جبارة ورجالات الشرطة والأمن والمخابرات هناك في بلدي.

غرقتُ في النوم والكوابيس، رأيت تمساحاً وحفنة من كلاب مسعورة تطاردني، تفتح بابي وتسخر مني، حفيف شجر وربما أفعى، امرأة عمياء تحمل عكازة تضربني بها في كل جزء من جسدي، كنزة صوف تمسك أشلائي وأنا في عز الصيف، لم أكن غير أرنب مرعوب يطارده البوليس، سمكة قرش تريد أن تأكلني وذئبة أنيقة تدور حولي مثل جزار ينتظر الفريسة حتى تهدأ، ثم أسقطوني على قمامة تفوح منها روائح التفاح العفن والباذنجان المحروق، وبرغم طول الكوابيس لم أستيقظ من تلك النزهة الجهنمية حتى صارت الساعة العاشرة صباحاً.. نزلت السلالم التي

أخذتني إلى مطعم القدس ومقهى السنترال، أمشي مثل غزال جامع يريد أن يرى كل شيء في لمح البصر، وعند السور الذي يفصل الرصيف عن الشارع رأيتُ شخصاً أعرفه ولا أتذكر أسمه، قال يلي فوراً وهو يبتسم: كيف حالك يا حمد؟ وراح (بيوسني) أربع مرات، وأنا عاكف على نفسي أتحاشى السؤال عمن يكون، إذا به يقفز على إرهاصاتي – هو الضئيل النحيل الذي يشبه غلطة – ويقول ضاحكاً:

– هل نسيتني بهذه السرعة؟ أنا حيدر طماطة يا رجل!.

نعم أتذكر اسماً كهذا سمعتُ به في مقهى "حسن عجمي" في شارع الرشيد، لكن طعم البارود وتخمة البلوى كادت تغلق ذكرياتي وتنسف قلاع ذكرياتي:

–كيف حالك يا حيدر، أجل تذكرتك طبعاً، كنت أظنك لم تزل في بغداد!؟.

لم أكن على صواب فيما قلت، تجثم فوق صدري صخرة من أوهام أتمرغ، بل أترنح تحتها مثل سكير بائس وأنا أسمع حيدر طماطة يقول مثل بيدق شطرنج:

– أنا في عمّان منذ سبعة أعوام، المهم كيف أحوالك انت وما هي أخبار نوفل ورياح؟ كيف تمر الأيام بكم؟ أما زلت تكتب الشعر الذي لا ينشره أحد؟ خل تزوّج رباح الأرعن؟ وماذا يفعل صاحبنا نوفل مع حزب البعث

العربي؟ هل ما يزال يصدق أن حزبه هو الذي يحكم العراق؟ وكيف هي الحروب التي لا تنتهي أبداً؟.

هو يعرف من أكون وأنا أعتصم في صندوق عملاق أفترض أشيائي ومعلوماتي مثل طفل لا يعرف كيف سيكبر، قلت له بشيء من البرود:

- لم أعد أرى رباح، إنه مشغول في شيء لا أعرفه، أما نوفق فقد أخذوه إلى التدريب في جيش جديد داخل الجيش وأصبحنا على طرفي جسر مقطوع.

قال حيدر طماطة وهو يضحك:

- هل ما زلتم تتخيّلون حرباً وتذهبون إلى الجبهة لرؤية العدو الجبان؟ يبدو أن (صاحبنا) سيدخل التاريخ من باب الشماعية!.

نظرت إلى قميصه الممزق، إلى ابتسامته الخجولة، وأيقنتُ أن حيدر طماطة هذا لا يملك أي شيء غير طيبة قلبه، محض إمبراطور يمشي على بلاط من إفلاس وليس من حفاوة تحيط به سوى الجوع، كم تمنيت أن أعطيه شيئاً مما أملك، لكنه -كما رأيت - أكثر عفة من عذراء وأطول كبرياء من زرافة، أو هكذا ظننت، المهم ليس ثمة أسياد عليه، وما من أحد يخاف منه، إنه الحرية عندما تعوم في بحيرة من الدلال، يرقص حيث يشاء ويمضي إلى حيث يريد، سبعة أعوام أمضاها في عمّان؟ ترى ماذا كان يعمل وكيف تسمح السلطات هنا بالإقامة طوال تلك السنين؟ أسمعه يكرر:

- هل عثرت على مكان تسكن فيه؟ عندي لك بيت رخيص يأويك إذا نويت البقاء هنا في عمان.. لم تخبرني يا حمد عمّا إذا كنت ستبقى أم أنك في زيارة؟ ما رأيك أن تسكن معي؟.

أنا حقاً لا أعرف أيّ شيء عما سأفعله في عمّان وليس عندي من تجارب السفر إلا قراءة الروايات ورؤية أطلس الدنيا وخرائطها، أسئلة تتشابك في رأسي، أنسحب منها إلى مستنقع أخاف منه، صوب بركان لا أدري متى سينفجر بين ضلوعي، ترى هل جئتُ حتى أبقى في عمّان أم سأمضي إلي بلد آخر نحو البحر وخلف المحيط، أم أنني عائد إلى الجداريات والتماثيل والحروب ومن ثم إلى وصايا حاكمنا التي تقول إحداها بإلحاح وعناد وبلا خجل:

- احذر من نفسك قبل عدوّك. وانتبه إلى صديقك قبل خصمك.

تلك الوصية التي سرقها روحاً ومعنى من الأيام علي يوم قال: ربي نجني من أصدقائي، أما أعدائي فأنا كفيل بهم.

أيّ حاكم كذاب فظ، أي شغف للشهرة والمجدرماه إلى طريق الوصايا والمواعظ التي لا يفهم هو نفسه جوهر معناها؟ محض جنوح أن يبقى في ذاكرة الناس هو الذي لا يرقى إلى ذكاء (بعير) في الصحراء، نهيق، وخداع، ودسائس، رجل معّلب داخل مرض استعراضي، كانت أكبر أمنياته أن يكون نائب ضابط مهذبا، لكن اعوجاج الزمن أعطاه رتبة (عقرب) ثم رتبة (فيل) حتى يقتحم أبواب الجمعة وشبابيك الخميس

ويحرق السبت والثلاثاء والاثنين، ثم يلتف مثل دب أحمق ليبطش بالأربعاء وعطلة المسيح، صارت السكاكين سلاحه والمسالخ بعض بيوته، وما عاد من شعاع في بغداد غير سواد الكوارث والنكبات وأبواب المعتقلات.

انتبهت إلى حيدر طماطة، ما يزال يسأل عن أشياء لا أسمعها، قلت له (شكراً.. سنلتقي ثانية، وأفكر فيما تقول).. ثم مضيت إلى داخل المدينة أفتش عن نفسي، رأيت الشوارع تحكي أياماً هادئة دون مخبرين يتسللون في الخفايا والفروع والزوايا بحثاً عما ستفعله بعد قليل، رأيت السماء تبكي من فرط السعادة، والدنيا تمشي على رنة خلخال لا يسمعه أحد سواي، ربما كانت تمشي على رنين بكائي بعد أن عجزتُ عن العثور على حمد الصالح، هذا المهاجر الذي يجلس في جسيدي ويضحك من عتبي وربما يسأل من أجل أية قضية أحارب في غربتي؟!.

على رفوف ذاكرتي أتسلى بالرعب الذي عشته ثمة بين الفوضة وانقلاب النوايا، مسحوق في عزلة لا حدود لظلمتها، رقاع زحذية أنا، لكن على جانب من اللياقة وأناقة المظهر، إسكافي حانق أمشي في أرجاء مملكة لم أكن بين زهورها غير أخرق يفكر في صليب نظيف يموت عليه، أجلس على كنبة حجرية في الساحة الهاشمية أسأل نفسي عمّا فعلته بنفسي؟ أخاصم قلبي: لماذا يا قلبي المرهف الغبي؟ وأنسف هذا القرين الذي يغازلني ويقول سراً: أنت من جاء بنفسك نحو الغربة

وما من أحد أرغمك على هذا العصيان، انظر إلى الساعة العالية واحترس من عقارب الوقت، ماذا تراني سأفعل في (الريفيرا) دون أنيس ولا صديق؟.

الفصل الثالث

ماكياج المذبحة

لا أعرف السبب الذي يرغمني على انتزاع نفسي من فكرة الأمان الذي رحلت إليه، أشعر أنني في (قبو) مزروع بالمسامير، سوف غضب تجرجرني إلى مزاج ميكانيكي ما من إثر فيه لرائحة القرنفل والجوري والنعناع، أرى أعضائي في مشرحة سوداء وعظامي بارزة من هجوم الصرير حولي، أنا في جولة عند مجرى الريف أشم هواء بغداد وأسعى إلى هطول المطر الساحر، همزة وصل لا تفسير لها بين حنيني وإصراري على النجاة (منهم)..

شاغر جسدي من أوردتي ودمي، ولا أرعوي أبداً مما تركت خلفي من باطل وجرائم، من عسس وخفراء وجندرمة وعناصر قتل وخشونات، حتى عشية قراري بالهروب نحو الذري دون عائق يمنعني، ودون نبرة رعب أسمعها كل مساء على شاشة التليفزيون وعلى صفحات الجرائد الرسمية العفنة، ماذا دهاني إذن؟ أذبل وأنا في أحسن حالات التوهج والعافية، أكاد أموت غماً وأنا في عزّ رجولتي، مشطور إلى نصفين مع أنني ما زلت أمشي برأس مرفوع، ضامر لحم يدي، أنانيٌ عقلي، مبكر على الحنين اشتياقي، أنا لستُ من دعاة القتل حتى أقتل، بشرط أن أرى من يقتل بالنيابة عني، تلك هي القناة التي حفرتها بظنوني، وسوف أرفض

استغلال طيبتي وسذاجتي كيما يرغمونني على قتل أعدائي – أنا لا أعداء لي غير أولئك الذين أرغمونا على حرب مستأجرة لا ناقة لنا فيها ولا جمل – أرفض الجداريات داكنة اللون التي تحكي مجد رجل لا مجد له، أريد جداريات شعبي الذي يذبل ويجوع ويبكي ويموت كل يوم، بلد على امتداد طوله وحسراته وشوارعه مزحوم بملامح عزّام جبارة، وما من أثر أو تمثال أو إشارة إلى أجدادنا العظام من ساسة أو شعراء أومفكرين، وحتى إذا عثرت على واحد منهم، فهو مهمل بين كومة من الوساخات وبراميل الزبالة، وما من حارس يردّ عنه كيد الصغار العابثين، أو يمنع فضلات الكلاب من التراكم حول رجليه اللتين تشوهتا من البرد والإهمال وطول الصبر:

– هش ش ش، ما هذا الكلام الأحمق الذي تنطق به الآن، وما الفرق بين كلام الجرائد والتلفزيون وكلامك أنت؟.

أخافني الحنين إلى سلمى، أظنني كنت أحبها أكثر مما فعلت سلمى مع حبّي، صراع وخيبات وليس من درع أحمي به نفسي من ذاك الحب الجارف، أرى قوس قزح يأمرني بالرجوع صوب أزقتي وشوارع ذاكرتي، نسيم يأتير برائحة الباقلاء مع البيض المفحوح على قطع الرغيف اليابس المعتّق من زمر الخير، أهرامات من رسائل الحب أتذكرها كما لو أنني كتبتها الآن، ماذا تراني سأفعل مع الوقت الذي لا نديم فيه وما من كرنفال أحتفي به مع سلمى؟ عندي من الوقت ما يكفي برسم

ضفاف دجلة حتى أشتاق إليها، ما من سلوى في هذه الغربة غير الطمأنينة والهدوء الذي يلبسني ليل نهار، أتذكر سلمى في كل شبر أمضي إليه، ذيل الحصان الذي يمشي خلف رأسها، أوراق الكلينكس التي لا تفارق أصابعها، هياجها الجميل وإفراطها بالتعاويذ، قاموس الجيب الذي تستعين به على حلّ المغزى والصواب والخطأ، تلك النشوة التي تشبه أمواج بحر صاخب، امرأة على شكل قطة تموء بالحب ثم تضحك من شدة الحب الذي يلبسه كلانا مثل عمامة!.

دخلت مقهى السنترال بعد أن سمعتُ بها، سلالم تنتهي إلى بار نصف مهجور على يساره الباب الذي يسحبك عنوة إلى داخل المقهى مع صوت تسمعه في كل مرة (حبايبنا) يكررها الجدعان أحمد ورضا وهما يضحكان من الدنيا التي جعلت أسياد الناس عبيدها، قيل إن الشعراء وقراء الطالع والصعاليك الأمراء وبقايا سلالة (المتنبي) و(عمرو ابن كلثوم) يجتمعون بين جدرانها كل مساء، أصابني الذهول فعلاً وأنا أرى خيرة أولادنا يلعبون الدومينو، لا شكوى إلا من تلال المذابح التي ما زالت تكبر هناك بين النخيل الذي وأدوة، ومن جبال الرعب التي خلفتها الحروب على مقبرة من أرض البصرة جنوباً وداخل شعاب مدينة (الثورة) في بغداد شرقاً، حيث المطاردات من بيت لبيت بحثاً عن جندي هارب أو رجل يشتم أولاد العوجة، أبكي ذاك الفردس الملوّث بالريبة والسيوف والخوخ الفاسد، ما من قيثارة تعزف، وإذا عزفت فما من شيء غير البلاوي والمكائد والحسرات، حطّت الشيخوخة حتى على ابن

العشرين وهو يمضي إلى الحرب دون ذنب سوى أنه من الفقراء، وإذا ما انتهت الحرب يصنعون له حرباً أخرى لئلا يعود إلى بيته ويفكر فيما وصلت إليه الأمور، ينبغي المكوث تحت السياط والبنادق والرصاص وغبار المعارك، ذلك أن (الحرب للشرفاء) كما يقول السيد الرئيس ومن لا يحارب لا شرف له، مع أنه هو نفسه أول من هرب من الخدمة العسكرية وأول من اختفى مرعوباً بين بيوت الفقراء، حين تساقطت قنابل الحلفاء فوق بغداد، وراح يصرخ في ذاك الحجر المظلم "يا محلى النصر بعون الله"، وقد أصابته الحمى من شدة الخوف والهلع.

غربة داخل البيت الذي هو بيتك أنت، رهينة ستبقى تحت سقف الطراطير والزعاطيط وأولاد البغاة، وليس من نافذة نحو الله غير رائحة الصبر وطعم (العنبر) الذي باعوه إلى سوانا ولم نعد نتمتع بمذاقه إلا في أعياد عزام جبارة حفظه الله ورعاه وبارك في ولادته واصطفاه.

جاءني النادل المصري في السنترال، وقال بلهجة أحبها:

- تشرب حاجة يا كابتن ؟ عندنا كولا وشاي ويانسون وقرفة وحليب.

فقلت بسرعة وبلهجته التي حوّطني بها:

- عاوز شاي لو سمحت.

قال بإغواء مضحك:

- أنا اسمي رضا.. محسوبك رضا يا فندم.

كانت فيروز تغني على شاشة التلفزيون "سنرجع يوماً.. "فطاردني نصيبي من الحنين ثانية وأنا أقول مثل ممثل ساذج:

– عاشت الأسامي يا رضا..

وبعد ابتسامة خرجت من زنزانة الروح سمعته يقول:

– حضرتك عراقي؟ أديب؟ أصل الناس اللي هنا شعراء ومطربون وفيهم الرياضي والمهندس والطبيب و(الهربان).. أنا أعرفهم كلهم إذا حبيت تسأل عن أيّ واحد فيهم.

بلا ديكور أو رموش أو رتوش هي "السنترال" ودون سقف أوحائط مزحوم بالنجوم كما في بقية البارات والمقاهي، لم تكن غير مقهي فقير، حشود من البشر تأتي وتذهب، زعيم مطرود أو سفير مغلوب على أمره، شاعر مختل في عقله شبع ضرباً في دهاليز بغداد، كاتب قصة لم يعد يكتبها بعد أن قصّوا جناحية وكفّ عن الطيران، مهندس معماري هدموا بيته بعد أن شيدّ أحلى قصور عزاّم جبارة، لاعب كرة قدم مشهور أخفق في تسجيل هدف في مرمى إيران فما عاد إلى الوطن خوفاً من ابن الرئيس الذي يسجن الناس على هواه، ويقلع الأمان من النفوس إذا ما جاءت المباراة على غير هواه، صلاة على الموائد لم أرها من قبل، صلاة بلا وضوء، هسيس غريب عجيب بين خمسة شبان ومعركة دون أصابع مكسورة أو جروح، خشخشة أوراق اللعب وصراخ مكتوم، اهتياج أو دخان وضحك خفيف ينمو لحظة بعد لحظة، خسارة وخيبات ونفخ

وعتاب وأراجيل تنفث الجمرات غرباً وشرقاً، ضجة محسوبة بحساب، ممنوع الغناء وشرب الكحول، مسموح لك أي شيء حتى شتم الحكومة، لكن بصوت لا يخدش الحياء، شيء يشبه اللعنة هي السنترال، ناعسة في الصباح، وموكب جنائزي عند المساء، لا جناح لها، برغم أنها تطير على زفاف الضجيج الذي يحوم حولها من الشارع الذي يلتصق بها، رأيت فيها وزيراً هارباً من شرور الحاكم، وربما جاءها الجاحظ والفرزدق وجرير ذات سهو في الزمن المعتّق، ذلك أن السنترال مضيق بين الحيرة والانتظار، ممنوع فيها أن تكون الأمنيات أكبر مما يجب، ممنوع فيها أن تقول بأن هذا ممنوع، ويراها البعض –كما تهيأ لي – عنواناً هامشياً لملف الأخطاء الجديد بعد البربرية التي عشناها والتي لم يعد من أحد داخل أسوارنا هناك إلا معلولاً بالسرطان أو عقيماً من الفرح، أو محض رجل باع نفسه – عن طريق اللواط – من أجل كسرة خبرز مغمّسة بالكفر والغضب (وماذا سنبيع أيضاً)؟!.

هكذا صارت البلاد يوم أصبحت من نصيب الحاكم عزآم جبارة، خاوية من النقاء والفقهاء، غابة غنائم، عصعوص مكسور مغلّف بخميرة الشفقة، ولم يعد من شيء على شاطئ النهر غير العساكر وسوى معسكرات البغال، أشمّ رائحة طيبة تشبه المسك ممزوجة بطعم القهوة والنعناع، إذا بي ثانية مع رضا وقد جاءني بالشاي وهو يبتسم:

– أحسن شاي الناس الحلوين.

قلت له (شكراً، الله يخليك يا رضا) ثم مضى على سيقان لا تتعب أبداً، ولا أدري لماذا شعرت في تلك الساعة أن وراء (رضا) حكاية من نوع ما!.

مرت أيام وأنا لا أعرف حقيقة نفسي، ماذا تراني سأفعل في عمّان؟ أخبروني أن إقامتي فيها لن تزيد على ستة أشهر، بقائم محكوم بنصف عام فقط، بعدها ينبغي دفع دينار ونصف عن كل يوم أقطعه في شوارعها وبين حارتها، وإذا ما فات شهر أو شهران بعد السماح القانوني ستأخذ البلوى شكلاً مخيفاً لن يحتمله عاطل عن العمل، رأيت على بعد مترين مني شيخاً محترماً أقرب ما يكون شبهاً بشجرة كمثرى، لا أدري كيف تجرأت وجئت إليه، أنا الصقر البدائي الذي يخاف حتى من مخالبه، وعندما أحس باقترابي قال فوراً: أهلاً وسهلاً، تفضّل.

أشمّ من مساماته رائحة بطيخة طيبة المذاق، كم كنت أحب البطيخ في طفولتي وصباي، أجلس مع نوفل على سفح تحت الجسر الحديدي، نشطر البطيخة إلى نصفين، كنا نغنّي ونأكل مثل روبوت معطوب، نكرر الذهاب إلى ذاك السفح الساكن على جبين مراهقتنا، ونحكي عن اصطيادنا بنات في غاية الحسن والجمال ولم نكن قد رأينا أي واحدة منهن، ثم نحسد بعضنا عمن حصل على أجملهن!.

اسمه يكرر وهو ينفث رائحة البطيخ:

- تفضل يا بني، اجلس، هل أنت بحاجة إلى شيء؟

كنت بحاجة إلى معلومات لا أعرف أين الطريق إليها، لكن الشيخ الكمثري أعطاني كل ما سينفعني في عمان، لعل أول حرب باردة انتصرت فيها هي لحظة أن قال لي:

– عليك أن تذهب حالاً وتحصل على لجوء في أية أرض من بلاد الله الشاسعة البعيدة، يمكنك الرحيل إلى أمريكا مثلاً أو أستراليا أو السويد، أنت وما يأتي به (الجانص).

قلت لرائحة البطيخ:

وهل ذهب أمثالي إلى هناك؟

قال بشيء من الولع كأنه يجلس قرب نهر من العسل:

– المئات هناك يسرحون ويمرحون في شوارع تورينو وسيدني ولاس فيجاس وماليمو ولندن.

كنت أسمع الناي العراقي يئن وينوح وبين ضلوعي، أية نجوى هطلت وحطّت على كبدي وأيّ هلال رأيت؟ هل أتمكن حقاً من العيش في (فخ) آخر غير بغداد؟ ماذا عن (دشداشة) إحزاني ودموعي إذا ما أصابني الحنين على غفلة من شجاعتي؟ ماذا عن نوم القيلولة في ظهيرة الصيف؟ هل يحق لي نزع بنطلوني الجنز إذا ما رغبت بذلك؟ هل تراني سأعتاد القهوة والنبيذ بدلاً عن الشاء والعرق المسيح؟ أنظر إلى نفسي عن طريق كاميرا تشعّ من داخل إحساسي، وأرى الروح في حالة طوارئ وأنا أشهق في ضريح مكسو بالمرمر والزعتر ثم يأتي من يرمي علينا الفضلات والرعب.

أظنني خسرتُ لعبتي مع أشيائي التي أحبها، شيء غامض يسري في ممرات دمي يقول نعم، وألف رصاصة سمعتها في الحروب المصنوعة تقول كلا، وأنا بين ضحك وبكاء، بين الغربة والحنين، أقف مكتوف اليدين، أعجز عن أية خطوة باتجاه الصواب، ترى من يفهم حقوق هذا الراعي الذي هربت منه الخرفان؟ أية مركبة تشيع جثماني يوم أموت في بلاد الثلج التي أخافها فعلاً؟ الحياة كما أراها هناك، محض يانصيب، قد يخطئ مرة أو يصيب، وأنا لا أحب هذا النوع من المقامرة، قد أحيا مع الشقراوات الحلوات حيناً من الدهر، وتسحبني البهجة إلى فراشة، ولكن ماذا بعد اللذة؟ ماذا عن نواح الناي وتأوهاته؟ ماذا سأعمل تحت ثلوج المنافي؟ خبازاً أم شرطي مرور أم بائع حلوى وزبادي أم حارساً في شموع وصيام وذكرى، تكفيني شرارى اعتراض ومخاض واغتراب واحد، يكفي ما أشعر به من دخان وسخام وإنفاق وتعاريج ومنحنيات وثقوب، لا أريد هيمنة المنفى ولا شراسة الغربة في أرض لا تنطق العربية، أنا أعرف نفسي، إذ لا ولية على دمي غير دمي، وما من شيء مبارك في عظامي غير صبري، ولا طاقة لي على ذبح وريدي ما دمت أملك تذكرة الرجوع إلى بغداد، إلى الناي الذي يقول اسم سلمى كما سقوط الندى في شتاء موحش حزين.

أراها كل ليلة في فستان زفافها، نمضي معاً إلى أربيل، نرقص في أعياد (نوروز) حتى فجر الجمعة الذي سنغفو على رحيقه إلى المساء، تلبس ثيابها المزركشة وتخطو قبالة رغباتي مثل مانيكان تعرض أزياء

الغوى والإغراء، ثم يمتد حلمي، فأراها مخطوفة مع حفنة من اللصوص تصرخ بي (انقذني يا حبيبي) فأمضي كما الفرسان على حسان أبيض هائج، أنزعها كما الخاتم بين عشرات الرجال الملغومين بالسلاح، وأمضي بها إلى شلالات (بيخال) نرقص ونشرب البرتقال والمارجوانا، نسكر حتى يجيء الحلم الثاني، فأعود مرعوباً دون حصان أبيض جامح ودون سلمى.. ينفرط الحلم كما حبات الرمان إلى أجزاء وشظايا، ثم تجمعه أوهامي ثانية فأراه ليلة بعد ليلة، حتى صرت أكره نفسي التي تحيا في حلم ما عدت أحتمل تكراره دون أن يتحقق.

سلطنة الكوابيس تحث على فقرات أيامي، فهل تأتيني بسلمى كل ليل، ألهو معها على هواي وأحارب اللصوص على هواي، أنزعها من مخالبهم وقت أشاء.

وأقول يا لقلبي من مشاكس ماجن، مرسوم على لوحة من خشب الصندل، وسلمى تهبط فوق سريري في فندق (الريفيرا) مثل نسر قاتل، بينما تذهب مخيلتي في جولة مضحكة أتطوع فيها بتأسيس قلعة يحرسها مئات الجنود، لئلا يصل الموت إلى حبيبتي مع إذاعة مرئية تبث أخبارها لي وحدي حتى أعرف ما جرى في غيابي.. هل ثمة من تهمة على حماقاتي أكبر من برنامج أحلامي ونثارات خيالاتي وتشعبات غيرتي على سلمى التي تركتها دون أن أخبرها برحيلي؟.

اشتغلت بائعاً للشاي، أحمل دورقاً فضياً يكسر الظهر أدور به عند المساء بعد الخامسة والنصف، يتكرر حمله مرتين أيام الجمعة والخميس، ثم تركت الشاي ورحت أبيع الفواكه في سوق الخضار الكبير، ثم عملت شيّالاً في المحطة، لم أستطع البقاء هناك بين المسافرين أكثر من أربعة أيام عدتُ بعدها أبيع الشاي في الساحة الهاشمية، لا أحد يعرفني وما من أحد يهمه أمري، وبرغم ما حصلت عليه من قروش تكفي طعامي ومأواي، إلا أنني لم أتمكن من أية مهنة رميتُ عليها نفسي، أتذكر أيام الحقوق ورغبتي في أن أكون قاضياً أحكم بين الناس بالقسطاس، ثم لهفة روحي في أن أكتب الشعر حتى تعشقني النساء كما هو حال كبار الشعراء الذين رأيتهم في بغداد والبصرة "ذات عام جاء نزار قباني مثل حلم لا تمسكه الأصابع، راح يحلّق بين المعجبات من الصبايا على قارب من ضفائرهن، ويوم قال شعراً عن بغداد رأيت الغزلان والفراشات تهفو إليه مثل عاصفة هوجاء "فهل صار حالي محض حمّال مهمل وبائع شاي يكسب عيشه من الشفقات ويمشي بين الرجال والنساء على استحياء وهو يرنو إلى شهادة الحقوق التي طارت من بين يديه وماتت هناك في الوطن الذي بات بلا أي حقوق، فأين منبع الصفاء بين عشائر القرود؟ ماذا حلّ بمالك الحزين وهو يبكي ثمالة الفرح التي غادرها منذ زمان بعيد؟ أين زرقة الصبا وأين أغصان الصبوات؟ ماذا جرى للطفولة التي ما عدنا نراها في صغارنا؟ أين الجان والمرجان؟ إلى أين ولت خضرة السعادة وماذا حلّ بجذوع

النخيل؟ يا لهول ما صرنا إليه منذ جاء هذا الحاكم الببغاء الذي يقول لنا ما يقال له أن ينطق به، صار الجشع هو قياس الرطوبة في أجساد البشر، وباتت الرهبة هي العقرب الوحيدة التي تستقبل صباحاتنا، صارت الحياة مجموعة سحالي وطناطل وأفاع وعداوات، ليس من رعد سوى وابل الرصاص الذي تسمعه في الحروب، وليس من برق غير خطف عرباتهم، وهي تدهس الناس في الشوارع والجسور والساحات ولا أحد يعترض، لا شيء لنا، وكل شيء لهم، نهبوا الأول والثاني، وما عاد من حلم إلا قطفوه من جماجمنا ثم حققوه لأنفسهم على غفلة منّا، أصبحنا غرباء في بيوتنا، صارت عائلة العوجة (وعشيرة المجيد) تحكم استقامة أيامنا ومعابد أمنياتنا بعد أن تسرّب المجد لنا، رمونا إلى دغل من الخلافات حتى نموت من الفتنة والنفاق ومن سباقنا الأبله الرهيب على لقمة العيش.. قلت لنفسي: لعنة الله على أجدادهم إن كان ثمة من يعرف (جداً) لهم.

ماذا عساني أفعل؟ لا بيت لي هنا، ولا أصدقاء ولا سلمى، وما من عمل يناسبني، حتى لجوئي مرفوض بعد أن قال المسؤول:

- هل يطاردك أحد؟ هل جئت هارباً؟ هل اعتقلوك؟ هل يمكنك الرجوع إلى هناك؟ هل اعتقلوا أو قتلوا أو طاردوا أي واحد من عائلتك؟ ماذا عن جواز سفرك، هل سرقته، وهل جئت عن طريق الشمال؟ لماذا تريد الفرار من الوطن؟ هل كتبت شيئاً ضدهم؟ ماذا على وجه الدقة سبب طلب اللجوء؟!.

يا لتلك المنحنيات الشائكة التي رسمها تحت أقدامي حتى أنزلق في واحدة منها، نظرت إليه فرأيته يحدق بي دون أن ترمش عيناه، قلت له وأنا أغرق في شبر من الماء:

- كلا، ليس من أحد يطاردني بهذا المعنى، ولم أهرب من أي واحد منهم، كما أنني لم أعرف السجون ولا المعتقلات، بل يمكنني كما أظن الرجوع إلى وطني في أية ساعة أشاء، كما أن عائلتي لم تمت تحت بنادقهم ولا بين سياطهم، وجواز سفري لم أسرقه طبعاً، ولم أهرب عن طريق كردستان، كما أنني لم أكتب أي شيء ضدهم، لكن الحياة يا سيدي ما عادت صحيحة في بلدي، كل شيء هناك صار أقسى من احتمالي، ولهذا أتيت إليكم حتى أنقذ نفسي من الهوان والرعب والتماثيل والوصايا والتليفزيون.

لكنه راح يكرر بهدوء كما لو أنه رأى المئات قبلي:

- هل يمكنك الرجوع إلى بغداد، أريد منك جواباً صادقاً مختصراً.

فقلت بعد أن سمح لي بتدخين سيجارة لم أكن بحاجة إليها:

- ما من شيء يمنعني من العودة إلى بلدي، لكنني أرى الوطن كله مكبّلاً بالقيود، الناس تموت بلا محاكمات، والجوع يفتك بالفقراء، وأرجوك أن تصدقني إذا قلت لك ان ابن الرئيس أحرق إحداهن في برميل من النفط!.

راح يقول وقد رفع سبابته أمامي:

- هناك الملايين يمكنهم قول كلامك هذا.

فقلت وقد أحزنني كلامه:

- أنا أقول الحقيقة وأعتقد أن العراقيين لهم الحق في حياة كريمة غير التي يعيشونها اليوم تحت مشانق عزام جبارة.

لم يحزن، ولم يضحك، لم يقل أي شيء، كان يصغي إلى ثرثرتي بوجه بارد لا أثر فيه لدمعة أو ابتسامة أو إشارة، وبعد أسبوعين أيقنتُ أن بوابة المنافي مغلقة أمام (حالم) جاء من وطن الذبح والمواربات، وبات محتوماً أن أفكر في حل آخر.. لم يبق على غرغرة الليل غير حركة طفيفة خفيفة وينتهي كل شيء!.

- هل يمكنك العودة، باختصار يا سيد حمد، نعم أو لا.

- نعم، أنا على آى حال نسيب العميد المعروف عزيز عارف الدوري، لكنني أخبرتك يا سيدي أن العراق كله مكبل بالسلاسل والتقارير والعساكر وليس من السهل احتمال ما يدور من فواجع ومآسٍ وآلام.. الإنسان صار صفراً على الشمال ولا أهمية له!.

أتخيل صلاتي في معبد تحت الأرض، أتفرغ لمناجاة السماء، لعلها تنقذني مما وصلت إليه، كيف تراني أرجع إلى تلك الجرائد والمجلات العفنة والجداريات التي تغزو الطرقات؟ هل يرضى هذا الشاهين ان ينقلب إلى قنفذ خائف حقير؟.

– المسألة وما فيها يا ولدي، هو أننا نساعد من يحتاج إلينا، أما أمثالك من الناقمين على النظام، فهي قضية لا يمكن البتُّ فيها أبداً، هل تريد منا نقل شعب بكامله إلى المنافي؟.

قلت لنفسي: هذا ما يفعله عزاّم جبارة، فقد نقل شعب العراق من الخير إلى الجوع، ورماه إلى الجهل بعد أن كان أول مناهل العلم والمعرفة، نقل اخوتنا الكرد من غابات كردستان وجبالها ورماهم في الصحراء، كما نقل آلاف العرب من شتى بقاع العراق وارغمهم على العيش في زهرير الشمال، فما الفرق بين هجرة وتهجير، وما الفرق بين منفى وراء البحار إذا كان الوطن قد صار هو المنفى ؟!.

خمسة شهور مرّت، مكتوب على الصفحة العاشرة من ورق الباسبورت الأخضر، أن حريتي وطمأنينتي ستنتهي بعد شهر واحد، ولابد من الرجوع من حيث أتيت، أو السفر إلى بلد آخر حتى أكرر الإقامة ثانية في عمان، وأنا لا أملك غير رهاني على الصبر، ويبدو أنني خسرت أغشابي واسترخائي وسيطرتي على غمغماتي ودماثة قلبي.

– عليك أن تفهم، معذرة، كيف أننا أنقذنا ما يقرب من مليون عائلة أصابها الرعب والجزع بعد حرب الخليج، لكن الحال الذي أنت عليه لا يرغمنا على زجّك بينهم، فأنت كما تقول: تستطيع العودة دون أن تموت هناك في سجونهم!.

دخلت مقهى السنترال ثانية بعد أن شبعتُ من الفلافل والخبر الأبيض ورميتُ أتربتي وهمومي قرب الرجل الكمثرى، قلت له فوراً (رفضوني) وأنا أتشح بقليل من الخجل، لكنه دون تهكم أخبرني:

- هذا طبيعي في أول مرة، ما دمت يا ولدي العزيز لا تملك أي دليل على ما يرغبون به، ليس من شيء تتباهى به أمامهم!!.

لم أفهم، قلت له وأنا أرى خيطاً رمادياً يحوم فوق رأسي:

- دليل على ماذا؟ أتباهى أمامهم بماذا؟ قالوا بوضوح: هل يمكنك الرجوع إلى بلادك دون أذى، وقلت لهم: ليس من شيء يمنعني أويخيفني إذا ما رجعت... كنت صادقاً معهم.

قال بخفة طائر مرصّع بريش يشبه الشفق:

- كان عليك أن تكذب، تحكي عن اعتقالك أو قتل أخ أو قريب إليك، أن تقول بأنك هارب من الجيش مثلاً أو مطلوب بقضية ما، هذه أشياء لابد منها في طلب العون والنجاة، الكذب في حالة كهذه حلال ولن يحاسبك الرب عليه، هناك من ينتظر دوره للسفر والهجرة منذ عام أو عامين، والرفض ليس نهائياً، فهي لعبة، واللعبة تحتاج إلى لاعب، كنت أظنك تعرف هذا.

صار الريش يشبه حراشف خنفساء، وعندما همّ بالذهاب رأيتُ هيكل جاموس يتأرجح قرب سلالم المقهى، ولم تعد رائحته تشبه البطيخ، أسمع جلبة في خطواته المرتبكة وهو يقول:

– الكذب حلال في طلب العون والنجاة، حلالٌ هو الكذب يا ولدي إذا جاء من أجل إنقاذ النفس.

صياح غراب يغزو شعابي، أمسك أصابعي بأصابعي، ليس من نضارة في بؤبؤ عيني، لكن صوته يطاردني في شتى بقاع دمي وهو يكرر ثانية:

– كنت أظنك تعرف هذا.

أتذكر مشط الشعر الذي يحمله بين طيّات سترته وهو يقصّ الحكاية بأسنان برونزية ويبتسم على سمنة لا أثر فيها لمعصم مكسور أوحلم مدفون، أتذكر الدهن الذي يلمع فوق خصلة من خصلات التصابي، وضحكته المائلة وهي تركض في المقهى مثل خيب الخيل، كان في أفضل صحة وهو يعلمني حكمته:

– تحكي لهم شيئاً عن اعتقال أو قتل أو هروب من الجيش، مثلاً!.

قلت لنفسي "آخ يا فطرتي، عفويتي تلبسني مثل طربوش وأنا أمشي بين الناس، ولا أرى غير أحزانهم الطرية وأوجاعهم التي تبكيني وترغمني على أن أحبهم وأمضي معهم صوب غد لا يشبه ما نحن فيه "كيف أصدق هذا الرجل الكمثرى الذي سيرحل إلى (كندا) بعد أيام، وقد طلب مني بوقاحة ودجل أن أحكي لهم عن أخ قتلوه وعن اعتقال لم أعشه، برغم كل ما أملك من حقد على أولاد (العوجة) وبرغم عظيم رغبتي في الخلاص منهم.

- كان عليك أن تكذب.

في لحظة من زمن أغبر، تعاون عقلي وقلبي على براءتي واقترتب مني غيرتي وذكرياتي في حملة شعواء على أعماق روحي، تسللت أمراض الدنيا كلها نحو جلدي وأرغمتني على فكرة واحدة كانت كما السيف الذي يفصل الرأس عن صاحبه، فجأة، مثل شيء مفروض على إرادتي جاءني من قوة خارج لحمي ودمي، قررتُ الرجوع إلى بغداد، جسد مسحور يتحرك صوب مشنقته، والجيد لم يكن إلا جسدي، والرأس فزع من أية ذاكرة عن أي شيء مضى، والرأس هو رأسي، لم يعد في خاطري غير الرجوع إلى عزام جبارة وتماثيله وجدارياته وكومة الوصايا التي يقذفها كما البراز على حياتنا ويرمينا بها في كل فرع من طرقاتنا، وعلى أرصفة الشوارع التي نقطعها كل يوم.

لا أفهم كيف جاء القرار، وأي هجوم مريب على أنفاسي، كما لو أن شخصاً في رأسي يكلمني عن الفردوس المفقود والجنة الموعودة (؟) كأنني لا أعرف أي شيء عن المذابح والمطاردات وتشويه السمعة وهدم البيوت على أصحابها، كأنني نسيت حرق إسراء في برميل النفط، وكذلك الحرب التي تصنعها بالمخيلة ونشارك فيها برغم أنوفنا، ماذا جرى؟ لست أدري، هكذا دون نذير وبلا حساب أخذتُ حقيبتي وجواز سفري وحفنة من الملاريا والخسائر والهموم وركبتُ أول باص إلتى وطني، لم أقل أي شيء وأنا في المحطة، كان العالم كله ساكناً وفي حالة انتظار حتى جاء الراكب الأخير، وتحرك الصدى يضرب رأسي: لماذا؟ لماذا؟

لماذا؟ نظرتُ إلى أصابعي، لم يزل خاتم أمي الذهبي في مكان هـ، لم يزل كل شيء على حاله كأنني أبداً لم أسافر، كأن اليوم هو نفسه اليوم الذي تحركتُ فيه من مجمع النكبات وصندوق الأخطاء إلى جبال عمان المزهوة بالشتاء والبرد والكنافة.

شاسع ومخيف هو الطريق إلى مسقط رأسي، صحراء جرّبتها وممرت بها عشرات المرات ما بين البصرة وبغداد وبالعكس، صحراء لا أمل فيها، مهملة لا أحد يعنيه أمرها، بينما يمضي الرئيس إلى دول بعيدة عنّا، يغزوها، حتى نسرق أراضيها لتضاف إلى شيء لا نحتاجه أبداً، لا أدري حقاً كيف جرى ما جرى، لكنني عند الحدود شعرتُ أن حمد محمود الصالح (لم يكن في تلك الساعة غير) طوبة يضربها إبليس ويمرح فيها أولاد إبليس وهم يضحكون مني، أرتفع مرة وأهبط مئات المرات، أسمع من يقول: أهلاً بك أيها المغفل الكبير، جئت بنفسك وما من أحد أرغمك.

كدتُ أعود إلى شوارع عمّان قبل أن يُختم جواز سفري، لكن السيف هبط، بينما إبليس وهو في غاية ما رأيت من أناقة وحلاوة ما يزال يصرخ على بعد أمتار مني (أهلاً بك أيها المغفل الكبير).. رأيتُ على مسافة رعب لا تزيد على عشرة أخطاء أول جدارية بين الحدود، الحاكم عزّام جبارة، يبتسم تماماً مثل إبليس وهو يكرر مثله: أهلاً بك يا حمد.. أهلاً بك يا ولدي المسكين.

نظرت إلى الوراء، نظرة حسرة لا أنساها مطلقاً، نظرة ارتباك، كدتُ أخطو نحو عمّان مرة أخرى قبل أن يُختم جواز سفري، لكن السيف هبط !.

الفصل الرابع

بغداد الفزع

دخلت إلى الحمى، انتهى الشتاء على حين غفلة، لا برد ولا كنافة ولا أمان، نار أحسها تسبقني وتحرقني، تنزع عني ثيابي وجلدي، مع أنني ما فعلت أي شيء حتى أخاف من حكومتي، إشارة في الطريق الصحراوي تقول (بغداد) مع سهم بشير إلى مفازة تتسع وتتسع مثل بحر لا نهاية له، صراع مع نفسي، أي غبي (أنا) حتى أرجع صوب المحرقة؟ سمعت أن عزّام جبارة أوعز إلى الصحف والمجلات وفروع الحزب في كل مكان من دوولته المشتراة، استخدم تعبير "عزام جبارة خيار المستقبل"، وهو نفسه الشعار الذي رفعه الرئيس التونسي زين العابدين بن علي، ولما كانت كلمة (خيار) لا تناسب طاغية بغداد.

فقد كتب أهل مدينة جميلة والثورة والشعلة على جدران البيوت وفي كل شبر قريب من فروع حزبهم العربي الاشتراكي وبالخط العريض "عزام جبارة طماطة المستقبل" أو ثوم المستقبل، مستثمرين المفردة على أنها خيار الزلاطة، حتى أن أحدهم كتب غير ذلك بشكل يتجاوز الشتيمة والقذف، فما كان من ابن عزّام وهو المسؤول عن حماية العائلة غير أن

يحذف ذلك الشعار، ولم يعد عزّام وهو المسؤول عن حماية العائلة غير أن يحذف ذلك الشعار، ولم يعد عزام جبارة لا خيار المستقبل ولا باذنجانه ولا أي شيء!.

أرى علامة ثانية على درب الخوف تحكي عما بقى من مسافة إلى مصيري (بغداد ٤٥٠ كيلومترا)، وأنا أضحك استخفافاً وضجراً من (حمد محمود الصالح) الذي أحمل اسمه وحماقاته وجواز سفره والذى عاد إلى شريط المحنة دون أن يرغمه أحد عليها، ماذا تراني سأقول بعد ستة شهور أمضيتها في عمان؟ لم أكتب لعائلتي ولا كلمة، ولم أرفع التلفون حتى أقول (كيف الحال) فماذا سيقال عن هذا الحمار الذي تخبط في أيامه وصار يلعب على هواه دون أن يتذكر أمه أو أخته أو يفطن إلى حالهم ويسأل عما جرى لهم في غيابه؟ ليس من بوصلة ترشدني نحو الصواب، كل ما أفعله خطأ يتجسد في خطأ أكبر منه.. أتحدى نفسي أن يكون ثمة من يعرف غباواته ولا مبالاته مثلي، متاهة في أوردتي لا أعرف المرور منها إلى الطمأنينة والراحة، الباص الكبير يعبر الصحراء مع أغنية تقول "يا هلا بجيتك يا حبيبي ومرحباً"، ثم نشرة أخبار ليس فيها غير تحركات الحاكم الذي يخطط شكل حياتنا كما يشاء ويذبح الماعز والدجاج والقوانيين والبشر كيفها يريد، لابد من مطر كاسح بعد هذه الرمضاء التي صبرنا عليها والتي دامت أكثر من الصبر نفسه، لابد من مطر، لابد من حب عارم عاصف عظيم حتى نتحرر جميعنا من

زمن الحقد، ليس من نسمة طيبة طوال استيائي، وما من أحد يبتسم داخل هذا الهيكل المبطّن بالشكوى والصمت والخريف!.

كاد الباص أن يرتطم بذئب أو تنين، لا أحد يدري ماذا خطف على الشارع في أول المساء، لكن السائق راح يكرر: الحمد لله رب العالمين، أوشكنا أن تموت لولا رحمة الباري، الحمد لله.

أحدنا قال (إنها بقرة) والعجوز التي تشاركني مكاني قالت (إنه حمار شارد)، بينما قالت إحداهن (كلا، إنها معزة بيضاء)، وحينما سألوني عما رأيت قلت لهم:

– رأيت ما يشبه الحصان، لكن لونه يشبه البرتقالة.

أدري أن السائق غالبه النعاس وراح يبرر حرجه بكلام ينقذنا من الفزع، موحش هو المكان الذي يوجد فيه سوى الفراغ، فما كان مني غير الجلوس إلى جانبه لئلا يغفو ثانية ونمضي جميعنا إلى موت رخيص، قال وهو يداري بعض ارتباكه:

– هل يوجد حصان بهذا اللون؟

كل شيء ممكن في زمن عزام جبارة، إذا أراد حصاناً برتقالياً سيأتونه بحصان برتقالي، وإذا أراد فأرا لرئاسة الوزارة سنرى فأراً يرأسهما فوراً، وإذا قال إن دجلة قد جف من الماء ثمة ألف حمار من بيادقة سيمضي إلى نهر دجلة ويعمل على تجفيفه بأي شكل، نحن في زمن

العجائب العزامية التي جعلت من سوق حمادة مكاناً يمسى عزامية الكرخ، صار التاريخ مطية يركبها القائد (المظفّر)!! وقتما يشاء.

قلت له وأنا أبتسم:

- الطريق الصحراوي مخيف، ساعدك الله يا رجل، كم سنة وأنت تعمل على هذا الخط الصعب؟.

أعطاني سيجارة لم أرفضها، رحت أدخن وأسمع كلامه الذي فوجئت به وأنا أتململ في مكاني:

- قدرنا غريزة لا مفر منها، والموت قد يأتي في أية لحظة، أنا لا أخاف على نفسي، أي والله لكن الركاب أمانة في عنقي، فمنذ أن حاربتنا أمريكا وأنا أشتغل على هذ الخط المزعج المخيف.

- كلامك عسل، الموت صار بالنسبة للعراقيين زلاطة بعد الذي رأيناه من فواجع ومصائب.

سمعته يهمس وهو يلتفق إلى الوراء بسرعة:

- أرجوك، لا تتكلم بالسياسة، وعليك أن تعرف أن جميع من يعمل على خط عمان بغداد مطلوب منه كتابة تقرير عما يحدث وما يقال طوال الرحلة، هذه نصيحة أخ لأخيه.

ازداد إعجاباً به وأنا أقول:

- أنت شخصية تستحق الاحترام فعلاً.

أطربه كلامي كما يبدو عليه، إذا به يسأل:

– هل تحب أن تسمع شيئاً؟ أم كلثوم، عبد الوهاب، أسمهان، عندي لكل ذوق وما يشتهى، داخل حسن، زهور حسين، زكية جورج، أنت تؤمر.

قلت وقد تذكّرت سلمى:

– يعجبني سعدون جابر، أريد غناءً عراقياً إذا سمحت.

راح يفتش عن شريط ضائع بين كومة من الخردوات، بعد دقيقة واخدة رأيته يرفع الشريط السابق ويمضي بنا إلى أغنية موجعة تحكي عن "عشرين عاما انكضت وأنت اللي ناسينا".. يا لطعم السجائر وأنت مزحوم بالرعب، كم تمنيتُ أن أحتسي كأساً من البيرة أو النبيذ أو العرق أو أي شيء يخفف ارتباكي وحيرتي وقرع طبولي.

– ذكرتنا بالصغر وأيام منسية.

ثم نفثتُ آخر حزمة من الدخان وأنا أسمع السائق يغني معي:

– والگمر ملّ السهر ودّع شواطيّه.

ماذا بقى عندنا من متع وملذاتلم تجهض؟ إذا ما تذكرنا أيام (الصغر) والطفولة الحلوة الفقيرة الناعسة، سترى الخرتيت عزّام جبارة وهو يصحك منّا، من الحنين الذي بوشك أن يقتلنا ونحن نأسف على ماضينا وعلى القمر الذي قال وداعاً للشواطئ التي اعتقلوها كما البشر!.

مريبٌ ومشكوك فيه كل ما سيأتي من أيامي، موحش طريقي وأنا ألهث عن جزع وعن كومة أزمات أحسها تنتظرني، ترى ماذا سيقول عزيز عارف الدوري عني وأنا الذي أعطيته وعداً برجوعي بعد شهر واحد

أوأقل؟ أية محكمة لا دليل فيها عندي على براءة أفعالي؟ لم أعد غير قراقوز موشوم بالروعنة والبلاهي، بلياتشو منفوش بريش الطواويس والحماقات، كم أنا غاضب على نفسي و(زعلان) منها، وكان ينبغي البقاء في عمان مهما كانت المخاطر والكدمات، هي أرحم من عناق الأفاعي وأنت في جحورها، إنني أنزل عن صهوة الحصان الرابح محض خائف ذليل مقطوع عن فروسيته، لا سلطان لي على أي حشرة في الكون، لا أرى بعد هذا الباص الذي سأنزل منه في بغداد غير السخط والحناجر والوساخة التي تتركها جداريات القائد (المحنك).. أكره نفسي وأحبها في ذات الساعة التي أفكر فيها (عن أية قضية تراني أدخل أروقة القضاء حتى أدافع عنها)، وأنا بنفسي من يرى كل هذا الخراب في النفوس؟ هل ثمة من أحد يشبهني وأنا مقطوع ومفصول إلى جزئين: أحمق وذكي، خائف وشجاع، ذليل ومقتحم في الوقت نفسه؟ من أكون وسط هذا الخراب الذي حل في عروقي وشلّني ودنس أعضائي؟.

إشارة أخرى مكتوب عليها (بغداد ١٣٠ كيلومترا) يا للرعب، إننا نصل بسرعة، لا غناء في الباص، ثم الخوف وانتشر بين الركاب دونما سبب، حتى سائقنا غلفه الصمت وهو يئن وراء مقوده، مفتاح بيتي ليس معي، هل تراني سأفتح باب غرفتي وأنام على فراشي المهجور منذ شهور؟ حقيبة سفري لا شيء فيها غير قبعة ومظلة وشرشف مزركش بما يشبه السنابل اشتريته من (رأس العين) حتى أحمي به جسدي من البعوض والذكريات، في الحقيبة ثمة وصية مضحكة كتبتها ذات ليلة في

مطعم (أميغو) أقول فيها: "إذا متُ على حين غفلة، أرجو منكم حرق جثماني بين الباقلاء والجرجير، وإن أصبحت غنياً قبل رحيلي خذوني إلى مكة المكرمة خوفاً من الله الذي تركت صلاتي إليه، وإذا طال بكم الكرم وامتد حبل المحبة حوطوني بالخيزران واتركوني في بستان جميل، عساني أتحول بعد عشرة أعوام إلى كرمة عنب أو حمامة بيضاء أو نخلة سامقة أو نافورة ماء، أريد أن تكون حفلة موتي قرب البط أو على شاطئ الفرات أو عند الكعبة التي لم أرها أبداً، لكم اختيار نهايتي ومكانها كيفها تنشاؤون، بارك الله فيكم، بشرط أن أمضي محروقاً وما من أثر مني على هذه الأرض.. أرجوكم.

أعرف أنها وصية مضحكة لا معنى لها، منذ أربع سنوات وأنا أكتب أشياء تثير الضحك والسؤال، حالة من الطيش وربما حالة من الغرور أقنع بها نفسي (إنني مهم) في هذه الحياة التي نخسرها شيئاً بعد شيء، وفي كل مرة أكتب فيها وصيتي أفكر في العالم الذي أراه على شاشة التليفزيون: أمستردام، باريس، هوليوود، روما، هلسنكي، مدريد، وأقرر فوراً كم هي المسافة بين الموت في العراق والحياة هناك وراء البحار وخلف المحيطات، ثم لماذا أكتب في وصيتي وأنا لم أصل الثلاثين حتى؟!.

نقترب من وهج الشمس بعد رحلة دامت أكثر من عشرين ساعة بين أسئلة في نقاط التفتيش وأسئلة في الحدود، إنذارات، بصمات، فتح ملفات لا ندري عنها أي شيء، خضوع وارتياب، بوابة مفتوحة وأخرى

مغلقة، كل واحد منا صار مجرد (أبو بريص) متكوم على نفسه من الذل والخوف، شرطي هنا وعشرة هناك، خبرة في الكشف عن اللصوص ومهربي المخدرات، انتهاكات، ضجة بلا سبب، مباراة في إهانة الركاب، قنية عطر يكسرونها دون استفسار أو اعتذار من صاحبها، مطاردات في مترين من المكان، ضحك واستهانات، نسمع الكلمات ولا نفهم سبب النطق بها، حزيران، لماذا؟ لا ندري، نيسان نعم، وماذا بعد ؟ هذه الصورة لن أسمح لك بالمرور، مفهوم أبو كذيلة؟ ناس ما تستحي، عمره فوق الخمسين والصورة بالعشرين، خليك آخر واحد، والمصيبة اسمه شريف وأبوه أشرف، ما شاء الله، ضرب و إهانات، شرائع بلا شريعة (حضرتك رايح وين، باريس وروما؟ ما شاء الله، وراجع مفلس ولا بارة)؟ مظلوم والله يا سيدي، اخرس أبو طيز المالح، لعنة الله على من أعطاك جواز سفر، ناس بالضيم وناس بالنعيم، اقتراحات، أنا أقترح، آسف لم أكن أقصدك أنت، أين الصيدلية؟ هذا العجوز يوشك أن يموت... بسرعة، تعال أنت أيها الفارس الماهر خذ هذا الشيخ إلى الصيدلية، إنه بحاجة إلى علاج، وأنت، أعني أنت أيها الوسيم، تعال، من أنت ولماذا بقيت نصف سنة في عمّان؟ اسمك حمد لو صمد؟ قلت لهم وأنا أوشك أن أتبول في بنطلوني:

– أنا من أقرباء عزيز عارف الدوري، أنا خال زوجته.

ومثل مسحوق سحري سكت المكان والزمان معاً، جاءني واحد منهم وهو يوشك أن يبكي، يبدو أن الشكوك طاردتهم بشأني، أن أكون

مبعوثاً من العميد لمعرفة الحال في نقاط الحدود وقاعات الأسئلة والتفتيش، قال مثل شحاذ:

- أرجوك، نحن لم نفعل سوى الواجب، أنت لا تعرف أي شيء عن هؤلاء الكلاب، إنهم يتاجرون في كل شيء ولابد من كشف أفعالهم الدنيئة.. حتى ذاك العجوز، انظر إليه، هل تصدق بأنه يتاجر حتى بزوجته إن لم يجد ما يتاجر فيه؟ لقد مسكنا بين ثيابة خمسين حبة فياجرا يبيعها بأثمان غير معقولة.. ناس ما تستحي يا أستاذ.

لم أكن وقتها غير (ديك) منفوش، لم أتبول في بنطلوني، إنها مجرد مزحة ما جرى يا رجل ومن حق الشرطة أن تفعل ما تشاء.. المهم أن أصل البيت، ما شأني بحبوب الفياجرا، ما شأني بكم أصلاً، أنا لا شأن لي حتى بنفسي أيها الأوغاد، حماة حدود أنتم أم قطاع طرق؟ أدري أن البلد (خربانة) من أساسها لا يعني أي شيء أن يضاف إليها ما تفعلونه من خراب، أين الباخرة التي ستأخذني إلى فراشي؟ ترى هل انتهت حروب المخيلة وهل عاد الجنود المعبون إلى ديارهم؟ هل كف الرئيس عزام جبارة عن تلاوة الوصايا وصناعة التماثيل؟ عيب عليك يا رجل، كيف تسأل نفسك أسئلة طريفة كهذه؟ أية مزحة بشعة وسخيفة أن تنتهي المعارك (الحلوة) في بلد يحكمه قائدنا؟ وإذا ما انتهت الحرب ماذا سيفعل حتى يتسلى؟ وكيف تراك نسأل عما إذا كف رئيسنا عن كتابة الوصايا وإقامة النصب والجداريات التي يحبها الشعب ويجلس عند أعتابها؟ هذا يكفي.. البلد صارت متحفاً لهذا القبطان الذي ترك البلاد

في هياج الريح دون ماء ولا شراع ولا طعام؟ عافها في أجمل صورة للمدافن والنفايات والتلوث والجماجم والفوضى، مع السلامة، بارك الله فيك وليحفظ الله سيدنا العميد عزيز الدوري.

ضحية من سأكون، وأنا أدخل إلى محفظة السفالة التي رأيتُ بعض جيوبها وردهاتها عند الحدود؟ أشعر بالظمأ وأنا أشرب الماء بين لحظة وأخرى، صارت بغداد على مرمى حجر من أسناني، أخفي نفسي داخل (قبوط) سميك من أواهمي، لم أعد غير نعامة متعبة خرقاء، مغلّف ومسكون باختياراتي التي ما عدت أملكها، أي امتحان عسير رميت إليه نفسي؟ أية رحلة وأية حلبة وأية حلقة سأدور فيها حتى أرى طوق نجاتي بين يدي؟ إننا نمشي من حرب إلى حرب أكثر شراسة ومن جوع إلى جوع أكبر، وإذا ما نظرنا إلى نسبة الشحاذين سنرى كيف أنها وصلت رقماً فلكياً يثير الحزن والقلق، أما نسبة بيع الأجساد والمسمرة بالنساء فقد صارت أعلى من أية نسبة على مر العصور، وقد نشرت إحدى المجلات المصرية رسماً كاريكاتيرياً لطابور من النساء العراقيات يقفن ممزقات الثياب عند أبواب القصر الرئاسي يطالبن بالطعام والحليب لأطفالهن، لكن عزّام جبارة لا ينظر إلى الدموع التي تذرفها النسوة، بل يحدق إلى أجسادهن البضة التي تمزقت الثياب عنها، وجاء التعليق أسفل الصورة الكاريكاتيرية يقول "مصائب قوم عند قوم فوائد". إنها حفلة موت لا أفراح فيها ولا عشاء ولا حبيبات، حتى حواء الوحيدة التي أحببتها لم تعد تذكر اسمي، وربما تزوجت وأهملتني خلق سوق الوسائد

واللذة ومضت إلى رجل آخر لا يشبهني في عزف أوجاعي ولا يقترب مني في اشتباكات لحمي ودمي وأعصابي، سأغرق بعد قليل في علبة من البصل، لأ أشم فيها سوى رائحة البؤس والجيفة والخراب وبقايا التماثيل التي يفرزها الرئيس ليلاً على غفلة من الحرس الذين يقولمون بحمايتها، ذراع تمتد إلى خارج العلبة عساني أفتح الغطاء وأنقذ نفسي وأنفي وأووردتي، أنا في ورطة ألبس جلبابها مثل قنفذ مذعور لا أشواك تحمي جذعه من الرماة، ليس من خمرة يمكنها أن تسكرني وليس من أحد تهنيه فاتورة الحساب التي سأدفعها وحدي.. قال السائق:

– هذه أول مرة أشعر فيها بطول المسافة، يبدو أنني كبرتُ على مهنة النقل والمتاعب، عشر سنوات وأنا على هذه الطرق التي ترهق حتى الشيطان.

نظرت إليه بكثير من الشفقة:

– كنا نسافر بالطائرات قبل أن يحل علينا الدمار الذي ما بعده من دمار، الله يسامح من كان السبب وراء كل ذلك.

لكن السائق عاد يقول:

– دعنا نصل بيوتنا بسلام يا رجل، إنهم يطلبون منا كتابة كل شيء نراه ونسمعه، أنا خائف عليك من لسانك هذا.

تذكرتُ من قال: "لا عدو لي غير لساني"، وأيقنت أن السائق يعرف ما يقول، لكن طفلاً وقحاً داخل أسوار جلدي قفز من بين مساماتي راح يهمس:

– ومن أين يأتي السلام يا رجل إذا كنا نصنع الحروب بأنفسنا ثم ندخل فيها ونقاتل أشباحاً من صنع أيدينا وخيالاتنا؟!.

لماذا أفترض الحطام قبل البشائر؟ لماذا أقترح على نفسي الموت ولم أزل بعد حياً؟ أين هي الموانع التي ترفض اجتيازي لها؟ إنني أعتقل نفسي قبل إعلانهم اعتقالي، ولو كان الحال كما أرسمه مع نفسي لماذا تركوني أمضي نحو بغداد ولم يأخذني أحد إليها وأنا مكبل اليدين مثلاً؟.

أية حماقة أذرفها كما الدموع؟ إنني أذبح نفسي بيدي قبل أي قاتل سواي، مخبول يتبرع ويعود إلى العقل حتى يزداد عذاباً وإدماناً على الخمرة، ها أنا في بغداد بعد غياب دام مائة وثلاثة وثمانين يوماً، أدخل مزبلة الوصايا التي جاء بها الحاكم وأقرأ كيف أن "الطريق المجرب ليس هو الأفضل دائماً، والحكمة ليس في إهماله دائماً"، وأضحك بين الركاب دون وعي مني، أضحك على الطريق المجرب الذي مر فيه عزام جبارة، واكتشف أنه الأفضل بين بقية الدروب، أما الحكمة التي رآها القائد المفدي بالرووح والدم فهي ضرورة عدم إهمال ذاك الطريق (!) ثم ماذا يا عزام جبارة؟ لا شيء، فراغ في فراغ في فراغ، وأنا أضحك في فراغ آخر، أضحك بقوة، السيدة العجوز التي تشاركني المكان سألتني عما يضحكني، فقلت لها:
– عفواً، تذكرتُ شيئاً جرى في عمّان.
إذ بها تقول بكثير من البلاهة:

وماذا جرى لك في عمان؟

نظرت إليها من خصائص أصابعي ولم أقل أي شيء، لكنها عادت مرة ثانية تسأل عما جرى؟ فقلت لها ساخرا:

– ذهب صديق لي حتى يشتري حليب المراعي بعد أن أخبرته إعلانات التلفزيون أن هذا الحليب هو أفضل ما يمكن الحصول عليه، ولما رجع إلى البيت وجد الراعي ولم يجد الحليب.

لكنها سألتني للمرة الثالثة بإصرار لا يصدق:

كيف عثر صديقك على المراعي ولم يجد الحليب؟

لم أستطع الصبر على عجوز ملغومة بالثرثرة كهذه التي تسأل عن كل شيء، فما كان مني غير أن أقول:

– بصراحة، صديقي هذا لا يعرف الفرق بين الحليب والقهوة والسجائر وعندما اشترى حليب المراعي، كان يريد أن يأخذ السجائر، ذلك أن التدخين هو المهم وليس الحليب.

إذا بها ترجع للمرة الرابعة تسأل عن السجائر التي اشتراها صديقي وما شأنها بالحليب الذي لم يجده عند وصوله إلى البيت؟ ولما كنت في حالة يرثى لها من الضجر، رأيتني أقول وأنا أصرخ دون إرادتي:

– صديقي رجل مؤمن ويخاف الله، لكنه رأى المراعي الخضراء ولم يجد الحليب، فقال مع نفسه إنها مشيئة الله، وفي الزيارة التالية إلى السوبر ماركت أشترى الحليب وحده بعد أن ترك المراعي.. أهذا مفهوم؟.

قالت بهدوء قاتل، حتى أنها لم تتحرك أو تلتفت إلى مكاني:
وهل من رجل في الدنيا لا يؤمن بالله؟
قلت وأنا أوشك أن أختنق غضباً:

ماذا أفعل إذا كان صديقي رأى المراعي ولم يجد الحليب؟

لكنها لم تسكت، أسمعها تهمس بينها وبين عباءتها السوداء "حليب ومراعي وصديق مؤمن، ما من شيء على ارتباط بشيء، مجانين آخر زمن".. ولما كنتُ قد اقتربت من المجزرة ورأيتُ جداريات الحاكم، فقد رحت أهمس قرب الزجاج الذي تلتصق به العجوز:

- نسيت أن أخبرك بالأمير هرقل الجبار، أقوى رجل في العالم، كان خفيف الوزن قبل أن يشرب هذا النوع من الحليب، قطعان البقر ذهبت إلى بيته وأعطته كل ما عندها من حليب حتى يحميها من اللصوص والذبح.

في برهة مائلة على زمن العجائب رأيت السّيدة العجوز تبتسم وتوشك أن تصرخ:

- ما شاء الله، كان عليك أن تقول هذا السرّ الرباني حتى يعرف الناس معجزات الخالق.

لم أتمكن من إسكات رغبتي في خنق تلك العجوز، مع أنني تركتها ولم أعد إلى قراءة الوصايا لئلا أضحك ثانية على حماقات الرئيس!.

فيلقٌ من المشاة يتدرّب على الطريف، عرقٌ يتصبب على الطرقات، الحرب آتية لا ريب فيها، وينبغي الاستعداد للعدو في أى لحظة، عزام جبارة يراقب الجنود من جدارية عريضة وهو يضحك على الشباب الفقراء الذي يرمي بهم إلى المحرقة، اليوم كان الأربعاء، وأسمنت الشارع يحرق الهواء، ضجة البساطيل لا تشبه عزف البيانو، يبدو أن الحرب صارت مهنة هذه البلاد حتى في أيام السلم، ضابط مترهل يمشي أمام سرب الضحايا، هل تراه يملك خطة لهجوم جديد على ساحل الخليج؟.

قافلة من البغال والحمير نراها في الجانب الثاني، تمشي بهدء وهي تحمل صناديق الرصاص، لمن؟ من أجل ماذا؟ البغل صبور وعطوف على النقيض من الضابط الذي يأخذ قطعان البشر إلى مصير مظلم وحياة دون أية معنة.. محرقة تتناسل عن محرقة، وتموز لا يرحم، لغم على حافة الجحيم وما من أحد يسأل أو يردع أو يطلب العون والأمان لهؤلاء المساكين وهم في طريقهم إلى مسلخ الموت، الحياة بدون حرب ممنوعة بأمر الحاكم، منذ جاءنا وتسلط على رقابنا ونحن لا نرى غير الدم وهو ينزف على طول السنوات حتى أن الأرض – لا سيما في الجنوب – صارت ثمارها على هيئة البشر، لها غيون وأطراف وأنف وفم يقول: أما يكفي ما نحن فيه؟!

كل شيء جميل في حياتنا وفي بلادنا صار محض (ركوبة) لأولاد عزام جبارة، النهر والنساء والأمنيات، كل شيء لهم وحدهم، فالرياضة هم رجالاتها، المشلول المعتوه صاروا يطلقون عليه (رياضي القرن العشرين) والصحافة لا تكتب غير المديح والقصائد الرعناء، والثقافة هم أسيادها بحيث راح القائد يكتب الروايات كما يكرر الفستق واللوز، بلد خربانة من الرأس حتى القاع!.

عند أول منحنى في طريق الأوامر، سقط جندي صغير السن، نظرنا إليه من وراء الزجاج، انتظرنا أن ينهض، لكنه مات فوراً تحت شعلة الشمس التي لا شأن لها بأخطاء البشر، ترى ما هي أرباحنا من صناعة السيوف والقنابل والدبابات والخطابات؟ لماذا نتورط في إشعال الحرائف ونحن أضعف مخلوقات الكرة الأرضية؟ أي معول نحفر به البئر المحشوة بالعظام والدم ولماذا نمشي حفاة عراة على الشوك إذا كنا نملك الحذاء الذي ينقذنا من الجروح والملابس التي ترحمنا من الحروق؟ أتذكر الآن أبي، يوم أخبرني كيف أن العراق ليست بلد الكفر والنفاق كما يشاع عنها، بل جاءها أسافل الطغاة وأغبى الحكام حتى صار أسياد الناس فيها محض قطعان خراف، بسبب القتل والتعذيب الجماعي الذي يمضون إليه عن طريق الغزو والنهب وزرع الفروقات المذهبية، حتى يتمكن الحاكم من حفر جذوره في أساس البلاد، آلاف الجوعى لا يجدون قوت يومهم، بينما في قصور عزام جبارة تبذل المشروبات والفواكه ولحوم الغزلان حتى على الخدم والحشم والجواري،

إنهم في ملذاتهم يغرقون، والشعب يموت في الأزقة والشوارع من حرقة الجوع، يموت كمداً وحسرة ومرارة، وأولاد عزام مستمرون في المتعة ونهب البلاد، لا فروق بين الطغاة إلا بنسبة البلاهة والبطش والرغبة بامتصاص الدماء!.

ذلك هو أطلس الحقائق المفقود منذ مئات السنين، حاكم أصلع مشروخ الجبين، حاكم مختل وقح مبسوط اليدين، حاكم سرحان يستأذن العلماء قبل أي هجوم على العدو، حاكم عاهر يتصدى لزبائن الحانات وهو أكثرهم عشقاً للخمرة والنساء، حاكم ترك الحكم لزوجته وأعطى مؤخرته لمن يرغب فيه، حاكم أعوج يستبدل الحذاء بالمشورة ويأكل طعام اليتامى في موسم الحصاد، حاكم أعرج يكره أقرب الناس إليه إذا كان يمشي على قدمين، وحاكم لا يصدق أنه صار حاكماً، فصار عليه أن يبطش بالعباد ويكتب الفرمانات والوصايا حتى يوهم الناس بقوته وسيادته وحكمته، لكن ما صدقه أحد حتى ليلة الزحف إلى عرشه وخلع ضلوعه أمام عينيه.

أطلس الحقائق مفقود، وقوافل من الأخطاء والجرائم مرت على تراب العراق، دمار لا يشبه أي دمار في وادي النهرين، العصا صارت اسماً من أسماء الحاكم، إنه زبون وسمسار عزرائيل، النموذج المرغوب الذي يختارونه لجوالات الموت والقمع وهتك النفوس، هو المبدع الأول، والعلامة المجتهد، هو السياسي المحنك، وسليل الحسب

والنسب، المؤمن المجاهد، الرصين الصادق، هو الخارق المذهل المستنير، النابغة الجهبذ، عبقري زمانه، عزام جبارة يستولى على الصفات النبوية كلها والمزايا المقدسة جميعها، حتى صارت صفاته (الحسنى) تتجاوز الخالق العظيم، تساعده على ذلك الكلاب البوليسية والشعراء المسعورون الذين باعوا حتى شرف أمهاتهم من أجل حفنة من الدنانير لا يهم بعدها ماء الوجه الذي انسفح! هو نفسه الأفعى التي يقول عنها في وصاياه الذهبية المعلقة فوق الجدران والجرائد والجداريات "لا تستفز الأفعى قبل أن تبيت النية والقدرة على قطع رأسها، ولن يفيدك القول أنك لم تبتدئ إن هي فاجأتك بالهجوم عليك، وأعد لكل حال ما يستوجب وتوكل على الله"؟!.

أي بهلوان مرح مخاتل لعوب مستهتر ينزل عن سرج الحقائق هكذا؟ أي مهووس بالجلال والتاريخ هذا (العنطوز) الذي يتفاخر بما لا يملكه أبداً؟ حبال كثيرة للمشانق، رصاص كثيف لمن يفكر في زيارة الشهداء من (أهل البيت).. قدح من السم ينهمر في جوف من يقول (كلا) وكلاب نهاشة مدربة جاهزة لكل من يرفض إمارة هذا القراقوش الذهبي المغمس في الرفاه والمتعة والجاه، المشبوك مع المذابح والغدر والتفاهات، ماكينة قتل لا تكف عن العمل ليل نهار، صار الفزع هوية العراقي بعد أن مزقوا هويته ورموه إلى جُب الأمن والمخابرات، حيث لا أحد معه غير الجرذان والأمنيات! الحياة لا يمكنها أن تكون أسوأ مما

نحن فيه، بغداد الحلوة المظلومة بشلة من القصابين لا يمكنها أن تستمر هكذا، ولا بد من معجزة حتى ترجع الحلاوة إليها وينتهي الظلم عنا.

نزلت من الباص، أخذتُ حقيبتي ومشيتُ في (علاوي الحلة) بين باعة الكوارع والسجائر وجرائد اليوم، المزابل تشارك القطط في أخذ مساحتها من أرض العاصمة، نظرة خاطفة تكفي أن أعرف حال بغداد وما وصلت إليه من تشويه، بشرط أن أرى لعب الأطفال وما حلّ بها من ورم واختلاف وانحطاط.

ها هم الصغار يلعبون في الشوارع بثياب ممزقة، يتراشقون شيئاً يفترضونه (كرة) يتقاذفونها من هنا وهناك، لا أحد منهم يسأل عن أهله، وما من أحد يسأل عنهم، لقد ضاعت بغداد حين ضاع صغارها على الطرقات، ضاعت الحلوة (الحبابة) يوم ضاع أطفالها بين شعاب القهر والذل والجوع، ليس من أحد يسأل عنهم، ليس من منزل ولا حب ولا مدارس، مبكرة جاءت الكارثة على شهيق هؤلاء وهم ينتظرون حرب الحاكم التالية حتى يتخلص منهم، تماماً كما تخلص من غيرهم، كم هو بارع وخطير وعبقري ومجرم من جائنا بهذا (القصّاب) وراح يفرضه على دجلة وعلى غرين الفرات، على بغداد ونينوى والبصرة وسامراء؟ كيف تمكن ذاك العبقري المجرم الخطير البارع من تسليم حاكمنا أرض كربلاء والحلة والنجف الأشراف والناصرية والعمارة؟ في أي استوديو رسموا ذاك المجرم البارع العبقري الخطير البارع من تسليم حاكمنا أرض كربلاء

والحلة والنجف الأشرف والناصرية والعمارة؟ في أي استوديو رسموا ذاك المجرم البارع العبقري الخطير ومن الذي رسم عملية ذبح الديوانية السماوة وكركوك والسليمانية وأربيل؟ أتذكر قولاً سمعته من رجل عجوز سمعنا أنهم قتلوه ورموه على زبالة (قنبر علي) عند الفجر، كان يكرر دون خوف: أعطيكم عهداً أقطعه على نفسي، أن عزام جبارة ليس سوى عميل ينفذ أوامر أسياده، وإذا اتضح العكس سأذبح نفسي أو أحرق جلدي أمام الناس في ساحة التحرير، لكنهم ذبحوه وأحرقوه قبل أن يفعل ذلك بنفسه، مع أنه كان على حق حتماً فيما راح إليه.

مشيت مع الحقيبة بضعة أمتار، ثم وقفت عند المتحف العراقي المنهوب، رأيت طفلاً يبيع الماء .. معقول؟ منذ متى صار الماء يباع في بغداد؟ كان الطفل (السقا) يبتسم ويقول بصوت منهك ومذبوح:

- ماء بارد حلو، الطاسة بنص دينار.

نصف دينار عراقي للطاسة، أي مجرد قرش أردني واحد، لماء مخلوط بالثلج، اقتربت من (السقا) وأعطيته حفنة من الدنانير بعد أن شرب الماء الدجلوي الذي أبكاني وأعادني إلى زمن الخير الذي ضاع تماماً منذ آخر كوب على فم الزعيم الطيب الذي قتلوه ذات يوم رمضاني من عام ١٩٦٣، لكن الطفل أعطاني طاسة أخرى غسلتُ بها إغمائي ومتاعب الطريق، تأكد لي أن بغداد مؤطرة بحزام أحمر يشبه الدم، وإذا ما وليت وجهك في جولة بين شعابها فسوف ترى المزيد من

الوصايا والدماء، يبدو أن السيد إبليس صار أكثرنا معرفة بما يدور في بغداد الفزع، أمري غريب، كيف أنني قررت الهروب من جحيم عزام جبارة وكيف قررت الرجوع، لكن الحياة قرب (المظلومين) لها أسرارها الخفية أيضاً، أحتاج إلى وقت أطول حتى أفهم نفسي، وإلى زمن بعيد حتى أحقق الأمان للروح التي توشك أن تغادرني.

غادرتُ همومي نحو بيتي في مجلة قنبر علي (ولا شفاء لي من أخطائي، ماذا لو أنهم أعادوني إلى الخدمة في الجيش؟ معنى ذلك الموت فوراً)، ذلك أنني كما أعرف نفسي من النوع الحالم الذي يغرق في شبر من الماء، كيف سأعتذر عما فعلته طوال نصف عام من الصمت والغربة، وماذا سيقول عني سيادة العميد عزيز عارف الدوري، هو الذي أنقذني من أيام الخنادق والنكبات والعقارب والحفر وأعطاني جواز سفري الذي هربت به وعدتُ إليه؟ أية أزمة ألبسها تحت جلدي وأية شعلة نار أحرق فيها نفسي؟.

اقتربتُ من بيتي، اسمه صار بيتي، مع أنني لا أملك فيه حتى حجارة مثلومة من حجاراته، أطرق الباب على استحياء، إذا بأختي ليلى تفتح الباب دون أن تسأل (من يكون الطارق)؟ ثم طال صمتها وامتد صمتي، تحدق بي وأنظر بخشوع إليها، ربما لحظة من الزمن، ربما ألف عام، فجأة راحت تصرخ:

– إنه حمد، لقد عاد حمد، إنه في البيت، حمد عاد إلينا.

ثم أغرقتني بعطرها دموعها وحنينها وهي تسأل: ماذا جرى يا حمد؟ أين كنت يا حبيبي؟ لماذا تأخرت هكذا؟ كيف لم تسأل عنا؟ لماذا طال غيابك وقد أخبرتنا بأنك لن تتأخر علينا غير شهر واحد؟!.

لم أعثر على أي كلام أقوله في حضرتها وبين يديها، كنت مزيجاً من الحنان والتعب، أريد النوم فوراً على فراشي، مع أنني أشتاق إلى اكتشاف ما جرى في غيابي، صعدت إلى الطابق الثاني من البيت، أسمح بأصابعي على درابزين طفولتي المخلوط بذكرياتي يوم كنت أنزلق عليه عشرات المرات في النهار الواحد، وعلى مهل تسسلت إلى غرفة أمي، لم تكن غير جسد يذبل، أحنيتُ رأسي في حضرتها وبكيت، لم تكن تسمعني، خلعتُ الخاتم الذهبي وألبسته بنصرها دون أن تشعر بي، كانت قاب قوسين من الموت، وكنت مثلها قاب قوسين من الانهيار، هذا الجسد الذابل كان فيما مضى يقصّ الحكايا فوق رأسي حتى أنام، لا أحد يحكي معه الآن، فقد شبع نوماً دونما قصص تروى إليه.

من زاوية في زماني المخنوق، من حفرة تحت الأرض أو من صرح بعيد عن قلبي، من وراء حجاب سميك وربما من خلف قاعة مغلقة سمعتُ ليلى تقول:

– هل تدري يا حمد أن سلمى تزوجت؟

وقف العالم فجأة من حولي، سلمى تزوجت في غيابي، ثم ماذا؟

لها الحق في تصفية الحساب فيما بيننا، ماذا كنت أنتظر منها وأنا الذي بدأت لعبة جر الحبل على كومة تبن أحرقها بنفسي وليس من حقي بعد ذاك الحريق أن أتوسل النجدة حتى تنقذني السماء والناس مما اقترفت يداي، أسمع ليلى تكرر ما قالت:

- هل تسمعني يا حمد؟ سلمى تزوجت.

تزوجت سلمى، فهل تسمعني، أسمعك، لكن قلبي ينبض فوق ركام من العظام، وعظامي تبرأت من لحمي، سلمى لا تسمعني، فهل تبرأ لحمها من عظامها، أم مضت إلى بيت الطاعة حتى تكف عن إطاعة قلبها؟ نزعتُ ثيابي ورميت بالجمرات على فراش مهجور منذ نصف سنة، تذكرتُ أولى كتاباتي إليها يوم كان الحب بيننا أكبر من أحلامنا البريئة الطازجة، أنطق الكلمات وأنا أغفو على حلم ذبحته بأصابعي:

- كوني لي وحدي، ليس من مسافة بيني وبينك غير خوفي من نفسي، اعذريني إذا أحببتك هكذا مثل عبد يعشق ظلم سيده الوحيد، كوني سيدتي حتى أتعلم الفرح بين يديك واحذري أن تحتفي من حلمي، فهذا يعني موتي.. كم أحبك يا سلمى وكم أخاف عليك.

يركبني هاجس عنيد بأنني سأعود إلى معسكرات الذل، وربما أرجع ثانية إلى قطارات الجنوب، ثمة إحساس قاهر أن شئياً سينفجر في حياتنا وتنتهي معه عزائم وغنائم ومكارم عزيز عارف الدوري، وقد تنهمر البلاوي

في ومضة من الزمن، لابد أن الملازم أول (حسان أبو المكارم) ما يزال يسأل نفسه عن الغزال الشارد الذي فر من الجحيم، وإذا ما عدتُ ثانية إليه سيكرر أن البغال أوفر حظاً من الجنود وأغلى منهم، أي رعب يصارعني وأنا أفكر في الخنادق وأكياس الرمال وحرارة الصيف التي كادت تقتلني ذات يوم.. هناك خسرتُ رهاني مع الصبر فعلاً، ولم أعد أملك من نفسي غير قشعريرة حلوة تأخذني إلى أمل باهت بعيد "أن دوام هذا الحال من المحال".

لكن الحال الذي طال، أربكنا، ومخالب السادة نزلت في لحمونا ولم نعد نرى غير أنياب ناتئة في طريقها إلى عظامنا حتى تكفّ تماماً عن آخر حلم قد يطرأ سهواً على فراشنا.. حتى سلمى، وهي طوق نجاتي من غضبي واكتئاب قلبي، مضت إلى رجل ما كانت تعرفه، لم تنفع القصائد ولن تنفعني بعد الليلة، وما أهمية أن أكتب عن كوكب صار من نصيب سواي؟ أسمع (هلهولة) من مكان قريب، هل ثمة إنسان سعيد في بغداد؟ ترى هل كف الرصاص عن القتل؟ أما زالت الحرب هناك وراء تلال الرمل؟ ألا يمكن التعويض عن مخيّلة الحرب بحروب تليفزيونية يتمتع بها قائدنا المحنك؟ ماذا سيقول النقيب ماهر الناصري بعد أن وليت وجهي شطر بغداد ولم أعد إلى شتائمه ولسانه السليط؟ ليس هذا شأني بعد اليوم، لكن ماذا لو عدتُ إلى مكاني ورجعتُ إلى حراشف الأفاعي وزيارات العقارب التي كنا نخافها أكثر من زئير الطائرات والشظايا؟ كم هو مرعب وغير إنساني أن تكون جندياً في جيش عزّام جبارة! لا أدري

ماذا دهاني، لماذا يجثم هذا الكابوس فوق جلدي؟ هائج صدري مثل بحر يعلو ويهبط على زورق مهجور، لم أفارق غرفتي منذ أيام، ولا أدري ماذا سأفعل في الوقت الفارغ الذي أنا فيه؟؟ خاوية بغداد، لم تعد هي نفسها (الحلوة الحبابة) التي تمشط شعرها على ضفاف دجلة، الشوارع ملغومة بخوف توشك أن تراه، بخار الرعب يتصاعد من كل زاوية في مدينة المنصور، دنيا مهجورة لا أحد فيها يسأل عن أحد، أين ذاك الحنين الذي يرفرف على كل بيت وأين الهلاهل وسماورات الشاي وخبز العباس؟ أين حفاوة الروح بأحبابها وإلى أين راحت السعادات الصغيرة التي أتذكرها منذ طفولتي؟ سينما الفردوس التي صارت مصنعاً للخشب؟ مقهى البلدية التي أصبحت مخزناً للخردوات؟ بائع الفرارات الذي صار عميلاً في جيب المخابرات؟ مهدي أبو الكباب الذي سرقوه بعد اغتيال الزعيم (عبد الكريم قاسم) ومات كمداً وحسرة؟ أين اختفت سعادتنا الطرية التي ترعرعنا معها؟ أين مزيقة أولاد الطرف؟ أين الطرف نفسه؟ ماذا حلّ بالنخوة والخلّة والنفوس الطيبة الشفافة؟ أين ملح الطعام ورائحة الباميا والخبر الطالع من جوف التنور؟ أين بيض اللقلق وتنور الحبايب والقيمر والباقلاء بالبيض والدهن الحر؟ ماذا جرى في قنبر علي وخان اللاّوند وسوق حمادة ورأس الحواش؟ هي أسماء سميتموها أنتم وما أنزل حاكمنا بها من سلطان أو فرمان، ربما صار قنبر علي (قنبر عزام) وهان اللاوند (خان عزام) ورأس الحواش (رأس عزام)، كما فعل بسوق حمادة ومدينة الثورة من قبل، لا تاريخ ولا أسئلة ولا جغرافي، زنبرك مفتوح نحو

الرذيلة، دمامل وقورح ونزف جروح وجداريات لا أول ولا آخر لها، جذام وخواء ورزمة وصايا وحفنة غزوات وشلة شقاوات وصخرة تجثم فوق الرؤوس، البلد صارت ضيعة لمن أضاعها، لا أعرف ولا مذاهب، بل عبوة قاتلة لا تعلم متى ستنفجر ولا تدري أي شيء عن ضحاياها... نفوس معلبة داخل كهوف تشبه عباءات النسوة، لا ملامح غير الكبت والقنوط وانعكاس ضوء شاحب، حالات إعياء وشرود ومرض مع صوت كما الجلجلة يجوس بين الناس وهم جميعاً على بركة من الدم صار اسمها العراق.

هذا المهرج الذي نراه كل يوم وكل ليلة على شاشة التليفزيون، أما تعب من التمثيل أبداً؟ ألا يفكر في أخذ قسط من الراحة كما يفعل بقية البشر؟ من أية طينة رماه الله علينا؟ ألا يستريح هنيهة من التسكّع بين المذابح؟ أما من شيء يزعزع شهوانيته للقتل؟ تضحكني أمي حين تقول عنه "إنه مثل الحمص في كل جدر ينبص"، وها هو ينبص على حياتنا وفي أكواخنا ومهاجعنا وفي كل أرض وماء، مع العشائر والقبائل، ينبص فوق العروش ومع الملوك والفخامات والسلاطين، مرض يمشي على قدمين، يكشر عن سمومه ورذائله لكن بحشمة ممثل وحفاوة كذاب، أما تعب من هذا الدور، وهل يستطيع أي ممثل على خشبة المسرح تكرار شخصية واحدة طوال حياته؟ أما ينبغي نزع تلك الثياب المعروقة، أما يجب غسل دهون المكياج وتبديل بعض الحركات مثلاً حتى يتخلّص الجمهور من هذا الملل السفاح الذي يدخل البيوت كلها على هيئة

شاشة؟ ماذا دهاني؟ قد أموت إذا بقيت هكذا على فراشي أتسلى بطيش الحاكم ومثالبه، ينبغي أن نصرخ خارج البشر، إذا لا نفع من الزعيق بين الجدران... ما زلت أسمع (الهلاهل) وأسأل نفس عما إذا كان من رجل سعيد أو امرأة فرحانة في بغداد؟.

أسمع طرقاً خفيفاً على باب غرفتي، ليلى تقول: ألا تريد أن تتعشى يا حمد؟ الطعام على النار.

وفوجئت بالمساء يتسلل هادئاً وأنا أنهض من بلاهاتي على قرار صارم: أن أفعل شيئاً يخفف من غلياني.

كانت ليلى تحكي عن زوجها، عن ابنتها عذراء، عن رحلة قصيرة إلى الموصل، عن عزيز عارف الدوري، عن جريمة في شارع حيفا، عن ثمن الشاي والسكر والأرز، مع أنني لم أفهم أي شيء مما قالت، كنت في إغفاءة على شاطئ بعيد، هناك حيث لا أحد غير أنين النهر يخبرني بكارثة تمشي وبلاء عظيم سيأتي، ثم سمعت صوتها وهي تقترب:

– ألا يهمك ما قلته الآن لك؟

ماذا يهمني، وما الذي لا يهمني؟ لا مقياس عندي حتى أفهم المهم وغير المهم في أيامنا السود التي ضاع منها لأهم، قلت لها: والله لا أدري يا ليلى، لكنني لم أكن أسمع ما تقولين، أعني معذرة كنت أسمع ولا أفهم، ذهب رأسي وعقلي إلى مكان بعيد.

وكم أربكها قولي، مع أنها راحت تكرر ثانية: إن زوجها قرر البقاء ثلاثة شهور أخرى في الشارقة حتى يجمع بعض المال، وأن ابنتها عذراء صارت تتذمّر من نمط الحياة التي تعصف بها يومياً في قصرها المنيف على شاطئ النهر، وثمة فكرة للسفر إلى الموصل بعد أسبوعين للراحة وتبديل الجو، كما أن عزيز عارف الدوري صار يغيب عن بيته كثيراً ولا تدري عذراء ما إذا كان قد تزوج سراً من امرأة أجمل منها.

وبعد صمت شممتُ فيه عطر القرنفل، من أين جاء عطر القرنفل؟ أما تزال العطور على حالها برغم الخراب الذي أكل الأخضر واليابس؟ سمعت أختي تقول: إن رجلاً قتل زوجته وعشيقها في شارع حيفا، ثم عادت تحكي عن جشع التجار ورعونة الحكومة التي تركت لهم الحبل على الغارب، حيث تضاعف ثمن الشاي والسكر والرز، وكيف أن زوجها في الشارقة لم يبعث بمصروف البيت منذ أربعين يوماً.. أسمعها تحكي وأنا تحت وطأة إحساس مغفل يخبرني بزلزال آتٍ لا ريب في أقرب فرصة.

قالت ليلى: هل سمعتني هذه المرة أم أنك لا تريد أن تسمع أبداً؟ أدرى أن أمورنا لا تعنيك بشيء.. أنت هكذا دائماً؟

نظرت إلى (الكبّة) وأنا أقطعها إلى أربعة أجزاء ثم صوب أختي التي جاءتني بالعنبة والزيتون وهي تعاتبني، قلت لها:

– بالعكس يا ليلى، أنا أحبكم أكثر مما تظنون.

ثم سألتها: ماذا حدث في غيابي غير الذي سمعته الآن؟ وبسرعة كأن الأمر لا يستحق أن يذكر قالت:

لا شيء مهم، لكن عزيز لم يعد كما كان، إنه لا يسأل ولا يرفع التلفون حتى للسؤال عنّا، وعذراء المسكينة تخبرني بين وقت وآخر عن أشياء مخيفة تحكي عنها ولا أفهم جيداً ما تعنيه .. إنها تخاف الكلام حتى معي أنا أُمها .. الله يستر.

الفصل الخامس

حكومة الثعلب

انتبهت فجأة إلى صورة الحاكم عزّام جبارة وقد أخذت نصف الجدار، قلت يشيء من أرسى دفين: من الذي جاء بهذه الصورة؟

قالت ليلى وهي تبتسم بكثير من الخبث:

ومن سيأتي بها غير عزيز؟

لا تشبه أيّ صورة رأيتها لهذا الممثل العجوز، لم تظهر في أية جريدة من قبل ولم أعثر عليها في جدارياته أو على شاشة الحماقة التي تبث صوره في كل ساعة، إنها صورة خاصة تُعطى للرفاق الكبار على ما يبدو، يظهر فيها الرئيس مثل مصارع ثيران، لكن بملامح مخنثة، وقد برزت مؤخرة على نحو مفضوح وهو يصوّب بندقيته نحو جماهير تحتشد في ساحة الاحتفالات وعلى يمينه رجل الحماية الأول ووزير الخارجية وعلى يساره القاتل الكيمياوي يبتسم، بينما في بقعة تكاد لا ترى يظهر عزيز عارف الدوري وهو يرفع يده تحية للرئيس الذي سيطلق الرصاص على الشعب كله، غريب ما أراه على حائط البيت، كأنه ليس المكان الذي أعيش فيه، هذه الصورة أعطت الدار شكلاً مخيفاً كما لو أننا تحت المراقبة في كل لحظة!.

جلست أمام الصورة أفحص مغزاها وأدرس خباياها، كم هو مربك أن ترى شيئاً كهذا في بيتك ولا تتمكن من رميه إلى برميل النفايات؟ وعلى مضض رحت أكرر البحث عن معنى ما أرى قبالة عيني "هيئة مصارع"، لكن كيف جاءت الملامح مسبوكة على لوطي يحاول إغراء الزبائن هكذا؟ ومن ثنيّات اللون والزخرفة والملابس ومن وراء صلابة الحماة الذين يحومون حوله، رأيت وجه رجل حسود يفكر حتماً لو أنه صار الحاكم بدلاً من هذا المصارع المخنث الذي تصفق الجماهير له خوفاً من بطشه.

أكاد لا أصدق ما أرى، هل تصبح ابنت أختي ذات يوم زوجة الرئيس القادم؟

وما الغرابة في الأمر، كلهم من طينة وعجينة واحدة! نعم، رأيت ذاك المنبوذ الذي يبتسم هناك في بقعة تكاد لا ترى من الصورة، وأيقنتُ أن عزيز عارف الدوري هو الوحيد – داخل إطار المشهد – من يفكر في تبادل أدوار الصورة، أن يخرج من تلك البقعة المهجورة المهملة التي لا يراها أحد، وأن يدفع بالرئيس إليها ليأخذ مكان المصارع الذي يحمل البندقية ويطلق شظاياها نحو عباد الله المكوّمين في جانب الكرخ، فما من أحد أحسن من أحد والذي أعطى عزّام جبارة مكاناً لا يستحقه يمكنه أن يعطيه المكان نفسه مهما كان الثمن الذي سيُطلب منه! هي بالتالي مجرد لعبة في مكان ما وفي زمان تحكمه الظروف، وإذا كان الحاكم محض (عميل) أدى دوره كما طلبوه، يكون أجدى لهم أن يأتي في مكانه

(قراقوز) أفضل يعرف كيف يكمل المهمة، لا سيما وأنه أصغر عمراً وأكثر شغفاً للجلوس على عرش بغداد المغمّس بالنفط والملذات، المهم أن يخرج من تلك القبعة التي لا يراها إلاّ هو وحده، والتي رأيتها أنا أيضاً ولم يبق سوى اكتشاف المصير، ترى كم شخص – غير عزيز عارف الدوري – في هذه الصورة، يفكر أن يكون الأول فيها؟ بينما عزّام جبارة يعرفهم جيداً، فهو يملك أرشيفاً دسماً بتحركات كل واحد منهم وله أخطبوط من الأصابع والعيون التي تشير إليهم وتراهم حتى إذا كانوا مع زوجاتهم في الفراش!.

الديكتاتوريات تتناسل دون أب شرعي، معتوه يذهب وهلفوت يأتي، لقطاء من نسل أنثوي لا رجال فيه، لهذا يأتي الديكتاتور ويبطش بأحسن الرجال حتى يثبت أنه مثلهم وربما أفضل منهم وأكثر شرعية من ميلادهم ما دامت الحسابات مغلوطة منذ نزول حواء الأرض وجاء نزول آدم بعدها بثلاث خطوات .. الديكتاتورية تنقسم حتى دون سبب معقول، نظام لا يفهم ما اعتدنا عليه من شرف وتسامح ورحمة ومحبة ونكران، بل هو يسخر منا ويستخف بنا إذا ما نطقنا بمفردات لا مكان لها في قاموسه الصغير المغلق!.

قالت ليلى وهي ما زالت تبتسم أمام الجدار:

– يبدو أن صورة القائد أعجبتك يا حمد!.

أظنني حينها شعرتُ بالخوف حتى من أختي، من يدري أيّ خراب حلّ في عقول الناس وضمائرها، ما دام كل واحد منهم يفكر بإنقاذ نفسه من كماشة الحكومة، ها هو البيت الذي عشت فيه طوال عمري، يزدان بأشياء ومقتنيات ثمينة ما كنا نحلم أن نشتريها، إذا بها تنهمر علينا كما المطر بعد زواج عذراء من سيادة العميد قائد فرقة المشاة الثامنة، فيديو ناشيونال آخر طراظ، قطع مستوردة من الهامبرغر تغزو الثلاجة من أسفلها إلى أعلاها، شتلات زرع اصطناعي على السلالم، وسبائك ذهب محفوظة عندنا –كما تقول أختي – حتى نجد الأرض التي سنبنى عليها (بيت الحبايب) كما تحلو التسميات، تبدلت غرف النوم والصالة وصارت من خشب الصاج والزان، والملابس التي نرتديها لم تعد هي نفسها، بل جاءتنا من وراء الحدوود – من دمشق وإستنبول وبيروت – وهي تهفهف على أجسادنا كما الرقصات، مرمر إيطالي مركون في جانب من البيت جاء به عزيز عارف الدوري هدية منه لبيت المستقبل، نظرتُ إلى سقف البيت، رأيت ثريا بطابقين من الشموع، طنافس في كل زاوية مع أن الجدران لم تزل على حالها، مشققة توشك أن تنهار علينا، وبرغم ذلك، هذا ليس البيت الفقير الذي كنت أعرفه، حتى أنه لا يلائم محلة قنبر ولا أزقتها المبتلاة بالحفر المستنقعات والجوع!.

رحت في موكب من الريبة والشكوك، أن يكن السيّد العميد قد أخذ عذراء وأمها إلى حصنه المنيع وأن تكون جرثومة الفساد والفحشاء

قد تسلّلت إلى منزل الحاج محمود الصالح، أبي الذي قال ذات مرة حين عودته من بيت الله الحرام: هذا بيت أنظف ما فيه ساكنوه.

من يدري كيف أصبح البيت في غيابي عنهم وماذا حلّ بمن يحيا فيه؟ انتبهت إلى أختي وهي تكرر السؤال عن صورة الرئيس وما إذا كنت معجباً بها، إذا بي أقول دون خوف أو تردد:

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

راحت ليلى تضحك:

– لا أفهم تماماً حقدك هذا عليه؟ أنا لا أعرف عنك أي اهتمام بالسياسة ولا أظنك تنتمي إلى حزب أو جماعة، فما هو حقاً سبب هذه الكراهية ما دمنا أبعد الناس عن الحاكم وأهله؟!؟

نزعتُ الخوف عن جلدي، هذه أختي ولا يمكنها أن ترميني لقمة سائغة تحت أنيابهم، صحيح ما تقول، أنا لا أنتمي إلى حزب السلطة حتى أنشق عليه، ولم أجرب الخوض في حزب غيره، لكن كراهيتي واشمئزازي منهم لا شأن له بالسياسة، فمال يفعلونه (هؤلاء) ليس من السياسة في شيء، بل هو شكل من أشكال العصابات التي تمكنت من اغتصاب السلطة لا أكثر من ذلك وليس أقل، وعزام جبارة على رأس العصابة يلهو معها ويلهو بنا في أي وقت يشاء، نظرت ثانية إلى الصورة أشير إلى المصارع المخنث الذي يصوّب سلاحه إلى الشعب، وأنا أقول كأنني في حالة انفجار:

- إنه ثعلب، أخرق، ومبتذل، هذه حكومة ذئاب وثعالب وتماسيح، حكومة شقاوات الطرف، حكومة قطاع طرق، ولا أفهم كيف يصبح هؤلاء الرعاع البلهاء قادة على شعب بأسره؟

قالت ليلى بسرعة:

- أرجوك يا حمد، أرجوك بالله فيك يا ابن أمي، حاول أن تخفي إحساسك هذا في حضور عزيز الدوري، إنه يحب الرئيس حدّ الجنون به، إنه حريص على سلامته أكثر مما تظن.

قلت لها وأنا أحدق إلى البقعة المهملة التي يظهر فيها عزيز عارف الدوري خلف الرئيس، وهو يرفع يده بالتحية:

- عزيزك هذا لا يحب الرئيس، إنه ينتظر الساعة التي يصطاده بها، كوني على يقين ألا أحد يحب هذا السافل إلا من كان بمستوى سفالته أو يزيد.. إنهم يتملّقوه خوفاً وفزعاً من بطشه، ويوم تبدأ أسنانه في السقوط ولحمه بالترهل والشيخوخة سوف تفهمني أي حب يكنّون له!.

لم تصدق ليلى شلال كراهيتي الذي انهمر من لساني مرة واحدة وحطم السدود والقلاع والجسور والمنارات، إذا بها تغلق الطريق على مياهي الجارفة وهي تمضي إلى غرفتها مثل سلحفاة أرعبها كلب هائج!.

- قل ما تشاء في أيّ وقت تشاء يا أخي، المهم أن تقوله وحدك يا حمد ومن دون شاهد عليك، من دون شاهد عليك يا حمد، وافعل بعد ذلك ما تشاء، وتذكر أن المجانين أيضاً لهم الحق في الحياة.

حلّت اللعنة على جسدي، إلى أين سأمضي بهذا التابوت الذي سأحمله فوق رأسي، وأي رمس ينتظرني وفي أية مقبرة سأنام وأنتهي، أما ينبغي السكوت على هذه النيازك التي توشك أن تحرقني؟ أما يجب السلام مع الروح حتى تحين قيامتي؟ ماذا أفعل بنفسي وأي مركب أركب وأنا لا حيلة لي أمام هذا الجبروت العسكري المهول الذي يغطي البلاد من رأسها إلى أساسها؟ أنا محض نورس مكسور الجناح أتوارى عن العالم لئلا ينكسر الجناح الثاني فأموت مهلاً على شاطئ بعيد، حيث لا يسأل عني أقرب الناس لي.

وقبل أن تغلق بابها خلفها قالت ليلى:

– ألا ترى من الواجب أن تسأل عن عزيز أو تذهب بنفسك للسلام عليه؟ تذكّر ما فعله من أجلك يا حمد، وربما ستحتاجه غداً.

صرخت أمام صورة عزّام جبارة:

– أنا لست مخبولاً يا ليلى، وأرجو أن يبقى في الذاكرة ما قلته لك الآن، لا أحد يحب هذا السافل إلاّ من كان بسمتوى سفالته.

تعج نفسي بمزيج من الخيبة والنقائص، أنا لا أميل إلى عزيز عارف الدوري، ولا أحتمل رؤية أسياده على شاشة التليفزيون، ولا صبر عندي على كروش هؤلاء اللصوص، وقد عصفت بي رياح غرائزي التي أخبرتني أي نوع فاجر من البشر جاء بحكمنا ويفرض شروطه علينا؟ ولم يبق في أعصابي غير كسوف حطّ على عظامي وصارت الدنيا مظلمة حولي أكاد

لا أرى منها غير نيازك احتراقي ومجرات نيراني وجمراتها، وما عدتُ أعرف أين المفر؟ كيف بي أمضي للسلام على عزيز عارف الدوري وأنا أعرف أنه من طينة عزام جبارة ومن خصياته وذويه ؟ من أنا وومن أكون بالنسبة له ؟ ربما محض تابع ذليل يمكنه أن يرمي به إلى خدمته وقت يشاء، وقد لا أستطيع الاعتراض إذا ما أراد مني تنفيذ مهمة ما أو حتى رمي الناس بالحجارة، ما دام قد أخرجني من الثياب العسكرية وأعطاني جواز سفر إلى ساحل بعيد أو جزيرة داخل بحر عميق.. له الحق أن يفرض أصابعه على حياتي، بإشارة منها أتحرك أو أغفو أو أضرب الناس بالقذائف والرماح.. أنظر إلى عائلتي وبيتي، إلى الصورة المعّلقة بالمسامير على حائط الذل، وأفكر: ماذا يحدث حقاً في هذا البلد الذي استأجروه بقوة الخداع، وصار النزيل هو حاكمنا بعد أن ضاع منا البيت والمفتاح معاً؟ من الذي أضاع المفتاح بهذه السرعة وكيف استولى النزلاء على ملكية الدار بالسرعة نفسها؟!.

لكن ما باليد حيلة، والفأس وقعت في الرأس –كما يقال – وصار عزيز عارف الدوري نسيب عائلتي ومفتاح غناها وأفراحها، وينبغي الذهاب إليه وتقديم فروض الطاعة لمن صار ولي نعمة، لا مفر من الزحف نحو قصره أو المرور على مقر عمله حتى أثبت ولائي لمن أصبح شيخ طريقتي وطريق سعادتي!.

موغلٌ صدري بهذا البركان الذي يوشك أن ينفجر، وأنا أجد نفسي مرغماً على رسم ابتسامة عريضة بلهاء فوق ملامح وجهي، أتذكر صورة

القائد وأرى الجزء الذي اختفى من أسرارها، حيث يبدو عزيز عارف الدوري في تلك البقعة المهملة منها وهو يرفع يده اليمنى تحية لرئيس القصّابين.

ارتديت ثياب الخداع ولبست القناع الذي سأحكي من خلفه مشاعر لا يحتويها قلبي، خرخشة خوف بين ضلوعي ولوثة مخبول تحتل مسامات عقلي وأنا في طريقي إلى السيد العميد الذي اشترى ابنة أختي في محكمة لا قضاة فيها، اشتري أنوثتها ونضارتيه بما يملك من سحت حرام، ربما اشترانا معها ونحن في غفلة من أمرنا نظن أننا اشترينا العميد حتى يحقق بعض أحلامنا، عابسٌ كل شيء في (حمد محمود الصالح) لولا ذاك القناع الذي مشيتُ به نحو محنتي، لا صوتَ لي غير هذا الصدى يكرر بين القفص الصدري : كل شيء كاذب ومزيف حتى الكلام الذي ستنطق به، وبرغم أنني دن تهمة ولا جنحة أو جناية، إلا أنني أسير مثل محكوم بالإعدام صوب (نسيبي) الذي يخافه الكبار قبل الصغار، أتحرك على هيئة قنفذ يخاف حتى النسيم إذا ما هبّ من حوله وصار يكشف عن هلعه ورعبه، محض ورطة أصبحت الحياة التي أعيشها تحت خيمة قائد الفرقة الثامنة، وأنا لم أعد غير خادم (أخوث) يتدحرج على قنطرة مكسورة من الطرفين!.

عند وصولي قرب مكتبه، سمعتُ ضجة أسلحة ومباركات وحارس يرطن بكلام غير مفهوم، عرفتُ بعد ربع ساعة أنهم يرحبون بي، بنادق على الأكتاف، ابتسامات تتناثر من الضباط الجنود، ذلك أنني "خال

العروس" الصغير المحبوب الذي جاء لرؤية السيد العميد، وكنت أظنني سأموت سهواً برصاصة طائشة بافتراض أنني جئت المكان الذي لا يتخطى عتبته غير المجانين!.

أصابني شيء من الذهول وأنا أتشيث بنفسي (أن أكون بمستوى خشونة هذا الترحيب الذي أوغل أصحابه بالمكر والليونة والتزلف).. وجدتني داخل شرنقة مجعة مثل عانس عثرت فجأة على ألف رجل يريد الزواج بها، ثم ظهر عزيز عارف الدوري من بين مقاتليه، ناعس العينين مفتوح اليدين، تذكرت صورته على جدار بيتنا، يتربص من بعيد بفريسة عسيرة المنال، اقترب مني، أخذني بين أحضانه كما لو كنت محض طفل يحتاج إلى رعايته، لم أنتبه من قبل إلى ذاك الوشم عند أعلى رسغه الأيسر والذي حفر به رسم خنجر وأفعى، ثم قال بصوت أجش لم أسمعه أيام خطوبته:

أهلاً يا حمد، أهلاً بالحبيب الغالي، أين أنت يا رجل؟

ثم سحبني من يدي بلطف إلى غرفته، كان يصرخ في وجه واحد من حرسه: شاي بسرعة يا ولد.

وجاء الشاي بسرعة، وأنا أجلس على شراع يهتز قبالة الريح، تعصف بي شمالاً وشرقاً وتجرجرني جنوباً وغرباً، مخسوفة ضلوعي وكذلك كبريائي، أريد الوقوف لحظة أمام الرياح عسى، ولعل وربما أخفف من رعشتي التي ما فهمت أيما سبب لهل فهذا الرجل هو زوج ابنه

أختي، وأنا خالها الوحيد وليس من عذر لكل هذا الهلع الذي يحتويني.. أنظر حولي وأفكر: ما الفرق بينه وبين الرئيس؟ إنه يأمر كما يأمر، وربما يقتل كما يقتل، يحيا برفاية لا نظير لها كما هو حال الرئيس، وله من الحماية والحراس ما يكفي مدينة بحجم بغداد، إنهم يحتلّون أجسادنا وحياتنا وبيوتنا، ولا أحد يمكنه الاعتراض، وهذا واحد منهم، عزيز عارف الدوري، مثله عشرات القادة ممن يركب في زورق عزام جبارة وسوف يغرق ويموت يوم يغرق الرئيس، (مغامرة كبرى أن تربط مصيرك بمصير إنسان آخر، بل هي مقامرة بكل ما تملك، إذ لا أحد في الكون معصوم من الموت أو الاغتيال أو المفاجآت) هزّني هاجس تّبنهي إلى سؤالاتي وأوقفني عن رسم ضجري منهم، لست أدري كيف فتحت فمي ومتى قلت له:

– كيف حالك سيدي؟

إذا به يضحك، أيّ دهاء وأية دعابة أن يقول وهو يرفع استكان الشاي نحو فمه:

– أنت لم تعد في سلك الجندية ولست في الجيش الآن حتى تنطق بهذه الكلمة، ثم إنني لستُ سيدك حتى لو عدت جندياً في مكانك القديم هناك في شرق البصرة.

ماذا يعني؟ كم أرعبني قوله (لو عدت جندياً) وكم حاورني الذل وأنا أسمع هذا الإنذار الذي جاء مبكراً (هناك في شرق البصرة) وحطّ

على شغاف قلبي، وبرغم المناخ الفكه المهادن الذي يوهمني به عزيز عارف الدوري رحت أقول وأنا أشدّ على الكلمات بقوة:

– أنت يا أستاذ غزيز إنسان كبير، وينبغي أن أتذكر دائماً من تكون حتى إذا أصبحتَ زوجاً لواحدة من عائلتي.

قال دون ربط أو انتباه:

– إنها أميرة فعلاً، ابنة أختك إنسانة ممتازة وتستحق مني كل خير.. منذ تزوجتها والخبر لم ينقطع عن بيتي أبداً.

عدتُ إلى خنوعي وبؤسي وأنا أردد كالببغاء:

– الحمد لله، الحمد لله، المهم أنكم بخير وهذا يكفي.

قال دون أن يخفي ابتسامته التي تعني أشياء لابد من التذكير بها:

– إذا كنا بخير فهذا يعني أنك أنت بخير أيضاً.

مكبوسٌ داخل غرفته، أنتظر البرهة التي سأخرج فيها دون خسائر، خلفه صورة الرئيس عزام جبارة وهو بين حشد من الجنود، صورة كبيرة ملونة يظهر فيها وزير الدفاع وهو ينظر إلى قائده، نظرة أنثي مغرمة بفارسها الذي جاء على صهوة حصان أبيض، أما الجنود فما من وصف لهم في تلك المهزلة غير أنهم كومة نمل لا ترى ملامح أي واحد منهم، ذلك أن الرئيس هو محورها وعين الكاميرا لم تأخذ سواه باعتبارها، ولا أثر في الصورة للسيد العميد، حتى في أية بقعة مهملة منها، لكنه –كما تخيلت ذات ساعة من ذكائي – راح يقول:

صورة حلوة، أليس كذلك؟ إنها يوم انتصارنا على الفرص المجوس، قلت له وأنا أسخر منه في داخل رأسي:

– الصورة التي في دارنا أكبر وأجمل.

لكنه تغاضى عن قولي وراح يقول ما كنت أعرفه مسبقاً:

– أريد منكَ خدمة بسيطة يا حمد، فأنا لا أملك من الوقت ما يكفي حتى أتفرغ للقراءة والكتابة، والذي سأطلبه منك بسيط عليك جداً.

ها هو حمد الخادم الذي يريد، يتحرك مثل آلة صماء ينبغي عليها تنفيذ الأوامر والرغبات لهذا السيد الذي حررني من قيودي وأعطاني جواز مرور إلى الكرة الأرضية:

– تفضل، أنا تحت أمرك.

قال بسرعة كمن حفظ الكلام عن ظهر قلب:

– أنا أعرف بأنك تكتب الشعر، أختك المصون ليلى عما يريد بأسلوبه الذي لا غبار عليه:

– أريدك أن تكتب بأسلوبك الرشيق هذا شيئاً عن الرئيس القائد حفظه الله ورعاه وبارك في خطاه.

هكذا مرة واحدة يا عزيز؟ يحفظه الله لمن؟ ويرعاه لماذا؟ ويبارك في خطاه أيضاً؟ ماذا لو أنك لم تكن غير نقطة في فضاء الصورة منزوياً ذليلاً في بقعة توشك أن تختفي تماماً عن الناظرين إليها؟ يحفظه الله حتى يأكل ما تبقى من طحين الفقراء؟ يرعاه من أجل أن يموت الأبرياء في

دهايز السجون؟ حرام عليك يا سيادة العميد، ليس هذا دعاء اليتامى ولا رجاء المعذّبين.

خربشة في النخاع، ترفعني إلى منعطف خطير في حياتي، أنا الصفر الذي يريد أن يكون، أتساوى مع الكبار في حفلة الماس واندلاع الثراء، واحة من الإصارة مخلوطة مع باحة من الثأر وأنا أخطط – فوراً – حقيقة ما سيكون من أمري لو أنني كتبتُ له ما يريد.

قلت له مثل رجل يجلس على هضبة عالية لا يريد أن يقترب إليها بقية البشر، هضبة نار وغبار وشوك:

ماذا سأكتب عن الرئيس حفظه الله؟ أعطني فكرة أبدأ منها.

قال من وراء فجوة تشبه الخجل:

– أي شيء يا حمد، أي شيء، ذلك أننا سنلتقي سيادته في عيد ميلاده وأنا الوحيد الذي لا يعرف ماذا سيقول في حضرته، أعني، حتى إذا كنت أعرف ما سوف أقول، فهناك من يعرف أحسن مني، وأنا أريد هذه المرة أن أكون الأفضل بينهم.

قل أي شيء كما يفعل الرجال الجوف، ما عليك يا قائد المشاة غير أن تهزّ جذعك أو تهزّ (طيزك) إن شئت ذات الشمال وذات الحماقة، كما يفعل بقية الملهوفين على إسعاده وإرضاء غروره الثمين، لكنني بدلاً من ذلك قلت له:

– أنت تأمرني أيها العزيز، سأكتب لك أفضل مما كتبوه، كم الوقت الذي تبقى لديّ حتى أكتب ما تريد؟.

رفع غليونه باسترخاء وفرح، تلك كانت أول مرة أرى فيها عزيز عارف الدوري وهو يدخن هكذا، أعرف أنه ابن (خفير) كان يحرس محله (الشواكة) من اللصوص، أخرجوه من الخدمة بتهمة نهب البيوت، لكنه يقول العكس طبعاً، حتى جعل من أبيه ملاكاً يحرس (رأس القرية) و(باب الآغا) و(العباسية) وليس (الشواكة) وحدها، لكن لصوص ذاك الزمان أبعدوه عنهم، حتى يتسنى لهم شفط أموال الناس على غفلة من الخفير الذي زجوه في أحقر السجون، وها هو السيد العميد ينتقم لسمعته ومجد عائلته وعشيرته، ولكن على طريقة الخفير الذي ما غفر له أحد حتى مماته!.

قلت لنفسي "تباً يا نفسي، أمن المعقول ما سأمضي إليه من رخص وبلاهة وإسفاف؟" لو كان بإمكان العميد وعزام جبارة بيع الحماقات للبشر، لأصبحا من أغنى أغنياء الدنيا، لكنهما وجدا في احتراف السياسة فرصة أفضل، كيف تراني أكتب المدائح وأمنحها لرجل أتمنى موته؟ هي مهنة لا أعرف أسرارها ومؤامرة تحاك أشارك فيها دون رغبتي ودون إرادتي، مخاطرة من نوع مضحك ودعابة لا أستطيع الضحك بعدها برغم أنها تدغدغ مسامات جلدي ويدي!.

قال عزيز عارف الدوري بشيء من العجرفة مع أنه يدري بأنني أدري كم هو بحاجة إلى قلمي وأفكاري:

- المناسبة بعيدة جداً، لكنني أحب أن أحتفظ بما ستكتبه لي، ربما نستفيد منها في عيد الثورة أو أعياد النصر مثلاً، لكن عندك أسبوع واحد وربما تسعة أيام حتى أرى ما كتبت، سأكون مشغولاً بعد هذا الوقت وقد لا أتمكن حتى من الذهاب إلى بيتي! حينها تذكرت الرجل الطريف الذي قاله لصاحبه: "إن أمير المؤمنين أعطاك الولاية على الحمير"، فما كان من صاحبه وهو أكثر طرافة إلا أن قال له: "إذن وجبت عليك إطاعتي" فما نحن فيه اليوم يشبه ما كان بالأمس بين ولاية الحمير وولاية العميد عزيز عارف الدوري، الذي يريد مني مدح أسياده بكلام لم يشعر به أبداً!.

تهيأ لي أن رأسي صار مقعوقاً مثل صليب هتلري، أرى هذا الشبح القرمزي وهو يرسم أيامي وشؤوني كما يشا، يرسمها على شريط اعوج مع بصمة أصابع تقول: "بحوزتي من العراة ما سينفعني حين أغرق"، وقد رأى بين يديه كاتب المرائي والمسرات ومبدع نكران الذات الذي سيكتب له حنفية من المفردات الولهانة بحب الرئيس، سيجعل منه البراق الذي أسرى برسوله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فوق أرض جرداء وشروخ ورمال تحركها الرياح، تلك هي أعجوبة القوة حين يملكها المرابي والمنحط وهذا الصنف الرخيص من الملهوفين على الوجاهة.

ليس في خاطري أي شيء عما سأكتبه عن شهر العسل الذي يشارك فيه عزيز عارف الدوري، وما الذي سأكتبه فعلاً وأنا مشلول اليدين ومشلول النخاع؟ كنت أريد الخروج من باحة هذا المبنى، المهم

هو أنني ما زلت على قيد الحياة، وسوف أحيا في صالة الراحة حتى أكتب له عن مشابك الضوء في حياة سيدنا الرئيس الذء أراد نسيبي أن يحفظه الله ثم أن يرعاه أيضاً، بل ويبارك في خطاه؟!.

محترف دناءة، ومنحط بالغريزة، موصوف قبل وصفه، عزيز الدوري هذا، مثلث المكر والنفاق والتزلف، مع شيء من الرعونة، هو نفسه الذي أعطاني (وصية) من وصايا قائده المحنك وقال لي بصوت يشبه نغمة الصبايا:

– هذه الوصية يمكنها أن تساعدك على الكتابة وما عليك غير أن تحكي عن حكمة من قالها وفكر في معناها العميق.

أخذت الورقة المطعوجة وفتحت حتي أقرأ ما كان مكتوباً فيها، إذا بي أتبلل من تحتي حتى عنقي، شعرتُ أن الفانيلة البيضاء التي ألبسها لم تعد غير خرقة خرجت من نهر مالح وأنا أقرأ في وصية الرئيس الذي يريد عزيز عارف الدوري أن يحفظه الله مهما كان الثمن، عظامي توشك أن تتكسر وأنا أقرأ كيف أن ضميرك وعقلم سلطانك، وليس لسانك أوهواك" ثم قوله "اربط لسانك بعقلك واجعل ضميرك رقيب هواك"!!.

طيب، بهدوء رجاء، لا نريد أن تموت المعاني سدى، وأنت الذي بيديك قتلت أجمل ما يعنيه العراق، ها هي الليفة والصابونة، ودرجة الحرارة ٤١ مئويا، والعقل ما يزال في مكانه الصحيح وليس من العيب أن نسأل: هل تراها وصية ما جاء به القائد العبقري عزاّم جبارة، أم فزورة

من النوع الذي نسمعه في شهر الصيام؟ ضميرك عقلك سلطانك، معقول؟! وماذا عن سلطانك أنت الذي تجاوز العقل والضمير؟ ماذا عن هواك أنت وقد قتلت نصف شعبك في حروب دون معنى؟ حروبك المستأجرة التي اقترفتها نيابة عمن يستفيد منها، حروبك التي انتهت بنصر كاذب وإنجاز كاذب كلام فارغ لم يعد من أحد يصدقه في طول البلاد بما في ذلك الأطفال والمجانين، فأين سلطانك على نفسك وأنت المأمور الخانع الذليل الذي يحقق مآرب أسياده خارج أرض النهرين؟

أية وليمة بشعة دعوت إليها الذئاب والجواسيس ولصوص العظام؟ كيف جئت بالقارعة قبل موعدها ولم يرمش لك أي جفن؟ وكيف تراك تحكي عن ربط العقل باللسان وأنت الوحيد في هذا الكون من يأمر بقطع اللسان إذا ما جاء على ذكرك بكلام لا يناسب انحرافك وإسفافك، أنت المفطوم على الذبح والمحموم على ولاية القتل؟ وكيف تجرأت على فعل يشبه الكارثة حين تقول (اجعل ضميرك رقيب هواك).

وأنت وحدك يا عزام جبارة دون خلق الله جميعاً من لا يفهم أبداً معنى الضمير، بل تفهم الهوى واللذائذ وترياق الليالي الملاح؟ أي سوقي مغمس بالرذائل، وأي ندبة تنز القروح وأي قش وسخ أنت؟ ترى أي عظام تحت جلدك السميك وأية شاحنة كلاب جاءت بك إلينا؟ من أية علقة انجبوك وأنت الذي دون علقة أتيت؟ الأرض أجنحة يا عزام جبارة، والغيوم ضفائر، والفراغ وحده من ينمو في شعاب عقلك المريض، وأنت

بلا أجنحة تطير فوق الموبقات، والغيوم تحميك من سلاح الفقراء، حتى بإذن الصواب بفتح ملفات الجرائم كلها وعندها سينتهي كل شيء.

ثم انتبهت إلى عزيز عارف الدوري الذي راح يسألني وهو يبتسم:
- إنها وصية من ذهب كما ترى، وسوف تساعدك على أن تكتب الكثير عن الرئيس الغالي، أليس كذلك؟ ألا تراها وصية من ذهب أم لك رأي آخر يا حمد الصالح؟.

ربما أصابني شيء من الخبل، وأنا أقرأ الوصية مرة أخرى، تبرأ رأسي عن جسدي وضاع مني قياس وعي، أحتاج إلى قيلولة من الراحة، فكم هو جارف هذا البحر الذي أتموج بين رعونته وانفلاته، حشنة هي الصخور التي تحتفي حول سفينتي، وأنا وحدي دون أنيس ولا رفيق، أنا الوريث الشرعي الأخير لهذه المتاعب الجمة التي تحيط بنا.. أشتهي طعم (التبولة) و(الباذنجان) أنا ابن الحطاب الذي ما شوى أي شيء على جطبه، حانوت جدّي ما يزال على حاله خاوياً حتى من السكر والسجائر والشاي، مع أنه عافه دون وصية أو رجاء بإعادة هيكلة المهدم، شقاق واختلاف بين نفسي ونفسي، رث الثياب لم أزل برغم كل ما أعطاه عزيز عارف الدوري من أموال وإغراءات أحتاج إلى إسعاف ونفحة حب حتى أتخلص من بلائي، أسمع العميد يكرر:
- يبدو أنك لا تسمعني يا حمد، هل تسمعني جيداً يا حمد ؟كنت أقول بأنها وصية من ذهب وأنا أحتاجك حتى تكتب عنها وعن بقية الوصايا الثمينة.

أقول دون صت لئلا تسمعني الشياطين: لعنة الله عليك يا عزيز عارف الدوري وألف لعنة على اليوم الذي رأيتك فيه، أي مخاض عسير ما أنا فيه، قلت بسرعة لئلا يأخذني هذياني إلى طرق معتمة أخرى:

– نعم، هذا صحيح، وصية من ذهب، كم هو جذاب قوله: اجعل ضميرك رقيب هواك، بل قرأت لسيادته وصية ثانية في غاية الروعة، يقول فيها: الفرصة الحقيقية هي التي تغتنمها، وليس التي تتصورها ممكنة بما سمع:

– اتفقنا إذن يا حمد العزيز، ستكتب عن السيد الرئيسيس، عندك أسبوع واحد أيها الجميل، أو حتى أسبوعين إن شئت ذلك، المهم أن نسمع صوتك.

على سفوح الخيبة والإذلال، خلف الستائر التي أخفي وراءها بعض عاري، رأيت نفسي أكتب على كفاح الرئيس عزام جبارة، عن أكذوبة حشونا بها أيامنا وصار البعض يصدقها بعد تكرارها، أعطاني عزيز عارف الدوري أرشيفه الخاص عن خطابات الساسة الكبار منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم الذي رحت فيه إلى أحراش البلوى، أدولف هتلر، موسوليني، ستالين، نابليون بونابرت، الماريشال رومل، وشاوشكو، هو نفسه من اختار لي عنوان ما سأكتبه، قال مثل سمسار مدرب على مساومة الزبائن:

– أقترح أن تكون كلمتك عن وصايا الرئيس بعنوان "أثر وصايا القائد الراقي في ضمير المواطن العراقي"، وأرجو منك شطب المفردات

الثقيلة، ذلك أن الرئيس حفظه الله ورعاه لا يحب الكلمات التي يفرط أصحابها في اللف والدوران والغموض.

لحظتها قلت له وأنا أسخر من نفسي قبل أن استخف بالسيد العميد:

– أنا نفسي لا أحب هذا النوع من البالونات، فهي تبدو على ارتفاع لا يناسب مستوى أنظارنا.

وأمام الورق صرتُ في حالة من الخصومة مع نفسي وضميري، ماذا سأكتب عن هذا البرغوث الذي أصبح ديناصوراً يجثم فوق أعناقنا؟ أي مغامرة أدخل في كوكبها؟ أي طربوش أضعه على رأسي وأمشي به نحو الأتراك الذين رفضوه؟ قطعتُ مسافة سطرين على ورق مزحوم بالشخابيط والخربشات والشطب، ولم أتمكن من كتابة اسمه ولا مرة واحدة، فيكف بي سأكتب عن عصابة سرقت حتى بنكرياس الحلاوة والصبا، ثم أقول عنها (بسبوسة أحلامنا) أو (شجرة بغدادنا)؟ أعرف أن هذا هو المستحيل، لا يمكن وصف العاهرة إلا بالمومس، ولا يمكن وصف الثلوج إلا بكونها بيضاء، أية باروكة آلبسها الليلة حتى أخدع بها بصري وبصيرتي ورأس ضميري؟ عزيز عارف الدوري يريد مني وصف الفأر بقوة الأسد، ويدفعني إلى ساقية آسنة حتى أقول فيها ما يقال عن شلالات نياغارا، ويطلب مني رسم السماء وأنا مربوط بأسفل ما في الأرض من غبار ورمال وإسفلت.

أعرف ألا فائدة من هذا الصراع، ولا عزاء لي غير أن أكتب شيئاً عن الرئيس مهما كانت النتائج، ربما أتخيل شخصاً أو زعيماً أحبه فاكتب عنه وفي آخر شوط من المدائح أحذف اسمه وأضع اسم عزام جبارة في مكان الصديق أو الزعيم الذي أحب.. هي فكرة معقولة على أية حال، لكن كيف أنفذها؟ من أين لي شطب الملائكة حتى أرسم الشياطين وماذا سيجري إذا تركت الغابة نحو الحريق؟ كيف أفسر الفستق والجوز واللز كما أفسر القشور؟ وهل تراني قادرا على ربط الرمان وجوز الهند بالحصى والفضلات؟.

خرابيط، وخلبصة، وجولة مهوسة بين السطور، أريد أن أكتب أي شيء على هذا الورق الذي يشبه سكة الحديد وليس من قطار سيمشي عليه، أقرأ في رزمة من وصايا الرئيس لا رابط بينها غير أسلاك مقطووعة تشير إلى رجل أهبل ينفخ في بوق مشروخ، وهو يدعو الناس إلى التقوى والأمانة والنصر والانعتاق من الشرور، محض عزف منفرد على تقوى لم يقربها أبداً طوال حياته، وأمانة يعلم خلق الله جميعاً كيف فرط بأصحابها ورماهم إلى المذبحة لئلا يجهروا بها، أما النصر الذي بايعنا عليه مثل قحبة لا تريد التوبة، فما بقى منه غير قول كالح يكرره وحده، إذ ما عاد من أحد يهمه أن يسمع أو يقرأ (يا محلى النصر بعون الله) هي أهزوجته المريرة يقولها وهو أعرف الناس بمن خاب يومها ومن انتصر.. أما انعتاقنا من الشرور فتلك هي الطامة الكبرى، ذلك أننا لا نريد من هذا المقامر الأعوج غير يوم أو أسبوع واحد – أسبوع واحد فقط – يستقيم به بلا

شرور ولا قتل ولا اغتصابات ولا كلما ت جوفاء يرميها علينا من شاشة المذابح، ويلصقها كل صباح على صفحات الجرائد مثل البعرور، أقواله لا رابط بينها، كما هي أفعاله التي تحكي شرقاً وشمالاً وجنوباً بينما أرادها غرباً، ويسخر من جيرانه في طهران والكويت على طريقة (أتغدى بك قبل أن تتعشى بي) وصار ظهره على شاشة التليفزيون ضربة البيوت جميعاً.

المهم الآن، ماذا سأكتب حتى لا يزعل مني العميد؟.

قلت لنفسي: على مهلك يا حمد، اقرأ بهدوء، بهدوء أعانك الله، وتذكر أن عزيز عارف الدوري أعطاك الكثير من الحماية وأشترى حريتك في لمح البصر، وما عليك غير ردّ الجميل.

عجيب هو أمري، يدي لا تطاوع ردّ الجميل الذي افترضته سهواً على حياتي ومشاعري، وأصابعي تخلّت عني، الجريمة التي نحن فيها لا تحتاج إلى تفسير أو تبرير، فكيف يمكن الكتابة عن غراب أسود وتقول بأنه طائر الحب؟ هذا ما يفعله الشعراء اليوم من أجل حفنة من الدنانير يطمرون بها إحساسهم بالعار والفجيعة، فهل ارتكب الخيانة مثلهم؟ شعراء يبحثون في المناهل والمعاجم عن الصفات الربانية، يلصقونها بأسوأ طاغية منذ (هولاكو) حتى (شاوشسكو) ثم ينام الشاعر منهم على ضمير ليس فيه سوى فراغ رهيب، والتليفزيون يأتير على قصائدهم ويكررها عشرات المرات حتى توشك ثيابنا أن تتسخ منها، وما يزال نهر المدبح الأهوج يجري على غابة من دم الأبرياء، فكيف ارتكب الجريمة مثلهم؟.

فتحت التليفزيون على فيلم مصري من زمان غابر يقول (الوردة البيضاء) سمعت صوتاً جذلاً أعادني إلى نكهة البرتقال، ورائحة الليمون، وقبل أن أصل الثمالة من قعر الفرح خرج علينا عزام جبارة من الشاشة، وقد أخذ المساحة كلها مع صوت المذيع الذي راح يقرأ واحدة من الوصايا:

– لسانك موقفك، فلا تهنه، ولا تكشر في وعد لا تستطيع الوفاء به أووعيد لا يجد ما يدعمه قي قدرتك.

أظنني صرخت هلعاً، نوبة هجوم على ذاكرتي ونبض قلبي، تذكرتُ رواية قرأتها قبل خمسة أعوام يظهر فيها (الأخ الكبير) وهو في كل جزء وكل شبر من تلك البلاد المحاصرة بالرعب والمطاردات والقمع الذي لا حدود له، يظهر للناس في الكنائس والحارات والحدائق، يأتي إليهم في الحفر والمقابر والبيوت والبارات والمعامل، إنه أمامك في كل مكان، يمنعك من الحب والغناء والشكوى . عليك أن ترضى وتفرح بكل ما يرغمك عليه من بطش وعبودية وضرائب وقرارات وطقوس، أنت لست سوى رقم يمكن شطبه في أية لحظة ولا قيمة لك إلا قيمة رقم سيشطب فوراً إذا قال (كلا).

هكذا طلع القائد فجأة على ظهر التليفزيون، ربطة عنق من باريس علامة (إيف سان لوران) تتوهج على الشاشة، وبدلة رمادية باذخة جاءت من واشنطن لم يمسح عنها علم أمريكا الذي يشع أمام العيون، دماغ

مستورد، ابتسامة معجونة بالخبث رسموها في منزل (مناحم بيغن) أورثوها إليه، وجاءت خفية مع آخر التعليمات التي تقول "الحلاوة أولها مرارة، اطمئن، لا أحد يمكنه اكتشاف عورة القرد سوى أنثاه "وراح عزام يحكي دن كلام ويملأ الشاشة صخباً دون صوت، ثم اختفى بعد نصف ساعة ولم يقل أي شيء، كنت أغلقتُ عليه شبابيك الصدى ورميتُ على رأسه منيدلاً أزرق حتى أمنعه من رؤية اشمئزازي خوف أن يبطش بي من وراء مسامات التليفزيون.

عدتُ إلى الورق المخطّط، عساني أعثر على بداية أمدح فيها القرد الذي رأيت، أو أقول لهذا الأقرع المحظوظ "يا لهذا الشعر الذي يشبه الكنافة والجرجير".. وربما أقول للجسد الفاسد المنخور (يا لهذه الرائحة الزكية).. أي نهار معتم أعيش فيه، أية خسائر تهبط فوقي دون حساب؟ أين راحة البال وأين سلمى وأين أوقات الحب؟ ماذا حب بقافلة الوجد والمحبة وبساتين المشمش والتمر والعنب؟.

لم أستطع كتابة سطر واحد عن (أسطورة القائد المظفر) الذي حارب الدنيا بأسرها (وانتصر عليها)!! الوصايا تحت يدي تضحك من عجزي على تفسيرها وأضحك بدوري من هذه البضاعة الفاسدة.. أفتح القاموس والمنهل وأسواق المعرفة فربما أصل إلى أزرار بائع الهوى، المصارع المخنث الذي أعطى مؤخرته للرفاق الكبار، ربما أصل نحو بداية الدرب التي ستأخذني إلى قلعة الرئيس الحصينة، حتى أكتب عن

أمجاده وتاريخه وملاحمه وبطولاته وانتصاراته وربما اكتشف (العليجة) التي أخرج منها أرنب الساحب فأنقذ نفسي من هذا الصمت الذي غلف خرائبي وغلاف جلدي، وقد أبدأ في الكتابة عن رجل الساعة الذي أمطر الدنيا بمواعظه ونصائحه وصاياه، ما دام الأمر ليس سوى حروف ونقاط وفوارز على ورق أبيض مصيره الحرق أو التلف أو مسح الفضلات!.

هي بيضة الديك، تأتي مرة واحدة، مهما كان هياج مؤخرته ومهما كلف ارتياب الدجاجات فيه، لا نفع من التسلل خلف أعذاري، وأية أعذار سأقولها في حضرة العميد؟ إنها مجرد كلمات، سيقول (كيف وأنت الشاعر لا تشعر بمكانة الرئيس)؟ لهم الحق في ذلك، فما فعله الشعراء أمامهم يعطيهم الإحساس بأن الدنيا كلها تحت نعالهم ما دام الشعر قد جاء إليهم خانعاً ذليلاً ورخيصاً مثل بائعيه، قميص مبلّل بالخوف، عساكر ونشر قوات حولي، أعناق سبق لها أن سقطت في حفرة غموها بالطين والإسمنت لئلا تفوح منها رائحة الضحايا، من أكون أنا حتى أرفض الكتابة عن مولانا وولي نعمتنا؟ ما عليك غير أن تكتب العنوان في أعلى الصحفة "إثر وصايا القائد الراقي في ضمير المواطن العراقي"، ثم تتساقط الخزامى والدرر!.

أفتح عيني جنوباً فلا أرى الجنوب، وأفتحها شمالاً وما من شمال، حزام من الذل والجرذان والقوارض يحوم حول مخيلتي، ذهاب وإياب في خمسة أمتار هي غرفتي، وما من طوق نجاة يحميني من نفسي، غريق

أنا في شبر من الماء، وما من أحد ينقذني، خذلاني يسبقني إلى الرعشة والهلوسة، وما من طيب يهمه أمري، لا حبال تشد هذا الزورق التائه في عرض البحر، حيث لا أمان مطلقاً ما دمنا كما تقل أمي "رضينا بالهم والهم نفسه ما عاد راضياً عنا"!!.

أسماك، سحب وأمطار في عزّ الصيف، وقارورة عطر أشم قعرها وأضرف الدموع، القبرات تئن على مقربة من شباك البيت، كيف جاءت القبرات إلى دارنا؟ الجليد يتناثر في تموز، كيف ومن أين جاء هذا البيضا العنيد؟ أشياء كما السراب تأتي وتذهب، وأنا مثل مدينة محتلة تنتظر من يحررها من القهر والاغتصاب، أصابني مرض لا اسم له، حالة خوف داخل الخوف، أنزوي عن جسدي وعن وصايا عزام جبارة وأمضي مذعوراً نحو مثلث ما بين دولاب الملابس وسدارة أبي التي عافها للذكرى، أضحك مرة وأكاد أبكي مرة، رائحة الباذنجان المحروق تصل أنفي وهي تزاحم طعم الكراث والبصل، وصوت أختي ليلى ينقذني من دخان متاعبي وهي تكرر اسمي الذي أوشكت على نسيانه:

- حمد، يا حمد، الطعام سيبرد يا حمد، تعال بسرعة.

ذهبتُ إلى التكة والكباب والباذنجان مثل مفجوع خرج لتوه من مرض عضال، أتفادى أي بوح مع ليلى إذا ما سألتني عن طول بقائي وعزلتي في غرفتي، لكنها لم تسأل، جاءت بإبريق الشاي المطموس بالهيل ثم صبت الماء البارد في كأس ناعم وجاءت (بالشكردان)

المصبوغ بلون الحنّاء، وهي تهمس مع الملعقة التي تحركها بين امواج الشاي الساخن:

- لا أريد أن أسأل عما حدث لك، أنا أختك الوحيدة يا حمد، وعندي إحساس ينبؤني أن شيئاً ما ليس على ما يرام!.

قلت لها فوراً وربما دون تفكير:

- الحياة نفسها يا حبيبتي ليست على ما يرام، لا شيء على ما يرام يا ليلى.

قالت وهي تمسح أصابعها من بقايا حبّات الرز التي علقت بها:

- ما زلت في عمر مبكر يا حمد حتى أسمع منك كلاماً كهذا، حتى أنك لم تصل الثلاثين بعد.. فماذا جرى؟.

قلت لها وأنا أنظر إلى سقف البيت المزدان بالثريا:

- أنا نفسي لا أعرف ما بي، أشعر أن الدنيا تمشي عكس ما أريد كأنني على غير اتفاق معها.

راحت تكرر:

حتى أنك لم تصل الثلاثين يا حمد، من يصدق ذلك؟!

في تلك الساعة ربما تذكرتُ عمري، شارب خفيف ولحية مزوّرة وقصائد لم تعثر على طريقها، وامرأة غادرتني دون شوشرة أو غضب أوانفعال، أسكن في صباحات معتمة وتحت سطوح مزحومة بليل مضيء،

سياج من العزلة أنسجة حولي مع أنني ما زلتُ على أطراف المحنة وليس من شيء أو أحد يحاربني غير مجسّاتي!.

عدتُ إلى غرفتي الفقيرة، وفجأة، رحت أكتب عن وصايا الرئيس، طمعاً في ماذا؟ لا أدري، لكن عزيز عارف الدوري ينتظر، أسمع صدى قلمي وهو يسير على الصحفات، زهرة أينعت فوق صخرة صلدة، اليوكالبتوس ينمو في حفرة عميقة، ماذا جرى؟ لست أدري، حلّت رائحة الخوخ التي أحبها وحطت على مسامات جلدي، يسبقها طعم الأناناس والعسلية، هكذا مرة واحدة، مثل بطة كسولة صارت صقراً، أين الصواب فيما أفعل، وكم هو حجم الخطايا، لم أسأل، رحت أكتب عن ولع ومتعة، أقطف المعاني من ذاكرة فتحت أبوابها وليس من حزام يمسكها أو يردع رقصها، في قرية الكلمات، أراقب نفسي بصمت وأحكي مع المفردات بصمت، ثم أكتب الحروف بهدوء وأفكر في ردّ الجميل بسرعة، لئلا يلتصق بي بمرور الوقت ويغدو أثقل مما أعانيه الآن، فورة مهووس مخبول، ريشة رسام ماهر يخط الحروف بلهفة وشوق عارم، ها هو الرئيس يخبرني وجهاً لوجه ويقول: "لا تجعل ماضيك كل ما تستند إليه كمصدر لقدرتك وتأثير فعلك، وكن حيوياً ومؤثراً وسط الحاضر، في الوقت الذي تمتد ببصرك وطموح فكرتك إلى المستقبل كله!".

وبرغم أن هذه الوصية لا تختلف كثيراً عن أغنية "السح الد إمبو"، إلا أنني رحت إلى الوصايا جميعها أحكي عنها وأتلو كلماتي مثل نشيد

حفظته عن ظهر قلب في طفولتي، حذفتُ خلافاتي ورميتُ بأقفالي إلى النهر، ولم يبق من شيء أفعله غير كتابة ذاك النشيد الذي جاءني في (زنبيل) الصبا، يشحن غيرتي مرة ثم أقوم بشحنه مرة، وعند الواحدة بعد منتصف الليل رميت بجسدي على فراش شاسع مثل بستان، مغلف بالراحة والدهشة والفرح، كان الشرشف يتموج تحتي، ثملاً مثلي، ما دمت قد انتهيت من ردّ ذاك الجميل!.

الفصل السادس

نظام السجون

عنـد الواحـدة صـحوتُ علـى بكـاء يـشبه النحيـب، أسـمع صـوت شـخاذ يولـول قـرب نافـذتي "مـن مـال الله والـصخي حبيـب الله"، لا أدري مـن أيـن يجـيء البكـاء، خرجـتُ مـن الغرفة، ونزلت السلالم أبحث عمن يذرف الدموع، لم يكـن من أحد يبكي غير المذياع وهو يقص حكاية عتيقة عن أيام عنترة بن شداد، لا أعلم سرّ من راح سنحب فيها، الحال يبـدو مرتبكـاً فـي إذاعـة بغـداد، ثمـة شـيء حـدث، أناشـيد وطنية يقطعها مشهد من تمثيلية رديئة في إخراجها عن حياة عـزام جبـارة، ثـم كومـة مـن المـواعظ وشـعارات عفـى عليهـا الزمان، يبدو أن ليلى مضت إلى السوق ولم تغلق أوتخفف ذاك الـصوت الـذي اجتـاحني فـي أحلـى سـاعات نـومي، لكنني قبل أن أغلق الراديو جاءني من يقول فيه:

– نسترعي انتباه المواطن الكريم إلى أننا سنذيع بعد قليل خبراً عاجلاً على جانب كبير من الأهمية والخطورة، كونوا معنا.

لذلك أيقنت الصوت على حاله حتى يتسنّى لي إدراك ما جرى، غادرني النوم، غسلتُ وجهي بماء بارد، رحت أسأل نفسي عما سيقال بعد قليل، وأي خبر يمكنه أن يوصف بالخطورة في زمن محشو بالدعارة والشائعات وتصفية الشرفاء؟ أحس ثقباً في جلدي يتمنّى لو مات الرئيس أو أصابه عجز في القلب، أراهن نفسي على هبة من السماء قد تنزل من أجل اليتامى والمحجورين في دهاليز القتل، ثم أخجل من نفسي حين أعود إلى ما كتبته عن وصايا هولاكو ردّ الجميل، ثم أسكت وأنتظر الصوت الذي سيقص الحكاية بعد قليل، ومهما يكن من أمر أو بلوى، أشعر بحاجة إلى شيء يثيرني ويحرك أيامي حتى إذا جاء على الضد من رغباتي وعلى النقيض من أمنياتي، الحال الجامد يوجعني ويجعلني في حالة من البلادة والموت البطيء؟.

بعد نصف ساعة، قال المذيع بصوت باهت متملق: "إن مجمموعة من الكلاب المسعورة والمرضى حاولت نهش بعض كبار المسؤولين في الدولة، لكنها ستلقى مصيرها الذي تستحق بعد محاكمة عادلة حتى نكشف بعدها خيوط الجريمة التي اقترفوها بحق الشعب، وربما كانت هناك شبكة من أعداء الثورة (ثورتكم أنتم أيها النشامى) تخطط للنيل من مكتسباتها، وليطمئن المواطن الصالح الشريف إلى أن الخير سيدحض الباطل والشر مهما تحالف الأعداء مع الشيطان من وراء الحدود.

ثم قال: انتظرونا بعد قليل مع مزيد من الأخبار.

أعرف أن ما كنت أسمعه ليس سوى كذب وتلفيق، محض استهلاك وامتصاص نقمة، خطة أخرى في طريق الخداع، إذ ليس من محكمة عادلة حتى نعرف الحقائق عن طريقها، لا توجد محكمة أصلاً يطمئن المواطن إلى ميزانها، فهذا البلد المحكوم بالشبهات ودعارة الساسة لا ملفات له حتى نعود إليها في وقت الشك، كم هو معيب أن نرى العراق بلا قضاة ولا محاكم ولا قوانين، لا رصيد لنا في خزانة المحاماة، وما من أحد يمكنه الدفاع عن الأبرياء، كلنا في علبة مغلقة تحمل ماركة الخوف والمهانة والجزع، صندوق كبير من الأخطاء يوشك أن ينفجر، لكن حكومة عزام جبارة تجلس فوقه بكل ثقلها ومؤخرتها، عساها تتمكن من حفظ أسرارها وجرائمها داخل البلاد!.

عاد صوت المذيع يشرح الموقف وهو يدور في فلك الرقابة التي لا ترحم، ربما كان يمسك لسانه ذعراً لئلا ينزلق إلى خطأ في التعبير المكتوب سلفاً:

– سيداتي سادتي، جاءنا تواً، حاول بعض الجناة من ضعاف النفوس، من أقزام وأصنام وناقمين، إعادة البلاد نحو الوراء وذلك حين حاول هؤلاء المتآمرون من باعة الضمير مسك زمام أمور الدولة عن طريق المذابح، وهتك الأعراض واغتيال الشخصيات الوطنية، وقد تمكن رجالكم النشامى من قوات الأمن والحرس الخاص من القبض على ثلاثة منهم، بينما هرب الآخرون إلى جهة نعرفها وراء حدود العراق من جهة الشرق،

نحن بهذا نحذر كل من يأويهم ونخبرهم رسمياً بأن العقاب سينالهم في أقرب فرصة سائحة إذا لم يتم تسليم الجناة القتلة في أقرب وقت وفي المكان الذي يقترحون، ولا نجاة لمجرم من غضب العشب، وليخسأ الخاسئون، وما النصر إلا من عند الله.

جناة، وكلاب مسعورة، واغتيال شخصيات وطنية، وقوات الأمن والحرس الخاص؟ يبدو أن البركان قد تشظى أخيراً وربما تصل الجمرات إلى من تهمه النار؟!.

سكت البيت كله، بينما بقى الراديو يزعق بالأغاني الوطنية البلهاء، دخلتُ على أمي، تغطّ في غيبوبتها منذ عصور، لم أعد أسمع أو أرى أي شيء، ذلك أن برمجة الكهرباء المقطوع كانت قد بدأت، مددت أصابعي أمامي ومشيت إلى غرفتي، شباك مفتوح على حديقة لا شيء فيها سوى شجيرة رمان توشك أن تذبل وتموت.. ماذا حدث؟ في أي جُب تحاك سياسة هذا البلد الذي صار مثل حقيبة تؤرجحها عاهرة؟ ألا تحتاج هذه المومس إلى مشورة (قوادة) تفتح أمامها الطريق إلى الصواب والغني والزبائن؟ حياة أمرها عجيب، سرطان يسري في الدم، محرمات وممنوعات لا أول لها وما من آخر لمسراها، طاعون يمشي في الشوارع والممرات يحصد كل ما يراه من أحياء، مزروعة من الحثالة والحمقى، غزوات لا ندري من يموت فيها ورقاب مشاعة لمقصلة الرئيس، أجساد تمضي إلى المشانق لا تعني أي شيء في عرف القائد سوى أنها كرزات

لتسلية السيد قراقوش، مجرد حفلة وأزياء ونساء وعبيد، مناجم اللذة بالنسبة لعزام جبارة أن يرى صفوف الرافضين وهم يذبحون على بعد متر أو مترين من عرشه المكين، أما الجماجم فهي لا تستحق أن تكون غير منافض لرماد سجائره، هو نفسه قال ذات يوم إن أجمل بيت شعر قرأه في حياته:

وطنٌ تشيده الجماجم والدم تنهدم الدنيا ولا يتم!

أفكر في هذا الرجل المملوء بالغدر والأحقاد، كيف يمكن أن يبتسم أمام الشعب هكذا وهو يخفي كل هذه الوحشية في رأسه؟ أتأمل ما نحن فيه بصمت موجع وأنا أرى الحمام يطير في سماء بغداد، ألا يرى عزام جبارة ما نراه من طيور وزنابق ونخيل؟ صارت ساقية الدم محض نزهة مولع بها سيدنا وولي أمرنا، حاد إنه لا يضحك أبداً إذا لم يغطس فيها ويرى بنفسه أنها كافية للعوم ذهاباً وإياباً وعمقاً!.

رميتُ فرشاة أسناني في سلّة المهملات، مضت عليها ثلاث سنوات حتى صارت مثل عقصة شعر مجعّد، كم أهملتُ نفسي طوال ما فات من همومي، أحتاج إلى ضربة جزاء نحو الهدف الذي أخطأته عشرات المرات حتى أفهم حقيقة هذا النظام الذي يحكمنا بالنار والوجاهة والتضليل والغرف الانفرادية والموت البطيء، لكن أختي ليلى ثلمت خيالاتي وأمنياتي حين عادت من السوق وهي توشك أن تسقط أرضاً، أي قلب نزق عابث كفّ عن النبض والحياء وأنا اقترب منها

عساني أفهم أسباب جرحها الدفين الذي أينع في صالة البيت؟ قلت لها: ماذا يا ليلى؟ ماذا بكِ يا أختي؟

ومن وراء كثافة رعبها سمعتها تهمس وهي تحدق بي:

– عزيز عارف الدوري، أخذوه.

كانت الرأس التي أحملها قد ولّت نحو كهف بعيد، أكاد لا أسمع ما يقال وراء ذاك الكهف المعتم، عزيز؟ عزيز على من؟ عارف؟ عارف بماذا وكيف؟ الدوري؟ على أي شيء يدور ومن هم الذين أداروه. أخذوه؟! ثم ماذا يا ليلى؟ أخذوه إلى أين ومتى وكيف ولماذا؟ إنه واحد من أبرز رجال السلطة، فمن هم الذين أخذوه؟ لا مذاق لهذا الورم الذي أصاب الكبد، استوى على كل شيء في لحظة مجنونة مشوهة من المساء المعتم الذي لا نور فيه وما من زينة عليه، ظنون تأخذني إلى خوف عارم أحاط بي، خادم رخيص أرادني ذاك العزيز العارف بأسرارهم، أكتب له ما يشاء في مدح قائده المعظّم، ها هي أختي تقول إنهم "أخذوه" وأكاد لا أفهم سرّ المعنى.. أخذوه من أين إلى أين؟ أخذوه كيف ومن أجل ماذا؟ هو أكثر الناس تملقاً للرئيس وتعلقاً به، تشهد بذك صورة مصارع الثيران التي غطّت جدار بيتنا، وتشهد بذلك المقالة التي دبجتها عن إثر وصايا القائد الراقي في ضمير المواطن العراقي، فهل استيقظ الثعلب الذي فيه وأراد أن يأخذ حصة الأسد؟ هل حان الوقت الذي تستبدل فيه الأدوار؟!.

ثم اقتربت ليلى من أسواري وأسئلتي، حيوان اللاما يغازل هذا الجحش الواقف دون حراك، مقسوم إلى نصفين، نصف يرى ويسمع، ونصف ينتظر، إذا بها تقول:

– أما سمعت البيان الذي أذاعته الحكومة؟ أنا سمعته في الطريق إلى السوق واتصلت بابنتي، لم تستطع الكلام في التليفون، قالت: "أخذوه"، ولم تقل بعدها أي شيء، "أخذوه" وكفى!.

قلت في ذات نفسي (نعم، لا أحد يسلم من مخالبهم) لكنها لم تسمع صوتي، ثم حطّت بثقلها فوق لحمي دون أن تقترب مني، راحت تحكي نبوءاتها بذعر أنثوي لم أفهم منها غير (عدنا إلى الصفر تماماً) ومفردات عجيبة غريبة لا رابط بينها بالنسبة لي، تتناثر ذات الشمال وذات اليمين لم أتمكن من حصرها في نخاعي، أتذكر رعشتها وهي تحرك رأسها صوب السماء، أسمعها تقول: مسلوب، مفقود، مأخوذ، موعود، تفتيش، عزل، مآرب، وحوش، ولم أعد أربط المعنى بما راح من جنونها ورعشة يديها، قلت لها:

– يا ليلى، يا أختي، يا حبيبتي، بهدوء حتى أفهم.

– أنت لا تريد أن تفهم يا حمد، أنت لا تريد أن ترى ما نحن فيه يا حمد.

قلت وأنا أنظر إلى صورة عزام جبارة التي سرقت حائط البيت منّا:

– أنا لا أريد منك سوى القليل من السيطرة على أعصابك حتى أكون معكِ على الخط.

إذ بها تقول بكثير من الغضب:

- ألا تسمع ما يقال في الإذاعة؟ عزيز عارف الدوري أراد قتل الرئيس، أو هذا ما يقال (عنهم)!.

ثم عادت الكهرباء، وفتحتُ التليفزيون، أحاول نسيان كل شيء، النيازك والشهب، الأحذية والوصايا، الوادي الفسيح والجواد الخاسر، لكن ليلى لم تمهلني أبداً، بل عادت تصرخ:

ألا تريد أن تفهم ما حلّ بنا يا حمد؟

كلا، لا أريد أن أكتشف الويلات والبراكين، ظافر أم خاسر، لا يهم، سأقول بيني وبين مصعمي (بأسهم بينهم).. لهم الزمرد والنقط والغرف الحمراء، لهم الأسفار والنساء وصالات المتعة والقمار، لهم كل ما يتمنّى البشر، وليس لي غير قوطية لحم وحذاء عتيق، ونجوى مع الروح، يكفيني (شيف) بطيخة في الصيف الحارق ودورق ماء ودشداشة بيضاء ترحمني من البعوض، لا أريد يا أختي أن أفهم حقيقة ما ذهبنا إليه، والحمد لله ألا أحد يدري بما كتبتُ عن فارع الطول الذي كَشط المحبة والبراءة عن حياتنا.. لا أحد يعلم بآثار وصايا القائد الراقي في ضمير المواطن العراقي التي أراداه عزيز عارف الدوري جلد حماية من القتل، لكنهم سبقوه.

أصابني شيء من الرعاش والخبل وأنا أسمع لهاث أختي ليلى، حالة جزع لم أرها من قبل في ملامح إنسان، كأن القيامة قامت وانتهى كل شيء، مناديل ورق مبلّلة بدموعها، قلادة من الذهب رمتها على أرض

غرفتها بعد أن ثلمت رأسها، مأخوذ ومسحوق تحت سطوة رعبها الذي لا حدود له، لم أجد من سلوى في التليفزيون بعد انقطاع الكهرباء الذي دام أربع ساعات غير فيلم عربي اسمه (صراع في الوادي) تركته في جعبة الفيديو حتى أتخلص من بعض همومي ومن خطابات المذيع وتعليقات المسؤولين (القشامر) الذين يكيلون الصفات الربّانية على قائدهم المحفوظ بالله، إذا بي أزداد هلعاً وأنا أسمع ليلى تصرخ بي، وهذه المرة كان صراخها قبيحاً موجعاً:

– ألا تخاف الله يا حمد؟ أنا لا أصدق ما أراه منك يا ابن أمي، أقول لك إن الدنيا تشتعل ونحن في طريقنا إلى الموت وأنت تجلس مثل شحاذ يتوسل رحمة الناس دون أن تفكر أبداً بما جرى!؟ أريدك أن تشعر بما نحن فيه.

ربما كنت ذاك الشحاذ الأشعث الذي يريد النجاة من الإفلاس والفاقة والجوع، وماذا سأفعل غير ذلك وأنا دون حماية وبلا خبرة مثل رجل أكتع يريد رسم الحياة على هواه؟ أيقنتُ أن ليلى فقدت صوابها، عاصفة هوجاء دون معنى، تكرر عتابها كما الببغاء، قلت بصوت تسكنه الملوحة والخجل:

– وماذا ينبغي على أن أفعل؟ إذا كان عميدنا قائد فرقة المشاة الثامنة قد أخذوه، ماذا سأفعل يا ليلى وأنا لم أكن غير جندي نحيف بائس، بل مجرد رقم بالنسبة لهم بين كومة أرقام يرمونها إلى النار في أي وقت يرغبون؟

قالت ليلى وقد خفّ نهرها عن الجريان:

- تذكرّ أنك وحدك الذي ما يزال في قارب النجاة، وتذكر أن عذراء هي زوجة هذا الرجل الذي أخذوه.

صرخت بها دون إرادتي:

- أنا لا شأن لي بما فعلتم.. خبطة البيع والشراء التي تسمونها الزواج لا شأن لي بها.. أنا لا شأن لي بما فعلتم، مفهوم؟

أسمع الصدى يكرر (أنا لا شأن لي) في خطوبتها ولا شأن لي بطلاقها، ثم تسقط الرمال على إغراءات عزيز عارف الدوري وعلى كل قيراط من الذهب كان يرميه تحت أقدامنا، استغفال وبذخ وضغط واجتياح لكل شبر في إنسانيتنا، وما من فتحة نخرج منها صوب هواء نقي نظيف، أغلق فمي وأفتحه على كلام يشبه الشتائم، لا أدري ماذا جرى، لكنني أسقط أرضاً وأرى في سسقوطي شبحاً يشبه أختي ليلى وهو يبكي على شخص اسمه حمد الصالح!.

سميك جداً هذا الجدار المزدان بالعطور والشمعدانات، الجدار الداكن المكشوف مثل لوحة رسمها مخبول يوهمنا بها أن (كل شيء على ما يرام)، وما من شيء على ما يرام منذ غزو الكويت والحياة صارت محض قنوات من الجياع والعراة والمهاجرين، موسوعة من بلح مذبوح وبرد ينزف الدماء وزمزمية جفّ كل ما فيها من ماء زمزم والفرات، مناطق (الترفك لايت) صارت تؤجر لباعة الجرائد من الشيوخ والأطفال، وها

هي الصحف العالمية تحكي القصة نفسها وتقول إن ٤٥ بالمائة من تلاميذ العراق تركوا المدارس في طريقهم للبحث عن لقمة العيش، بينما الأغاني والتليفزيون وكتاب التقارير يرقصون على نغمة واحدة يكررون فيها: هلهولة للبعث الصامد!.

أخفيتُ نفسي تحت حلم مشحون بالغرائب، خيام تسكنها دون ماء وبلا كهرباء، منطاد أبيض مرقّط بالأحمر القاني يجرجرني من بغداد إلى أرجاء الدنيا ويرفض أن يعد بي، مسكون برعشة لا تفارقني، أصلع الرأس والعقارب تمشي على فراغ يشبه رأسي، مقصوم ظهري إلى نصفين، ومن خلف ثنيات لحمي ثمة من يحرقني ويقول: ألا تريد أن تفهم أن الدنيا تغيرت؟ ليس هذا ما كان عليه الحال أيام نوري السعيد، ولا أيام عبد الكريم قاسم، غادرتنا القوانين والتسامحات والرحمة والمحبة والأخوة والصدق والأمانة والشرف، جاءنا عزام جبارة بأخلاقه وانحرافاته وجرائمه وحروبه وأحرق البلاد والعباد معاً.

لخبطة، وخراب، وكوابيس، رجل ملثم يوقظني من نومي، لكنني أرفض صحى، سحرة من طراز محترم، أشم رائحة الفجل والطماطة من مساماتهم، وأنا في حلبة ملاكمة معهم لا أريد أن يوقظني أحد منهم، لكن الشمس وحدها من أرغمني على الرجوع صوب فواجعي.

صحوتُ على حقيقة مرعبة، هو أننا شركاء في جريمة العميد عزيز عارف الدوري، شئنا أم رفضنا، وقبل أن أفكر في بقية المحنة سمعنا

طرقاً على باب البيت، هل جاءت فرق الموت؟ لكن الطرق خفيف وهم يطرقون بقوة حتى توشك أن تتبول ذعراً من شدة الطرق، مشيت نحو الباب مثل عصفور مبلل الريش، إذا بي أمام خمسة رجال، رأس واحد منهم يشبه القرنابيط المطبوخ، هو الذي قال:

- تفضل معنا يا حمد.

يا لهذه الكلمة المخيفة، التي توحي بالطيبة والنزاهة (تفضّل) كم سمعنا عنها، وكم هي موجعة ومربكة، وكم أزهقت من أرواح على مدى السنين، ليلى كانت خلفي، أصابعها هلع هستيري، شعرتُ أنها ستضرب رأس أي واحد منهم، قالت لهم: إلى أين تأخذونه؟ وما شأنه بما جرى؟.

قال لها رأس القرنابيط وهو يبتسم مثل قحبة عجوز حصلت أخيراً على زبون وسيم:

- كلها ساعة واحدة ويرجع لكم بالسلامة، عندنا بعض الأسئلة والاستفسارات، كوني مطمئنة، سأعيده بنفسي.

أنا من يحتاج إلى الطمأنينة، أعرف أيّ عقاب ينتظر عائلتي على ذنب لم يقترفه أي واحد منّا، نظرت إلى بقية الرجال (واحد أبله يمسك شيئاً خلف ظهره، ربما يتعمد البلاهة، والثاني يعبق برائحة الرفاه ويبتسم معنا كأننا سنذهب في نزهة إلى البحر، إنه يوحب بطيبة لا أظنه يملك شيئاً منها، أما الثالث فهو دون ملامح كأن لا وجه له، لا تدري ما إذا كان عبيطاً جداً أم حويطاً يخادعنا، إذ لا يمكن اكشاف ما بحوزته من

حقد أو محبة، بينما وقف الرابع على بعد مترين يتلصص على بقية البيوت وعلى جميع المارة، وهو يسعل بصوت مقرف يشوش بسعاله على ما نقوله لئلا يسمعنا أحد ويعرف ما يدور من كلام بيننا... قلت لهم:

- هل سأذهب معكم هكذا بدشداشتي أم تسمحون لي بارتداء ملابس أفضل؟

قال رأس القرنابيط وهو يلتفت نحو رجاله:

- كما تريد، نحن بانتظارك، تفضّل، إنها ساعة واحدة وربما أقلّ من ذلك، وسوف ترجع بأمان الله.

قال الثاني وهو ما يزال في حالة انتشاء أمام بحر لا نراه:

- تفضّل يا حمد.

هل ثمة من راح (معهم) وعاد فعلاً؟ ماذا يمكن أن أفعل غير الذهاب إلى مصيري؟ تتلاطم أمواج قلبي، شيء ما يحترق في جسدي، وأختي ليلى تكاد أن تسقط ذعراً، لكنها تمكنت من احتواء وعيها وراحت تسأل:

- إلى أين ستأخذونه؟ هو لا شأن له بأحد، حتى أنه لم يكن في بغداد، كان قد سافر منذ وقت طويل، وإذا كانت لديكم أسئلة إلا يمكنكم طرحها عليه داخل البيت؟.

سأكون في غرفتي حتى لا أسمع أي شيء تفضّلوا.. البيت بيتكم.

ضحك الثالث بدون ملامح أيضاً، ضحكة تشبه شفط الماء من بئر سحيث، ثم سكت فوراً حين التفت إليه رأس القرنابيط، بينما تبرع الثاني بالقول وهو يبتسم دون تهكم:

–كوني مطمئنة سيدتي، المسألة وما فيها ليست أكثر من سؤال وجواب، ونحن لا نسأل المواطن في بيته كما تعلمين، البيوت لها حرمة ونحن نقدسها، ثم أن أخاكِ لم يفعل ما يستحق الخوف عليه، إنه مواطن صالح وشريف ونحن نحترم المواطن الشريف الصالح.

في ملاعب السياسة لا تعرف الحق من الباطل، (نحن لا نسأل المواطن في بيته) ها هم يلتفّون حولي وأنا أصعد معهم إلى سيارة (شوفرليت)، هم بأنفسهم يفتحون بابها حتى أجلس بين اثنين منهم (إنه مواطن صالح وشريف، ونحن نحترم المواطن الشريف الصالح) نظرتُ من وراء الزجاج إلى أختي، رأيت الدموع تنزل على أصابعها وهي تحرك يدها تحية وربما وداعاً لهذا المسكين الذي أخذوه نحو المجهول، كيف تنهمر الدموع هكذا من البشر؟.

فجأة، غطوا رأسي بكيس أسود مع لطمة خفيفة ربما جاءت سهواً على جبيني، ولم أعد أرى أيّ شيء، أسمع أحدهم يقول:

– سيدي هل نذهب مباشرة إلى بيت الغزال أم نتسلى قليلاً، ونمضي به إلى الحمار الوحشي؟.

لكن الثاني – ويبدو أنه رأس القرنابيط – يقول بصوت غاضب:

– ستبقى أحمق طوال حياتك، منذ متى نأخذ أمثاله إلى هناك؟ وكم مرة طلبتُ منكَ أن تغلق فمك الكبير هذا عندما نأخذ الزبائن!؟.

نقطع الطريق بسرعة، لا أدري أين أصبحنا ومن أيّ درب خرجنا، أسمع صوت شاحنة مع انعطافة خاطفة نحو اليمين، وأنا ساكت دون حراك، مومياء لا شهيق لها سلبوها حتى حقها في موت هادئ وقبر يرحم عظامها من التفكيك، وبعد نصف ساعة، أو هذا ما ظننت، وقف السائق بنا في مكان شممتُ فيه رائحة سبانخ وشيء محروق، ثم صوت باب فولاذي يفتح، تحركت الشوفرليت ببطء مريب ثم وقفت ثانية، حيث لا أصوات ولا زقزقة عصافير وما من صدى لكلام أو نقيق، لا شيء سوى رائحة السبانخ تحتسو أنفي وفمي، أسمع صوت أبواب السيارة ترتطم باباً إثر باب، نزل منها الرجال الخمسة وبقيت وحدي لا أدري ماذا أفعل!؟ تطنّ في رأسي كلمه (زبائن) التي قالها رأس القرنابيط، كأنني عند حلاق أو بائع خضراوات أو جالس في مقهى الطرف أشرب الشاي وأرى بقية (الزبائن)!.

كم من الوقت بقيت هكذا وأنا مربوط بكيس أسود قاتم لا أرى من خلاله أي شيء؟ لست أدري.. لكنني سمعت من يقول:

أيّ حمار أخبركم بهذا الأمر؟.

وبعد (الحمار) لم أسمع غير صدى رياح عصفت هناك بينهم، هسيس، همسات، لعنات، ربما صوت لطمة على الرأس، بين لحظة

وأخرى تأتي شظايا كلمات مقززة وشتائم، وأنا لم أزل في داخل السيارة أخاف رفع الكيس عن رأسي، يرعبني ما سمعته على مسافة أمتار بعيدة:

– أنتَ لست سوى (قندرة) عتيقة لم يعد من أحد يلبسها، لعنة الله عليك وعلى أجدادك حتى الظهر السابع.

ثم صفعة يصل مداها إلى مسافة أبعد مني، رجفة لا تفارقني أبداً، ورعشة ذل غدوت فأراً تحت سطوتها، ماذا يجري هناك بينهم، وإلى متى سأبقي هنا دون سؤال ولا حراك؟ أية كارفة حلّت بين غضاريفي وأيّ مصير يحاك لي؟ هي تراني في بيت الغزال أم عند الحمار الوحشي؟ أيّ غزال هذا وأيّ حمار أخذوني إليه؟ مشلول جسدي مثل طفلة اغتصبوها ورموها على الرصيف وما من شفيع لها، أثرثر مع نفسي، أحاول طمس ذعري وإخفاء رعشتي، أقول: لكل كائن على هذه الأرض نسبة من السنوات لا يمكن أن تزداد يوماً، أما الكائن الذي يحكم حياتنا فلا بد أن ينقرض وينتهي عن وجه الأرض، كما انقرضت الديناصورات وبعض الزواحف البغيضة، هذا شيء أكيد.

ما بين خوف عارم وذل أكيد، رجع أحدهم وراح يسحبني من يدي، ثم قال بعد أن وقفنا في مكان بارد: "لا تتحرك".

أسمع ما يشبه الشخير مرة، ثم أشمّ رائحة السبانخ وهي تزداد قوة، هناك ماكنة ثرم وصوت خنازير، بدأت أسمع، تهيأ لي تحت هذا

الكيس المعتم أنهم سيقطعون رأسي، كل شيء ممكن في هذا البلد (الخربان).. إذا بي أدخل غرفة رماني إليها من يقول بعد أن أغلق بابها:

- "يمكنك أن تنزع الكيس عن رأسك".

رأيت نفسي بين أربعة حيطان لا منافذ فيها، قبو مهمل أشبه ما يكن بزريبة بقر، وبعد وقت ليس بالقصير رأيت طعاماً يأتيني من تحت الباب وصوت رخو يقول:

- "إذا كنت تريد الذهاب إلى الحمام أطرق الباب مرتين، وعندما تسمع الرقم ٢١٤ فهذا هو رقمك، لا نريد أن نسمع صوتك مهما كان السبب، مفهوم"؟

ولم أعد أسمع أي شيء، مكان أخرس، جلست أرضاً ورحت ألوك الخبز وقد تلاشى بعض خوفي دونما سبب، ماذا يحدث أكثر من كونك في مكان قذر كهذا؟ لم يكن طعامي طوال اليوم غير قليل من الرز، ونصف رغيف وكأس ماء وثلاث حبّات من زيتون يشبه البلح قبل نضوجه، ومرقة سبانخ لا طعم فيها.

بعد ما يقرب من ساعتين، وبرغم الصمت الرهيب الذي يلفّ المكان، بدأتُ أسمع، لا شيء سوى أنين خافت يأتي من يساري، حتى أنني تمكنت من التقاط مفردة واحدة (يارب) تكررت عشرات المرات، ورحت أنطقها أيضاً دون صوت.. تركت يدي تحت رأسي، أفكر فيما جرى.

– نحن نحترم المواطن الصالح، المسألة وما فيها ليست أكثر من سؤال، نحن لا نسأل المواطن في بيته.. سأعيده بنفسي، كوني مطمئنة.

ولكن يمر الوقت بطيئاً خانقاً، وما من أحد جاء ليسألني، ها أنا مثل دجاجة في قفص، محجوز في زاوية من الدنيا وما من (بشريّ) معي سوى أنين يكزبر جلدي ويردد: يا رب، وما سمعه أحد.

ترى في أيّ جزء من خارطة بغداد، المكان الذي رموني إليه؟ أعرف الشوارع والحارات والأزقة والرابين كلها، منذ طفولتي وأنا أمشي بين الشناشيل وباعة الطرشي وحمامات السوق، منذ أيام الصبا ونحن نقطع الفروع والشعاب والسواقي، وما عثرنا على بقعة كهذه التي أنام فيها اليوم، فأين تراهم أخذوني وأيّ حجر تركوني فيه؟ شيء يلفّ ذاكرتي ويبطحني أرضاً وأنا ما زلت أفكر في المكان الذي جرجروني إليه، الخوف صار على هيئة لحية شوارب وشعر كثيف، أيّ منعطف من بغداد أجلس فيه وأرى لحية الرعب وهي تنمو حولي؟ ليس من قمر ولا شمس ولا سماء ولا طيور ولا أيّ صوت، لا شيء هنا غير الانتظار والهلع!.

والحمد لله أنهم أخرجوني من تلك الزريبة عند منتصف الليل قبل أن يشتطّ خاطري أو يتشظّى نحاعي، أخذوني إلى رجل يشبه الفيل لا يكف عن رمي السؤالات على وجهي كأنه يبصق ما بين عيني:

ماذا تعرف عن العميد عزيز عارف الدوري؟

وقتها لم أكن داخل الكيس، لهذا شعرتُ بشيء من الراحة وأنا أقول:

– عزيز تزوّج ابنة أختي ولا أعرف عنه سوى أنه عميد في الجيس وقائد فرقة المشاة الثامنة، قبل ذلك لم أكن أعرفه لكنني أسمع اسمه..

– ماذا تعني بأنك ما كنت تعرفه؟ هل يوجد عراقي من الشمال إلى الجنوب لا يدري من يكون عزيز عارف الدوري؟.

لم أنطق بشيء، إذا به يقول:

"طيّب، وماذا أيضاً؟ تكلم، قل أيّ شيء تعرفه بعد زواجه من ابنة أختك".

لم أستطع النظر إلى الرجل الفيل، لكني قلت له:

والله العظيم لا أعرف عنه سوى ما أخبرتكم به، ثم إنه لا يأتي إلينا في دارنا الفقيرة في (قنبر علي) ونحن بصراحة نخاف الذهاب إلى قصره إلا بموعد متفق عليه.

لماذا وقد فارقني بعض خوفي:

– هو شخص معروف ومهم ومن رجال الجيش الكبار، ونحن عائلة على قد الحال، وزيارته تحتاج إلى شيء من الشجاعة.

كان الفيل الذي يسألني قد خلع حذاءه وراح يبحث عن (نعال) خفيف رأيته مركوناً تحت طاولته، ثمة رجل يقف خلفي أظنّه نفسه الذي كان يسعل قرب دارنا.

وبعد أن استرخى، عاد الرجل يحدق بي وهو يتحرك هذه المرة مثل دبّ عجوز:

ماذا فعلت في دمشق؟ إلى من أرسلك العميد؟

وجدتُ نفسي داخل مركب لا شراع له، وأنا أقول مستغرباً أن تكون المعلومات خاطئة هكذا:

- لم أذهب إلى سوريا، بل كنت في عمّان، يمكنكم رؤية جواز السفر، سافرتُ إلى عمّان.. وعدتُ منها قبل أيام قليلة.

رأيت بعوضة على الجدار قرب الرجل الفيل، كم تمنيت أن أضربها لئلا تحتك بي، جلدي لا يحتمل لسعاً.

البعوض، إذا بالرجل يسبقني إلى قتلها وهو يقول:

- بعض الناس مثل البعوض، بحاجة إلى القتل فوراً، حشرات لا نفع منها أبداً.

هل كان يعني بكلامه (عزيز عارف الدوري)، أم تراه يشير إلى سواه، وماذا لو كنت أنا البعوضة التي يريد سحقها وشطبها من الوجود؟ هل ثمة ما هو أسهل من سحقي هنا؟ لا سفينة أبحر فيها إلى شاطئ النجاة غير الصمت، والصمت يزعجهم، فالزبون الجيد هو الذي يتكلم أكثر مما يطلبون منه.

لماذا ذهبت إلى عمّان؟

ملفعٌ بالخوف أقول وأنا أنظر إلى الحائط الملطّخ بالدم:

– هي أول مرة أسافر فيها سيّدي، وربما تكون الأخيرة، من يدري؟ لم يكن من سبب، أحببتُ أن أرى الدنيا كما يفعل غيري.

ربما كان يضحك، أظنه راح يضحك وهو يسألني:

كيف أخرجك عزيز من الجيش؟ وكيف حصلت على جواز السفر؟

ماذا تراني سأقول عن هبة كهذه؟ هل ثمة من يرفض الخلاص من الغبار والرمال والرصاص والعقارب؟ لهم المجوهرات والقصور العامرة وأسفار إلى أجمل بقاع الدنيا، ثم يأتي السؤال والشك والريبة والظنون عن رحلة يتيمة إلى بلد قريب؟.

– سألتك أيّها المغفّل عن خروجك من الجيش وعن جواز السفر؟ هل قطعوا لسانك في الطريق؟.

لم أسمع منه سوى (مغفل)، وأيقنتُ أنها إشارة إلى أشواك وشظايا وضرب وإهانات قد تصيبني إذا طال شرودي بين يديه، ولم يكن عندي حينها غير أن أقول بسرعة لئلا ينفجر غضباً:

– عندما تزوّج من ابنة أختي أخرجني من الجيش، هو الذي أراد ذلك، قال لي "إنك شاعر ولا نريد أن يموت الشعراء في الخنادق والمعسكرات".. هو الذي قال ذلك سيّدي.

قال الرجل الفيل وهو يضرم النار في كبريائي:

– وهل أنت شاعر؟ بماذا تشعر الآن؟.

أسمع ضحكاً خلف ظهري، لا يحق لي أن أحرك رأسي حتى أرى من يضحك مني، يترقق حزني وراء جلدي، مبهمة طحالب هذا الخلبوص الذي يهزأ مني، ولا شيء في يدي غير أن أقول:

- إنني أحاول كتابة الشعر سيدي، ولا أظنني بتلك البراعة حتى أقول بأني شاعر.

قال الفيل وهو يرجع بكتفيه إلى الوراء:

- أريد أن أسمع شيئاً من الشعر الذي تكتبه.

لا أتذكر أيّ شيء، أفي صحوي..! لا أتذكّر، فكيف يمكنني قول الشعر في لجة هذا الرعب الخانق؟ لكنني قاومت ذاكرتي ورحت أعالج خوفي وأقول شعراً:

أصـــابت الـــوردة عيـــن
فتعيــّن عليهـا أن تبعـث عطرهـا
علـــى شكـــل برقيــــات
أصــــابت الجـــبل عـــين
فـتعـيّــــــــن عليـــــــه

تعترف بكل ما تعرفه عن الكلب الأجرب الذي تزوج ابنة أختك، وحرام عليك أن يذهب شبابيك سدى من أجل حمار لا يستحق أن نذكر اسمه، كما أني لا أريد أن تأتي أختك ليلى إلى هذا المكان ولا أظنك تريد ذلك أيضاً.

سبحان الله، رجل الدولة المحصّن، عزيز عارف الدوري، أول من عمل في حماية الرئيس وكان ظلّه في صحوه ونومه، العميد ركن قائد الفرقة الثامنة مشاه، لم يعد بالنسبة لهم غير كلب أجرب وحمار لا يستحق حتى أن يذكر اسمه ؟!.

من أية سلالة جاء هؤلاء البشر؟ إذا كان أعتى رجالهم صار محض سلّة للفضلات ومجرد رمز للخسّة والنذالة، فماذا سيفعلون بالناس البسطاء إذا ما طالت (بكلة) أحدهم أو اشترى فستان سهرة لزوجته، أوعاد بشنطة هدايا لأطفاله الجياع؟ ماذا لو قال كلا مرة واحدة؟!.

ممنوع حتماً أكل المكرونة، إلاّ برشوة توازي ثمن المكرونة، ممنوع أن تكون أجمل أو أطول أو أذكى منهم، لهذا هرب المطرب الوسيم والأديب اللامع والممثل المعروف والخطيب اللوذعي والرياضي الشهير، لا مبيعات ولا قروض ولا تكتيك في التجارة إلاّ عن طريق (العوجة) مسقط رأس الرئيس أو عن طريق أكثرها اعوجاجاً، ابنة الفاسق الذي يتماهى جذلاً مع النجوم والكواكب قبل أن يفطن إلى قبحة وبشاعة عينيه، أعوج من نسل أعوج، لا خصوبة في الأرض ولا رطوبة في الصيف والربيع إلاّ خصوبة ما يأمرون به، إلا رطوبة الربيع الذي يقترحون والصيف الذي يشيرون إليه، صار كل واحد منهم حاكماً بأمره، له المعابد التي نصلّي فيها والرّب الذي نعبده والكعبة التي نحج إليها .

سمعت صوتاً يصفعني ويقول:

– خذ هذا البغل إلى غرفته، لا ماء ولا طعام لمدة يومين حتى يأتي بنفسه ليخبرنا بما يعرف، خذوه.

أتوسل النوم أن يرحمني، لكنه يهرب مني، لا وسائد في هذه الزريبة ولا فراش ولا أشنات أو طحالب تنقذني من برد الأرض، رخوة عظامي أنا المدلل الذي اعتاد ريش النعام بعد هطول خيرات عزيز عارف الدوري علينا، لا ستائر في هذا المكان حتى اختفي خلفها، وأمارس عاداتي خفية عن الناظرين ..من يدري، ربما كانت هناك أجهزة تراقبني، سمعتُ بذلك عنهم ولا غرابة في الأمر، إنهم يفعلون أي شيء دن رادع من ضمير أو إحساس، مزدحم قلبي بأوجاع لم أجربها من قبل، شبعتُ من اشمئزازي منهم وصار على قطاري أن يعبر الكهوف والسراديب والأنفاق تحت مشورتهم ودون تفاوض معهم أو اعتراض.

هل تراني تمكنت من النوم بعد ذاك الخوف الذي أحبطني؟.. نعم، يبدو أنني فعلت، فقد رأيت النبيذ واحتسيته في حانة ليس ثمة في الكون ما هو أجمل منها، امرأة لعوب رمتني على موكيت أحمر وتمكنت من اغتصابي أمام عشيرتي وأصدقائي، أسماك وقواقع ومفروشات مبلّلة بالشهورة والرغبات، رجل مرقط مثل أفعلى يحوم حولي ويغازلني ويفرض شروطي عليه "لك ما تريد، أنا تحت أمرك أيها الأمير، افعل ما تشاء بي أيها العزيز".. حفلة عرس دون عروس، حفلة ذكور، تفاح وعسل وحرير وعريس أحمق دعّى متأنق، بينما يتسرب خوفي بين كوابيسي وأنا أقطع

المسافات نحو سراب مخيف وصوب أسراب من الحمام المرعوب، باب مقفل، كوابيس، ودعاء، يقول (يا رب) مع أنين جارح، ورائحة دم، وأسئلة تتكرر خلف شقوق الجدران "إلى متى سنبقى في هذه الزريبة"، واشتياق عارم لسيجارة أنفث بعدها شيئاً من جزع القلب الذي هدّمني.

في الصباح – ربما كان الصباح فعلاً – رأيتُ فطوري يدخل نحوي من تحت الباب، رغيف خبز يابس وشتائم ساخنة وقطعة من الجبن المالح، طازجاً لم يزل، وكوب من الشاي، وتكرر القول ثانية:

– إذا كنت تريد الذهاب إلى الحمام عليك أن تطرق الباب مرتين.

مكلوم هذا الجبل الذي عشتُ عليه منذ تزوج عزيز عارف الدوري ابنة أختي (عذراء) لم يعد من الجبل الشامخ غير خردوات تراب وجذوع وحروق، يبدو أن العيش عند السفح هو الذي كان مكتوباً علينا، ولم يكن ظهور العميد في حياتنا إلا تذكيراً بالأخطاء والجرائم.

طاردني صوت المعذبين (ياربت)، وتمنيت أن أعرف ما يدور في هذا المكان المقطوع من خارطة البلاد، لكن الخوف أحبطني، لا أنيس معي حتى أنقذ حالي من هذا الورم السرطاني الفّتاك، مليون طائر محروم من نعمة الطيران، مليون أرملة حرموها من الفرح، ومليون قتيل سينهض من تربته ذات يوم حتى يشهد نهاية هذه اللعبة الوقحة.

أتخيّل نفسي في أفران يشوى فيها الأبرياء، مخابز تعطيك لحم البشر بدلاً من الرغيف، هبط النوم على جفوني وذهبتُ إلى تخوم الأرض

من أنني صحوت منذ قليل، رأيتُ نفسي في ملكوت آخر، أتسكّع مع الحفاة مرة، ثم أرمي نفسي ومتاعبي على باعى الياقوت عساهم يرجعون بي إلى هدوئي، وما من فائدة، ثمة قنّاص يعلم أين مكان الضحية، ربما كانت في بيت الغزال أو ذهبت _ عسى ولعل – نحو الحمار الوحشي، وما دام الأمر هكذا، سأحتاج إلى (حزام العفة) لئلا يراهنون على جسدي في ساعة خمر أو لحظة انتصاب شهواني لا فكاك منه.

أعجب ما في حالتي، ذاك الفزع الذي عافني ومضى عن جسدي، أعيش حالة خوف من نوع لا يناسب المكان الذي أنا فيه، تمكنتُ من النوم مثل طفل في الثالثة من العمر، لكنهم أيقظوني قبل أن أدخل الحلم الذي عاشرتُ فيه مئات النساء، إنهم خبراء في ذبح أي احتكاك مع السعادة، قال الأبله الذي يوحي بأنه يحمل شيئاً وراء ظهره:

– هيا بشرعة، إنهم يطلبونك فوراً.

لا أدري لماذا تأخذ بعض الكلمات شكال الخنجر والساطور في هذا المكان (إنهم يلطبونك) مع أن الحروف نفسها (ألف نون هاء ميم ياء طاء لام باء واو كاف) إذا كانت خارج هذا التنّور فهي لا تعني أيّ شيء!.. سألته وأنا بين اليقظة والنوم:

لكنني قلت لكم كل شيء، ماذا تريدون الآن مني؟

قال بسرعة قبل أن يسمع ما نطقت به:

- اخرس أيها الكلب، غير مسموح لك بالكلام مع أيّ شخص تراه، صوت ماكو... مفهوم؟.

أسمع رنين شيء على بعد أمتار مني، ربما كان صوت سكين يرتطم بسكين آخر، لكن الخوف غادرني ولم أفهم السبب، دفعني الآبله نحو الرجل الفيل الذي كان يسألني مساء البارحة، إذا به يكرر السؤال:

- للمرة الأخيرة، ولا نجاة لك بعدها أبداً، من الذي يأتي إلى بيت عزيز عارف الدوري؟ لا نريد منك غير اسم واحد فقط، وبعدها ستذهب بالسلامة ولن تعود إلينا.

شعرٌ أشيب لفيل أسود، جثة تشبه (لوري) يتحرك إليك حتى إذا كان ثابتاً في مكانه، قبطان سفينة تمخر عباب السفالات، يجلس على ناصية الغباء ويوهم بالنزاهة وطيبة النفس، هذه المرة راح يشرب شيئاً من الكحول وهو يترنح جذلاً:

هل تذكّرت من جاء إليه؟ أم تحتاج إلى ضربة على رأسك حتى تتذكر؟ عندي من الوقت ما يكفي لأجعلك تتذكر حتى الصراصير (والبزازين) التي رآها (عزيزك) الجاهل، كما أنني يا (حمودة) لا أفكر بتشويه وجهك الجميل، فأنت ما زلت في ريعان الشباب، لكنني في الوقت نفسه لا أحب الحمار حين يطول سكوته أمامي.

يبدو أنني أتفاوض على حياتي قبل أن أحمي عزيز عارف الدوري من المقصلة، أيّ هراء يشع من زوايا مكان كهذا؟ أفكر في اسم ملفق

مزورّ حتى أنقذ جلدي ورأسي من الضرب والتشويه، لكنهم أعرف مني بأسماء الكبار من قادة الجيش والأمن والمخابرات، قلت مثل تلميذ أخطأ في تفاصيل الدرس:

– والله العظيم، أنا لا أعرف أيّ شيء عن أصدقاء العميد ولم أره كما قلت لكم غير ثلاث مرات منذ تزوّج ابنة أختي.. مرة حين جاء يخطبها، ومرة عند زواجه، ومرة قبل سفري، حتى أنني بصراحة لا أميل إلى المعارف والأقرباء، أنا شبه معزول عنهم، أقرأ وأكتب وأرى التليفزيون، لا شأن لي بالسيدّ العميد ولا شأن له بأمثالي... أنا بالنسبة له مجرد جندي بين مئات لا يعرف عني أيّ شيء سوى أنني خال زوجته.

قال الرجل الفيل وقد اجتاح عظامي دفعة واحدة:

– تأخرنا في تعذيبك أيها (الخردة فروش) حتى نعطيك الفرصة للخلاص وإنقاذ لحمك، لكنك على ما يبدو صاحب خبرة في اللعب على الحبال، قلت لك أن تذكر شخصاً واحداً من أصدقاء عزيز، فهل تظنني أصدق بأنك لا تعرف أيّ واحد منهم؟ وإذا كان الأمر كذلك سنضطر إلى طرح السؤال نفسه على أختك ليلى.. أعتقد أنها تعرف أفضل منك!.

ثم نهض من مكانه، واقترب مني، خاتم فضة سميك على إصبعه البنصر ضربني به على أنفي، سال دمي على قميصي بينما راح الفيل يضحك:

– سألعب كرة قدم على وجهك الجميل إذا لم تخبرني حالاً بما تعرف عن هذا الخسيس الذي تورط باغتيال الرئيس.

تذكرت الصورة المعلّقة على جدار بيتنا، رأيت ذاك المنبوذ الذي يبتسم في بقعة تكاد لا ترى من الصورة، يوم أيقنت أن عزيز عارف الدوري هو الوحيد داخل إطار المشهد من يفكر في تبادل أدوار الحياة، أن يتخلّص من تلك البقعة الجرداء التي لا يراها أحد وأن يدفع بالحاكم نحوها.. مكفهرة ملامحه برغم أنه راح يصفق للرئيس – في الصورة طبعاً – حسد مرسوم على كل مسامة من فراغات الخدين، كم تراني مكثتُ أمام الصورة حتى أصل اليقين بشأنها؟ لكن الرجل الفيل أيقظني من اختراقاتي واكتشاف سرّ العميد حين راح يضربني بخاتمه ثانية على فمي:

– اسمع أيّها (الزعطوط).. عليك أن تفهم بأنك لن ترجع إلى بيتك قبل أن تعترف بكل ما تعرفه عن الكلب الأجرب الذي تزوج ابنة أختك، وحرم عليك أن يذهب شبابك سدى من أجل حمار لا يستحق أن نذكر اسمه، كما أنني لا أريد أن تأتي أختك ليلى إلى هذا المكان ولا أظنك تريد ذلك أيضاً.

سبحان الله، رجل الدولة المحصّن، عزيز عارف الدولي، أول من عمل في حماية الرئيس وكان ظلّه في صحوه ونومه، العميد ركن قائد الفرقة الثامنة مشاة، لم يعد بالنسبة لهم غير كلب أجرب وحمار لا يستحق حتى أن يذكر اسمه ؟!.

من أية سلالة جاء هؤلاء البشر؟ إذا كان أعتى رجالهم صار محض سلّة للفضلات ومجود رمز للخسة والنذالة، فماذا سيفعلون بالناس البسطاء إذا ما طالت (بكلة) أحدهم أو اشترى فستان سهرة لزوجته أوعاد بشنطة هدايا لأطفاله الجياع؟ ماذا لو قال كلا مرة واحدة؟!.

ممنوع حتماً أكل المكرونة، إلاّ برشوة توازي ثمن المكرونة، ممنوع أن تكون أجمل أو أطول أو أذكى منهم، لهذا هرب المطرب الوسيم والأديب اللامع والممثل المعروف والخطيب اللوذعي والرياضي الشهير، لا مبيعات ولا قروض ولا تكتيك في التجارة إلا عن طريق (العوجة) مسقط رأس الرئيس أوعن طريق أكثرها اعوجاجاً، ابنة الفاسق الذي يتماهى جذلاً مع النجوم والكواكب قبل أن يفطن إلى قبحه وبشاعة عينيه، أعوج من نسل أعوج، لا خصوبة في الارض ولا رطوبة في الصيف والربيع إلا خصوبة ما يأمرون به، إلا رطوبة الربيع الذي يقترحون والصيف الذي يشيرون إليه، صار كل واحد منهم حاكماً بأمره، له المعابد التي نصلّي فيها والرّب الذي نبعده والكعبة التي نحج إليها.

سمعت صوتاً يصفعني ويقول:

– خذ هذا البغل إلى غرفته، لا ماء ولا طعام لمدة يومين حتى يأتي بنفسه ليخبرنا بما يعرف، خذوه.

وقبل أن يجرجرني الحارس الأبله، ضربني على خصيتي بأمر من الرجل الفيل، إذا به يضحك وهو يقول: لعنة الله عليكم يا أولاد القحبة.

صارت المسافة قصيرة جداً ما بين الحياة والموت، بين الحرية والاعتقال، بين المحبة والأحقاد، توجعني خصيتي، لكنني، وبقلب خاشع، رحت أبكي مصير أختي: ماذا لو أنهم جاءوا بها إلى هذا الزريبة؟!.

أدرى جيداً أنها (خطة عمل) كل ما يفعلونه الآن بي، علّمتني الكتب العظيمة والقصائد والقصص أن الجلاد أكثر خوفاً من الضحية مهما فعل، فهو ينتظر اليوم الذي سيقتل فيه تحت سطوة الثأر، بينما الضحية ما عاد لها شيء تخسره غير الصبر، وقبل أن يرميني إلى غرفتي، ذاك الأبله المتموج بالرعونة، تمكنتُ من رؤية نيشان البطولة يلمع على الجانب الأيسر من بدلته الداكنة (!) ثم أغلق الباب كأنه يضربني بضجيجها، وما زالت ضحكته ترنّ تحت سقف الزريبة، أيّ سيرك جئت إليه وأية حيوانات مفترسة تسخر مني؟ ماذا صنع الكواش في مدينة بغداد؟ لقد صارت وكراً للنفوس السوداء وكتّاب التقارير وتلاميذ المسالخ، سرقوها تماماً ولم يبق منها سوى اسمها.

– لو كان الأمر ممكناً، من يدري، ربما يتغيّر اسم بغداد في زمن عاجل قريب ويصبح (عزّامية جبارة)، وما المانع إذا هم فعلوا ذلك ما دام العراق كله في جيوبهم الآن؟! وتذكرتُ كيف أن عاصمة الدومينيكان (سانتو دومينكو) سبق لها أن حملت اسم الديكتاتور رافائيل ليونيداس تروخييو مولينا، وصار اسمها على مدى ثلاثين سنة (مدينة تروخييو) فما الذي سيمنع عزام جبارة من تكرار هذه الجريمة؟!.

رميت جلدي على إسفلت الغرفة، دافئ هو الموت إذا ما حلّ بي بعد ساعة أو ساعتين، أهلاً وسهلاً، لا شيء أجمل من موت لاذع باهر خاطف عاجل في بلد صار هكذا، أنا البتول التي اغتصوبها دون أي ذنب، أنا الطائر الذي قصّوا جناحيه لئلا يفكر ثانية بالطيران، أغفو على حافة الغليان ولا أنفجر، مبثور عن عائلتي وبيتي ومخدة نومي، إنهم يستحقون كرامتي مثل طماطة على أرض متسخة، يبدو أن الكبرياء مثل جرس رنان في وحشة هذا المكان المهجور.. تُرى من الذي كتب لهم سيناريو الذل والإذلال، من أعطاهم (طبر) المسالخ وبيوت التعذيب التي ينعمون تحت عتمتها؟ إنني أذبل شغفاً وحسرة إلى حريتي مع أنني لست غير نزيل بريء.

ما إن رماني الحارس على إسفلت الغرفة، حتى رحت في نوم عميق، وقبل أن أعوم في ملذّات حلم خاطف حطّ بين ضلوعي، حتى صحوت على صوت رجل أدرد أزاح عني أجمل حلم رأيته طوال حياتي، وهو يقول:

– انهض بسرعة ٢١٤.

كنت مثل خشبة ملصوقة بالمسامير، لم أستطع رفع رأسي عن الأرض، بقايا دم يتسرب من فتحة أنفي ومن خلف أسناني، لكنني برغم ذلك كنت أحلم بالنجاة منهم والركض بعيداً عنهم.. إذا به يرفعني بقوة وهو يبتسم:

– عليك أن تحمد الله، انهض، قف على رجليك ستعود إلى بيتك، أنت بريء.

أكاد أصرخ، طبعاً أنا بريء، أكاد أقلع باب الزريبة، طبعاً أنا بريء، أرفع يدي صوب السماء، بينما خلايا جسدي لم تزل في حالة نوم من فرط اللوعة، اصرخ داخل جلدي، أنا بريء طبعاً جسدي الذي أرهقه الفزع والمهانات، صار مثل طائر البطريق، يتحرك ذات البحر مرة وصوب الشاطئ مرة ونحو السمباء مئات المرات، قلت مثل طفل عاد إلى ذويه بعد ألف سنة من الفراق:

– بارك الله فيك، بارك الله فيكم جميعاً.

رحت أكرر بيني وبين دقات قلبي (الحمد لله)، إذا بي ثانية أمام الرجل الفيل، كدتُ أسقط جزعاً ورعباً، إنني لم أزل تحت رحمة هذا الكائن الذي يفوق الكركدن بشاعة وقبحاً، لكنه راح يبتسم أيضاً وهو يطبطب على ظهري:

– لا تزعل منّا.. عليك أن تفهم كيف نعمل من أجل حماية العراق العظيم من الكلاب السعرانة، كل ما نفعله هو بعض الواجب أمام القائد المظّفر حفظه الله من الغدر والخيانة، ماذا ستكون عليه بلادنا لولا رعايته وحكمته ورجاحة عقله وشجاعته؟.

لم أنطق بشيء كنت أخاف من لساني لئلا ينزلق إلى شيء لا أعنيه، لكنني كما الببغاء رحت أكرر (شكراً بارك الله فيكم)، بينما الفيل ما يزال يتحرك حولي وهو يقول:

- علينا نسيان أنفسنا إذا تعلّق الأمر بحماية العراق وبالرئيس القائد أدامه الله، نحن نفديه بكل ما نملك من مال وبنين، فلا تزعل منّا يا حمد إذا كان قد أصابك بعذ الأذى.

لم أكن أفكر في معنى ما يقول، لا شيء يهمني أبداً، لا شيء يعنيني من حكمة عزّام جبارة ورجاحة عقله أو رجاحة أي عضو فيه، أريد الرجوع إلى مخدّتي حتى أنام، أحتاج إلى إسفنجة عملاقة تمتص كل ما عانيته في هذا الجحر البغيض، ربما كنت أبكي فرحاً، لا أدري، ثمة دموع نزلت فوق خدي، هل تراني بكيت أم أن دمي ما يزال ينزف من منخيري؟ نحن في يوم الجمعة، روبما كان السبت، كم ليلة أمضيت في هذا الدهليز الخانق؟ كم مرة سمعت (يارب) من بقية المدفونين هنا؟ أتمنّى لو أعرف كم الساعة التي نحن فيها، التاسعة صباحاً أم الواحدة ليلاً؟ لا شيء هنا يشبه أي شيء خارج هذا المكان، لكنني مثل طفل متهور رحت أسأل عن الساعة واليوم.. لماذا كنت أسأل عن أشياء لا معنى لها في الجحيم؟ قال الرجل الفيل وهو يسخر مني حتماً:

- اليوم هو الأربعاء، الساعة الثانية ظهراً، كلا، إنه الخميس ونحن في أول ساعات الفجر.

ثم التفت إلى رجاله إشارة منه إلى غباء السؤال وحكمة الجواب، كلهم حكماء يكتبون الوصايا مثل قائدهم الفذ، اسمع صوت (علكة) بين خرطوم الفيل وهو ما يزال يضحك من فوضى عقلي:

– ستأخذك سيارة الجهاز إلى مكان قريب من بيتك، لا نريديك أن تحكي عما جرى، نحن نعلم كل شيء وندري بما سنفعله بعد خروجك، وإذا سمعنا ما لا يناسبنا ستعود حتماً إلينا، وهذه المرة لن تخرج أبداً، مفهوم؟ لا أريد أن أكرر ما قلته لك.. تذكره فقط.

كررها وهو يستاء من نطقها مرتين: مفهوم يا حمد؟

قلت له بهدوء وذعر وهلع لم أعشه منذ ولادتي:

– مفهوم طبعاً، طبعاً مفهوم سيدي.

لم يزل هناك من يضحك خلفي، ربما أتوهم ذلك، لكن الضحك الذي أسمعه ورائي صار يلازمني – فيما بعد – أينما حللت حتى في الطرق الفارغة والشوارع الخلفية، بل صار ثمة من يضحك مني حتى وأنا غي غرفة نومي وعلى فراشي!.

صعدنا – أنا وثلاثة منهم – إلى سيارة (تويوتا) زجاجها داكن، مضت بنا إلى تعرجات ومسالك لا أدري عنها أي شيء، فقد رجع الكيس الأسود فوق رأسي، وعدتُ تحت سيطرة الثلاثة وهم يضحكون بصوت يرغمني على الهياج والنرفزة:

هل نأخذه إلى البيت أم نذهب معه إلى الحمار الوحشي؟

قال الثاني:

- عيب يا رجل، هذا كلام سخيف، إنه إنسان بريء وما يزال (على نيّاته).. حرام عليك ما تقول.

قلت في سرّي (ليحفظك الله أيها الرجل النبيل) إذا به يقول، هو نفسه النبيل الذي طلبتُ من الله أن يحفظه:

- سنأخذه إلى بيت الغزال، ربما يحتاج إليه السيّد ساطور ابن الزنجية؟

أية أسماء بشعة أسمعها وأنا أذبل رعباً بين هؤلاء السفلة؟ الحمار الوحشي، وساطور ابن الزنجية، وبين الغزال؟ حتى أنني لم أعد أحب هذا الحيوان الجميل، فقد أصبح من أعدائي، لكن التويوتا وقفت ولم أعد أسمع صوت محركها.. نزل أحدهم وراح يسحبني من يدي بخشونة وهو يقول:

- سأنزع الكيس عنك، لا تنظر خلفك مطلقاً، إذا نظرت إلينا ستعود معنا، وتذكر أن ساطور ابن الزنجية يحب أن يرى أمثالك في منزله.

لا أدري حقيقة ما يقال بينهم ومدى صحة ما كانوا يتهامسون به طوال الطريق، لكنني مرغم على تنفيذ كل أمر ينطقون به، صاح الثاني بصوت أجش:

- خوش فرخ، في المرة التالية ستكون من حصة ابن الزنجية إذا رجعت إلينا، وأرى أن تفكر جيداً يا حلو!.

لا أفهم السبب الذي أرغمني دون وعيي إلى مدّ يدي أخفي بهما مؤخرتي، من يدري، ربما كان (ابن الزنجية) يتربص بي من مكان قريب، وقد يكون أيّ واحد من هؤلاء الثلاثة!.

أنزلوني من التويوتا، ولم أنظر إلى أي شيء، اغمضتُ عيني تماماً حتى تحركت السيارة، بقيت مسمّراً في مكاني مثل تمثال، حتى أن بعض المارة من كبار السن رمى بدرهم أو درهمين لهذا الشحاذ الذي ما يزال مرعوباً على ناصية الرصيف، مذعوراً من ساطور ابن الزنجية الذي يفتش عن (فرخ) جميل في مثل عمري ليأخذه إلى فراشه الوثير، ربما في بيت الغزال أو عند منزل الحمار الوحشي!.

بعد أن اطمئن قلبي إلى ابتعادهم عني، نظرتُ إلى السماء وتأكد لي أنني كنت أبكي.

الفصل السابع

وصايا المهرج

متى يطفح بك الكيل يا بلد؟

مرّ أسبوع بنهاراته ولياليه، لم أخرج من البيت، جاءني صديقي نوفل بملابسه الفستقية، نظرتُ إليه من خصاص الشناشيل بعد أن أخبرته ليلى بأني مضيتُ إلى أقاربي في (الوشاش) وسمعته يقول:

– نحمد الله على خروجه سالماً، الحمد لله على سلامته يا ست ليلى، سأعود لرؤيته في وقت آخر.

هو يعرف ما جرى دون ريب، لقد جاءني بعد خروجي بوقت قصير، السلاح لم يزل على كتفه الأيمن، وابتسامته المزوّرة على فكه الأسفل، هو يعرف ما جرى، وربما زارني بأمر منهم حتى يسمع ما سوف أقول (عنهم).. ذلك أن الرذيلة لها ثمن في زمان العهر الذي نعيش فيه، حتى الأصدقاء صاروا همزة وصل بين الضحية والجلاّد، ولا نجاة من المحنة بعد اليوم، إنه موسم حصاد البراءة، بورصة فضائح، وبلطجية، وما من هدنة بين القاتل والقتيل، الوساخة لها عقارات مادام "ساطور ابن الزنجية" هو الذي يحكم البلدة ومن عليها!!

يصعقني كل شيء اسمه في إذاعة بغداد، أية بربرية نحيا في كوابيسها، أي فيروس تسرّب إلى بستان العفّة والطهارة؟ إعلان رسمي عن إعدام أربعة من رجال الدين في النجف الأشرف، منع الصلاة في كربلاء حتى إشعار آخر، لا زيارة للقبور، كما تمنع الشعائر الدينية منعاً قاطعاً، وكل من يخالف القرار أو يذكر الرئيس بكلمة سوء، يقطع لسانه أمام الجماهير في حفل يقام في محلته، بل بحضور أهله وعشيرته ومن يأويه، سوف يُشرف الحزب بنفسه على تنفيذ قطع اللسان حتى يعلم الذين (كفروا بنا) أي منقلبون! أنشوطة لكل عنق يخالف ما يأمرون به، كلب لكل دجاجة، وقط شرس لكل فأر، أبواب (القصابخانة) مفتوحة ليل نهار، ليس من حق المواطن الصالح أن يتذمّر في شهر تموز وآب وأيلول صحيح أن الكهرباء تُقطع كل ثلاث ساعات لفترة لا تزيد عن أربع ساعات، لكن عزة النفس وإشراقة المستقبل والعبور الناجز، كلها ثروات وطنية لكم ولأولادكم وأحفادكم غداً، والذي لا يرى عبقرية الرئيس فيما يفعل فهو عميل مأجور يستحق الموت فوراً حتى يفهم بقية الشرفاء ألا مكان للخونة في صفوف الأنقياء!!".

أيّ مهرج رخيص مبرقع بالرأفة والحنان صرنا بين أنيابه ويديه؟ بائع هوى مدمن ومن طراز مروعّ غريب، لا يشبه أيّ عاهر في سوق النخاسة، وما من حاد يسبقه في كفاءة البيع وحرفة الغنج على مرّ التاريخ، إنه يعمل على سليقته، بالفطرة ربما باع الهوى، وعلى إيقاع (العوجة) عاد ثانية واشتراه!.

هل تراني في تمام عقليل حين أفكر أن الحياة لا يمكنها أن تكون أسوأ مما نحن فيه؟ متى يمشي الجيش والشعب في طريق الخلاص من قراقوش العوجة؟ التاريخ الذي علمنا مليارات الدروس عن الخير والشر ماذا تراه سيحكي عمّا جرى للبلاد التي اغتصبوها في أجمل حالات نشوتها؟.

بعد مائة وستين ساعة أمضيتها بين فراشي وباحة البيت، خرجت إلى الشارع ملفوفاً بالرهبة، أحدّق في كائنات الله وهي تمشي بين الطرقات، غرباء عن بعضهم، أشباح تتلوّى من الحصار والذل والفواجع والمفاجآت، بينهم، في كل شبر وعند كل فرع من شعار المدينة، جداريات الجنرال وهو يضحك منهم وعليهم، عند رأس الزقاق أراه يمسك بندقية صيد وهو يحتمي بقميص له من جلد الثعالب، مع جزمة صفراء كالحة من جلد التمساح، توشك الرصاصة أن تحرق الناس إذا ما خرجت تواً، لكن سيادته ينقلب إلى رجل عادل طّيب القلب وهو يرفع ميزان العدل في جدارية من السيراميك ينظر عبرها إلى العابرين على جسر التأوهات ويستخف بهم وقد لبس عباءة القضاة، وما من أحد يدري أنه يقول "أعرف كم تكرهني وأدري بأنني إذا ما غفوتُ لحظة واحدة أيّ سيف تقطعون به لساني وعضوي وسلالتي حتى آخر طفل يولد من صلبي!".

أمشي بين حفاة ورهائن، بين عبيد وشيوخ، من جنازة إلى جنازة إلى زوبعة إلى كفن إلى حريق، أشرق الشاي في (مقهى عرب) أجلس بين

أقرع وأكتع وغريق، ورابع مشبوك بجدار المقهى، رجفة تسري في عظامي وأنا أتكسر عن حمّى لا علاج لها، فها هي صورة القائد عزام جبارة تزاحم الزبائن حتى أنك لا تدري أيهما أكثر!؟.

ترى ماذا سيكتب عنا "المقريزي، والسهرودي، والطبري، والهمذاني، وياقوت الحموي، وداود الانطاكي، والشهرستاني، وابن النديم " لو أنهم ما زالوا على قيد الحياة وعاشوا محنة ما نحن فيه من حروق وظلام وقتل واغتصاب وسجون؟! ليس من مخبأ نظيف أحتمي به من هذه الفضلات، كومة من الزبالة في كل جزء حللّت فيه، المدينة تغزوها قاذورات الحاكم وما من ملجأ غير البيت، الحياة هنا صارت مزرعة عفاريت، مسلخ نعالج وخراف وبشر، صناديق للأخطاء ومأوى للنقائض وسراديب تتسفخ فيها جثث الرافضين، و"هلهولة" للسيد القملة الذي صار بحجم الفيل.. صارت أيامنا حزمة من أخطاء أعتدنا عليها حتى أصبحت شيئاً مألوفاً نراه ونسمعه كل لحظة ولا نستغرب ما نسمع وما نرى، والمحنة التي نعيشها صار لها رأس وذيل ولسان و"هلهولة للقاتل شعبه وطايح بي!"

الشعب برمته صارت الفلافل سرجه وحصانه وعشاء يومه وفطور صباحاته وغطاء صغاره وزوجته، رحل الدجاج إلى شبه جزيرة تكريت ونامت الخرفان الشهية في خط أعوج تحت سيوف الوزراء والقادة وبيادق الرئيس، أوشك الناس في الجنوب على عبادة البط والزرازير،

وصار أهل (الثورة) و(الشعلة) و(حي الجهاد) يتربصون بالزعرورو والنبات البرّي، بينما الغزلان تشوى على نار هادئة في قصور السلطان، يا للهول، حتى (أبو الهول) خرج عن صمته وما خرجنا، راح الأربعاء وانتظرنا صهوة يوم الخميس حتى نضع اللحوم في أول (الشيش) ونثأر لمن مات منّا، لكن الحبار تهرأت حتى آخر ليل الجمعة، وجاء السبت مثلوماً من الباء فاغتصبونا مع النبيذ وبقر البطون، ومضى نهار الأحد وما من أحد، وهلّ علينا الاثنين ثم الثلاثاء من نبرات حزينة إلى عزف منفرد على جلودنا، خناجر وبساطيل ونساء يزغردن قرب رائحة الدم، أهزوجة وتصفيق ثم قيلولة راحة وفرفشة حتى يجيء الأربعاء الثاني يحمله البطران إلى بطران سابق، تذبل خلف الموانع (ولا مانع لدينا).. فخ منصوب على شكل قلائد من ذهب وجواهر، والقناص يضحك من شرارة الغضب التي تغزو ضمائرنا، مستباح كل شيء حتى شرشف النوم الذي نغطّي عوراتنا به، كاتم صوت خلف كل جمجمة فيها شيء يمكنه أن يفكر، وما من معجزة أو نجمة نتسلّى بها حتى تنقشع الغمّة، ولى زمن المستحيل وصار علينا أن نصنع الزورق بأنفسنا ونرحل فيه إلى سدرة المنتهى؟ أحاول أن أحتفظ بقوة ذاكرتي بعد كل ما جرى هناك في زريبة الموت، أجلس منكسراً أمام الغيوم والنيازك، أحاول منع روحي من ذرف الدموع ومنع جلدي من شمّ رائحة المعتقلات، وبماذا سينفعني الندم أو التذمر إذا بقيت هكذا مرعوباً منهم وخائفاً حتى من خطواتي؟

جاءني صبيّ جميل وقال:

شاي؟ حامض؟ شاي بالحليب؟ نرجيلة؟

وعلى غفلة من الدنيا بأسرها، رحت أهمس مذعوراً وقد انتبهت إلى أنني ما زلت في (مقهى عرب):

- شاي، شاي خفيف وحلو.

إذا بالصبيّ الجميل يفك خيالاتي ويشطرني إلى قطع صغيرة، قطعة راحت إلى جلالة الرئيس المعلق فوق الجدران، وقطعة مضت إلى مغيب الشمس أتوارى خلفها وأشرب الشاي بصحبة رجب أقرع على يساري وأكتع علي يميني، وغريق راح إلى بحر أعمق من هذا ليموت فيه.

عجزي يلاحقني، ولا رهان على أيّ شيء، أسمع أغنية يقولها أطرش فريد من نوعه أخبرني فيها أن (جبر الخواطر على الله)، وأنا أهتز على حبل مربوط بين جبلين، وما بينهما أشواك وبارود محروق وقناني مكسورة الرأس، لكن الصبي الجميل أنقذني - هذه المرة - وهو يأخذ استكان الشاي الفارغ:

هذه أول مرة تأتي إلى مقهى عرب؟

قلت له بعد أن قطعت المسافة بين جبلين:

- نعم، إنها أول مرة.

ثم نظرت إلى الرئيس عزام جبارة الملصوق على جدران المقهى، وكدتُ أقول (وآخر مرة) لكنني دفعتُ حسابي وعدتُ من حيث أتيت وأنا ألتفّت خلفي دونما سبب معقول، صار كل واحد منّا ينظر خلفه، لا

فرق بين متهم وبريء، نسينا كيف نمشي دون خوف، حتى الرصيف بات يضحك من خطواتنا المرتبكة، بينما السماء لم تزل على حالها منذ ملايين السنوات، وكذلك الأرض في أيّ جزء منها، إلاّ (هنا) في المكان الذي يسمّونه العراق!.

قبل أن أصل البيت، رأيتُ سلمى بعد غياب فاجع، ذيل الحصان ما يزال يتأرجح وراء عنقها الذهبي، منديل أزرق بين أصابعها، يبدو أنها تركت أوراق الكلينكس منذ تزوجت، المكان يشعّ بها من تحتها إلى رأسها كأنها (جنيّة) خرجت من البحر تواً، حشود من الفقراء عند موقف الباص، سلمى تشعّ بينهم بصحبة رجل أنفه مثلوم قرب الشاربين، لابد إنه زوجها، وقفتُ في مكاني لا أدري ما أفعل وأنا أراها تقترب مني، تقترب بخفة كأنها توشك أن تطير، تقترب دون أيّ حساب للأنف المثلوم الذي يراقبنا وينفث الدخان غضباً ودهشة، إذا بها تسألني من قاع سحيق مظلم بعيد:

حمد؟ لكنهم أخبروني بأنك لن تعود؟ لماذا كذبوا عليّ؟.

ومثل هرّ شرس، قطع المسافة بخطوتين، جاء زوجها ينهب الأرض بيننا وهو يصرخ:

من هذا؟ من يكون هذا؟ ألا تستحين من نفسك؟

ثم صفعها بغلطة، إذا بها تسقط أرضاً بينما انكشف جزء من فخذيها وهي تصرخ (إنه حمد، حبيبي الذي أخبرتك عنه) لكن الرجل

عاد يضربها بوحشية وهو ينفث الدخان من منخيريه، حينها رحت أضربه بكل ما أملك من غضب، بل هجمت عليه تماماً وأنا أنشب أظافري في لحمه وقد تهاوى وتشظّى تحت هجومي مثل فقاعة ولم أعد أراه، وأخذتُ سلمى إلى أحضاني، كنا نطير معاً حول موقف الباص والناس تحدق صوبنا وهي تصفق للعاشقين وهما يرحلان عن الأرض!.

كيف جرى كل هذا؟ لا أدري.. ماذا حلّ في جسدي وأية قوة هبطت على لحمي ودمي وأعصابي؟ لست أدري، كل ما أعرفه هو أنني صحوتُ من نومي حيث لا سلمى ولا زوجها ولا موقف الباص، لم يعد معي غير سؤال مؤلم صار يطاردني ويقول نيابة عن بؤسي وعتمة روحي:

- حقاً.. أين سلمى؟ كيف تراني نسيتها ولم أعد أفكر فيها؟ أين ذاك الحب الذي كان بيننا؟ عجيب هو الزمن الذي أنساني حتى سلمى!.

غسلتُ وجهي، شعرتُ بهزة بين ضلوعي، يبدو أن الحب هاجر أيضاً وفرّ هارباً من جحيم عزّام جبارة، إذا لا يمكن الجمع في مكان واحد بين الكراهية والمحبة، ولا حياة للعشاق في نيران البغضاء، موجع كل يوم يمر بي وأنا أتذكر ما جرى في تلك الغرفة القمامة التي رموني إليها، عاجز عن فعل أيّ شيء سوى أن أعوذ بربي من شرورهم وتعاويذ أدري أنها لا تغني عن خوف ولا تشبع في زمن الجوع، معلّقة أمنياتي كلها، وما من إغراء أو شهوة للبقاء حياً وأنا أعرف أن (بيت الغزال) سيبقى مفتوحاً لمئات الأبرياء، وقد أعود ثانية إلى الحمار الوحشي

أويسحبني ساطور ابن الزنجية إلى مخدعه الباذخ فأعيش بين فخذيه، مثل أيّ محضي مخصيّ أو مجرد ببغاء يكرر ما يقال له أو عبد غبي مرعوب يفعل ما يشاء أسياده الكبار.

قلت لنفسي: كلَّش عيب ما تفعله بنفسك يا حمد، لم تعد غير مغفل فاشل ميئوس منه، والله العظيم عيب عليك أن تنتهي بهذه السرعة، لا حول ولا قوة لك مثل عجوز ترهّل قبل أوان الزوال، مثل شيء فائض رموه إلى المزبلة، تحرك، تحرك، الإنسان وحده من يملك أسطورته بين يديه، وما عليك غير عبور هذا الحاجز الشائك حتى تنجو من الشلل وتنقذ نفسك من ضراوة المجزرة التي فرضوها عليك، تخلّص من استبداد خوفك بك، لا شيء مروّع في الحياة وما من مرارة فيها أكبر من تهمة تدري أنك بريء منها، يا حمد، يا حمد محمود الصالح، ملعون من يقنع بالظلم، فهو يعطي الملعب كله للظالم، فلا تمكث في مكانك هذا مثل محكوم بالموت وما من محاكمة عليه، كلش عيب يا حمد ما تفعله بنفسك الآن، هي هبّة واحدة تكسر أقفالك فيها مرة واحدة وتفتح أمامك باب الخلاص، فتهيأ، تهيأ يا حمد، فلا أحد يحطم أغلالك غير يديك، أصرخ يا ويلي من قلّة حيلتي، غائب أنا في حضوري، أتوكأ على بطولة الرأس لا يمكنها أن تجدي نفعاً، ملعون من يقنع بالظلم، لكن ماذا أفعل وأنا وحدي، أخاف حتى من الاعتراف أمام نفسي بأنني اشمئز منهم، وإذا ما قلتها سهواً أمام الجدران سأرى أحد الحيطان وهو يكتب تقريراً عني!؟.

تفكّك ريش النسر، وحط مقتولاً على عشب ناشف كما الحجارة، عازف ينأى عن الزعيق، أتشبّت بعفة من نخيل العراق، وأقرر أن أكون الصيّاد وأشطب دور الفريسة، أتخلّص من مرض عضال في أحلك ساعات عمري، ينبغي العثور على فرصة أحارب فيها (ساطور ابن الزنجية) عساني أجد من يساعدني على قتل الحمار الوحشي وأن أحرق بيت الغزال بنفسي.. ترى كم من حمار لديهم وكم ساطور يتربص بأولادنا؟.

لكن كيف ومن أين أبدأ؟ مع من؟ حتى أنني لم أدخل أيّ بيت من بيوت السياسة ولا أعرف غير نوفل ورباح وكلاهما لا يفهم الباقة من الأناقة، ولا يفرق الجلد عن الجليد، إنها خطوة على عنق هذا الحلم العسير، أركب نوبة غضب، أسرجها تحتي عسى ولعل وربما أصل اليقين، فهي لعبة مع النفس أمتحن بها خصالي وقوتي، ولا عزاء لي إذا ما فشلت في أول منحنى!.

جاءت عذراء ابنة أختي إلى دارنا، لم يكن في الحسبان أن تأتي في وقت مكهرب كالذي نحن فيه، راحت تبكي على كتفي، أشم غرين الفرات ورائحة الجوري، بينما أسمع أختي تقول:

- سيولد ابنها يتيماً.. لعنة الله على هذا الزمن الأعوج، من كان يصدق أن عزيز عارف الدوري وهو أكبر العساكر في الجيش سينتهي مذبوحاً قبل أن يرى ابنه ويفرح به ؟.

قالت عذراء كأن صاعقة هبطت علينا:

- وأهله طردوني من البيت!.

في الشهر السادس ولا يبدو عليها الحمل تماماً، يبدو أن حياتنا تمشي صوب إفلاس طالما عشناه في طفولتنا، حتى لقمة العيش سلبوها من أفواهنا، ولم يعد أمامي غير أن أعمل حتى أحفف الوطء عن عائلة جرجروها إلى السجون والطرد والقتل والجوع، ليس من حقي الاعتماد على زوج أختي الذي طال غيابه في الشارقة، وما عدنا نعرف عن أخباره غير أنه سيعود، وليس من الذوق السؤال عما بقى لدينا من (حسنات) عزيز عارف الدوري الذي مضى إلى غير رجعة كما مضى المئات من رجالات عزّام جبارة، هكذا، لا تدري كيف ولماذا؟ لكنهم يشطبون من سبورة النظام في لمح البصر، حتى أننا لم نعد نتمكن من إحصاء القتلى بعد أن صار موتهم من جملة التسالي التي يعلنها عزام جبارة بنفسه على شاشة التليفزيون! إنهم قرابين البقاء على كرسي المذابح، ولا بد من جثث أكثر حتى يصعد السيد الرئيس عليها عسى أن يطال السحب التي ما تزال أبعد من يديه!.

في مبارزة مع نفسي، عدتُ منها مهشم الضلوع، رحت أفكر في حلّ لثلاثة أشياء، ماذا سأعمل وأنا لم أكن غير تلميذ ومقاتل؟ كيف أحقق انتقامي من أرباب المعتقلات ومن هيمنة الحمير الوحشية والغزلان وأولاد الزنجية؟ متى أتخلص من عقوق نفسي وأنقذ عقلي من الوساوس

والكوابيس؟ نظرتُ إلى عذراء، لا أدري إن كنت أشفق عليها أم تراني خائف على مصيرها أم سعيد بما حدث للعميد الذي لا خلاف على أنه واحد من طينة الرئيس وأهله، قلت لها بهدوء:

– لا حق لهم في حرمانك من العيش هناك بينهم، ثم إنك تحملين ابنه، وهذا يعني الكثير.

قالت عذراء:

– إنهم طيبون معي، لكن جاءهم من فرض عليهم طردي من البيت، قالوا لهم إن ابني هذا سيولد مجرماً مثل أبيه، بل قالوا أيضاً: لولا مخالفة الله لقتلناه في بطن أمه!.

تلك خاتمة القذارة، أن يأتي طفل إلى الدنيا محكوم عليه – قبل خروجه من رحم أمه – بالخيانة والطرد.. وماذا لو كان الجنين بنتاً؟ أيّ وقت (نحس) نمر فيه؟ أية حكومة هذه؟ أي نوع من البشر يفرض سطوته علينا؟ صار الشعب مثل قطيع يسحبونه إلى المسالخ والمنافي والمعسكرات والسجون، بينما كبيرهم الذي علّمهم الشر والبذاءة يقول على شاشة التليفزيون:

– ائتمن من يكون أمامك في الملّمات ولا يتحدث عن نفسه، واحذر من يكون ضمن صفوفك ويعمل لنفسه حسب!!.

لست أدري من يعني بذلك غير نفسه؟ فهو وحده الذي يعمل من أجل مكاسبه وسلطانه ونفوذه، وقد أحرق اليابس والأخضر، حتى يبقى

على كرسي الحكم.. كم سفح من الدماء وكم قتل من الأصدقاء والرفاق، وكم ذبح من أقاربه وكم رمى إلى المحرقة من أبرياء حتى يفرض نفسه على رقابنا ويكون وحده دون سواه الحاكم والجلاد وأن يبقى الحارس واللص معاً؟! إنه يذكرني بالمنافق الذي قال لصاحبه (يبدو أن الحاكم ولد وترعرع في هذه المدينة) فما كان من المنافق الثاني غير أن يردّ عليه: (كلا بل المدينة هى التي ولدت وترعرت منذ أصبح حاكماً).. نظرتُ إلى دموعها التي ما زالت تذرفها بخشوع، كم هي جميلة وفاتنه ابنة أختي التي قتلوا زوجها ورموا بها خارج أسوار الثراء، كم هي مسكينة وساذجة هذا المرأة التي طردوها من النعيم، قلت لها:

- اسمعي يا عذراء، أنت وأنا دفعنا ثمناً غالياً دون أيّ ذنب، وأظنهم ربما يصادورن أموال عزيز وقد يهدمون بيته، أعني قصره، كما فعلوا مع غيره، وأنت قد لا تذكرين حتماً ما جرى في عام ١٩٧٩ عندما قتل كبار القادة والوزراء بحجة التآمر عليه، هذا الكائن العجيب يمكن أن يفعل أيّ شيء ولا أستغرب أي قرار يأتي منه بشأن زوجك، ولابد من التذكير بأننا لا نملك إلا القليل.

هنا قالت عذراء ما كنت أنتظره بحرقة وصبر، جاءني على طبق من زمرد وياقوت:

- لكن (الجماعة) بالمرصاد لهم يا خالي، لا تدري أيّ بلبلة منذ شهور، عائلة الرئيس في حال لا يدري بها سوى الله، ولو انتظر عزيز بعض

الوقت لرأى بنفسه كيف يندحرون.. أعتقد أنه تسرّع كثيراً، فقد قال ذات مساء وهو يشرب الخمرة: انتهى أمرهم يا عذراء.

قلت بلفهة حاولت كتمانها ولم أفلح:

- أية جماعة تقصدين يا ابنة أختي؟

سكت لسانها وكفّت عن البوح، ربما أصابها الذعر الذي أصاب الناس جميعاً وأرادت إنقاذ ما تبقى من رحيق الحياة، لكنني قلت لها وقد تمكنت من إسكات لهفتي:

هل تخافين من خالك الوحيد يا عذراء؟ يمكنك الصمت إذا كان عندك أدنى شك بي!.

لكنها قالت فوراً:

- معاذ الله يا أحسن خال في الدنيا، لكن الذين ذكرتهم هربوا بعد القبض على عزيز ولا أدري ماذا حلّ بهم، لقد أخذوا أولادهم رهينة وبيوتهم تحت الرقابة في الليل والنهار.

ربما اختفوا يا ابنة أختي، كل واحد منهم سيلقى حتفه، لا أحد يبقى في هذه الدنيا الخربة، لكن ثمة موتاً شجاعاً كما هدير البحر، وموتاً جباناً ليس من هيبة ولا أيّ ربح فيه، كلنا سنموت يا عذراء ذات ساعة في النهار أو في لحظة من ليس عاصف، المهم أن يضاء الشمعدان أونسمع نشيد التراب قبل أن نغفو في شبر من الأرض، وتنتهي من آخر صفحة في كتاب البقاء، أصبحنا رهائن وعبيداً ولكل رهينة رقمها

الموشوم على جزء من مؤخرتها كما الخراف، ولكل عبد ثمة من يضربه إذا قرر أن يفكر في المصير، فلا مصير إلا ما هو مرسوم بأصابعهم يا عذراء.

اسمعها تقول:

بماذا تفكر؟ ما هذا الصمت الغريب؟ هل أزعجتك في شيء يا خالي؟

مدججٌ بالحزن قلبي، لا حيلة لي أمام أخطبوط هذا النظام اللقيط الذي يجمع حثالات البشر، قلت لها وأنا أدخل في مزاج تعكّر من شدة اشمئزازي منهم:

– أنا لا أفكر يا عذراء، لو كنت أفكر لفعلتُ شيئاً، عندما أخذوني إلى ورشة المهالك أصابني فزع صاعق، رأيت جنازتي قبل أوان موتي، بل رأيت قبري، وسألت نفسي: إذا كنت أنا البريء من أيّ ذنب جرى لي ما جرى، فماذا فعلوا في عزيز وغيره؟ سأعترف يا ابنة أختي بأنني منكسر ومرعوب، بل مطعون في كبريائي لأنني لا أعرف ماذا أفعل؟ أنا لا أفكر، الغبار يلف رأسي، وصورة عزاّم في دارنا تسخر مني، لو كنت أفكر لقلعت شيئاً، الإحساس بالمهانة يلاحقني.. هذا ما أفكر فيه فعلاً.

قالت أختي وقد جاءتنا بالشاي:

– أتمنى لو أنك ترحل، لا أمان في بلد كهذا بعد اليوم، أنا خائفة عليك يا حمد لأنني أعرف بأنك لن تسكت.. إذا أخذوك هذه المرة الله يستر.

ملامح عذراء قالت شيئاً آخر، لكنها لم تنطق به، خدش في قاع الروح، في ضلع خفي من ضلوعي يصرخ بي "لا ذخيرة عندك حتى تقاتل، شهادة الحقوق صارت محض خدعة حتى نقول إننا نملك بعض الحقوق، إذا لم تستطع أن تكون شوكة في خاصرة إبليس عليك أن تكفّ عن شتمه بلسانك".

وهل تنفع الشتيمة أمام البنادق وقطع اللسان؟ نحن في مستودع مبهرج بأزياء الحاكم، بطلّ علينا كل مساء بحطيئة من نوع أجمل، وصايا مهرج بهلوان ينبغي أن تحفظها عن ظهر قلب، قرارات لا شأن لها بأي قانون إلا إصبعه الذي يشير به إلى حاشية التنفيذ، تكشيرة ظالم لا يعرف أيّ شيء عن أوجاع المظلوم، أجساد تتعفّن في ظلمة السجون، ولا أحد سيأل عنها، ويلات أرامل وقضاء مخنث لا ينطق بالحق، مكنسة من نار تاخذ في طريقها الحقبة والحقيبة، صفقات وتصفيات ونفط مهرب تحت عباءات المرتزقة، لا أحد يسأل عن مال الفقراء وعمّن سرقوه، المهم أن تبقى الزينة في الشوارع والمخمل في القصور، وإياك أن تحكي عن غزو الكوين أو عن غصن الزيتون أو حمامة السلام أو عن ألف كربلاء تمر علينا كل يوم، إياك أن تحكي عن سرقة آثارنا وعن الكنز الذي أخذوه كاملاً – وقد ظهر سهواً على شاشة التليفزيون – وإياك أن تحكي عن لذائذ ما يفعله أولاد عزام جبارة، من حقك أن تحكي مئات الطرائف والنكات عن الوزراء والحمير وشعراء الزفة، لكن ممنوع منعاً قاطعاً أن تتجاوز حدودك نحو السيد الرئيس، وهل ثمة خوف أعظم من حالة

(عباس أبو فزّة) الذي اشترى ذات جنون رواية (ميغيل آستورياس) المسّماة (السيد الرئيس) فكتب بخط يده بعد العنوان (حفظه الله ورعاه)، خاف أن يلتفت إليه رجال الأمن أو كتّاب التقارير المنثورون في مقهى حسن عجمي!!.

زخّات المطر ستأتي بالخير، وهذا يكفي، ماذا تريد أكثر من ذلك أيها الخادم القبيح؟ صفصاف وأغصان وجدول ماء وحورية ترقص عند مجرى الفرات؟ أيّ مخلوق جشع أنت؟ ألا يكفي الماء والكهرباء والمجاري والحصة التموينية التي تأخذها مع الحلي؟ ألا يكفيك ما نعطيه من (زقنبوت) ونحن في حالة حرب وحصار؟ كل حق من حقوقنا صار (مكرمة) من عزام جبارة، الماء الذي يأتي من الحنفية مكرمة، والكهرباء التي عرفناها منذ أيام المرحوم (توماس أديسون) صار مكرمة، والصرف الصحي بعد التغوّط في مرحاض البيت صار مكرمة، والسماح برؤية نهر دجلة في الأعياد والعطل الرسمية صار مكرمة، والذي لا يصدقه أحد من البشر هو أن وقوف السيارات على الجانب الأيمن من شارع الرشيد أيام الجمعة صار من جملة مكارم الرئيس القائد عزام جبارة، فماذا نريد أكثر من ذلك نحن الخدم القبحاء؟!.

- عليك أن تسافر يا حمد، نحن في نيسان والحكومة (مخبوصة) بميلاد البقر، سافر بسرعة ولا تفكر فينا، نحن بخير، سندبّر أمرنا بمشيئة الله، لا نريد أن نخسرك.

أحتسي طعم العرق الزحلاوي وأنا في بيت صديقي رباح الذي بادرني بقوله:

لم تعد كما كنت يا حمد، أكاد لا أعرفك، ليس هذا حمد الذي عشتُ وإياه أجمل أيامنا.. نصف الوقت وأنت ساكت لا أسمع منك غير التأوهات!.

أفكر في هروبي ما دام الوقت يشفع لي (هل سيشفع الوقت لي؟) رائحة التبغ تأخذني إلى واحة بلا نخيل، رماد وأغنيات حزينة جارحة، وصديقي يوشك أن يرقص فرحاً وهو يقول: اشرب يا رجل، اشرب، هل تخاف أن تسكر، وإذا ما سكرت؟ اطمئن، سأحملك على ظهري إلى فراشك، بل يمكنك البقاء عندنا حتى الصباح.

قلت له وأنا أحتسي جرعة ثانية من لهيب الخمرة:
تمهّل يا رباح، هل تريد أن أحرق نفسي مع هذا الشيء القاتل؟.

صرت ارتاب حتى من نفسي، إذ يمكنها أن تسلّمني إلى الزريبة ثانية إذا ما قلت شيئاً في حلم من أحلامي (!) فكيف لا أرتاب من الخمرة إذا ما جرعتُ كأساً آخر منها ورحت أحكي في هذياني عن حقيقة ما أشعر به؟ لكنه راح يضحك مني، وهو يحمل كأسه على أنغام أغنية تأتي من بين الجيران (أحبك وأحب كلمن يحبك.. هلو ياب) وفي برهة خاطفة لا ربط ولا رابط بينها وبين خمرتي، قررتُ أن أرحل عن بغداد، عن (قنبر علي) وعن رباح ونوفل، عن بيت الغزال والحمار

الوحشي، خشية أن أسقط ذات خطأ أو ذات يوم فريسة ساطور ابن الزنجية، الذي صار بالنسبة لي هو النظام الذي يحكم بنظلوني ومعطفي وحياتي برمتها.

خرجت من بيت صديقي، أسمعه يغني مع نفسه، لا يدري أين ولّيت وجهي، كان القرار يسبقني في الركض إلى مصيري الغائم، قلت لهم (سأرحل) ولم أجد من كلمة أخرى تضاف إلى رحيلي، أعطتني عذراء ثمن الضريبة التي تفرضها الحكومة بغية السماح بالسفر، مع مائة دولار لدفع (الرشوة) عند الحدود للطوارئ مع ثلاثة أوراق أعيش بها حتى أجد الملاذ والمعمل، هي تعرف – من تجربة اقترانها بالعميد – ما صار إليه شكل البلاد وخرابها، وإذا ما تعثّر الطائر بين سماء وسماء فما من مغيث.

وليس من شك أي أن عذراء تمكنت من أخذ بعض المال والذهب قبل أن يطردها أهل عزيز عارف الدوري من فردوسهم الذي هدمته حكومة عزاّم بقتل ابنهم العزيز العارف بأسرار الدولة، وليس من ريب في أن دارنا الفقيرة تحتوي على بقايا من أموال ربما عافها عزيز ليوم أسود كهذا!

أمي وهي على فراش الموت، أعادت الخاتم الذهبي إلى (بنصري) لكنها لم تقل (خُذه إذا ما أقفرت الدنيا) فهي تعلم تماماً أن الدنيا قد اقفرت وانتهى كل أمل في حكومة التماسيح التي كفرت حتى بمن جاء بها وأجلسها على كرسيّ السلطة!.

كنت أحدق في صورة الرئيس التي أخذت أكثر من نصف الحائط، رفعتُ حقيبتي، أصغر حقيبة في تاريخ السفر، أنظر إلى وجه عزام جبارة، أنظر باشمئزاز وقرف، وقبل أن أقول وداعاً لعائلتي رحت أقترب من الصورة، اقتربت كثيراً، اقتربت حدّ أنني دخلت فيها، ثم دون وعي مني رحت أشعل النار في مؤخرة السيّد الرئيس، ولم أخرج من البيت حتى سمعته يصرخ مرعوباً فزعاً وهو يحاول أن يطفئ النار التي اندلعت في الجدار، لم تجرؤ ليلى أو عذراء على مدّ يد السعون للسيّد الرئيس الذي احترق تماماً وهو يحدّق بي من وراء الدخان!.

عند عتبة البيت نظرتُ إلى الدخان الذي كان قبل قليل شيئاً يسمى (عزام جبارة)، وعلى مسافة عشرة أمتار قلت له (أنا لا أحبك يا سيادة الرئيس، فأنت أعمى لا ترى غير نفسك، وأصم لا تسمع غير قولك).

وقبل أن تأخذني الممرات والفروع والشوارع سمعت عزّام جبارة يصرخ خلف ظهري (لو كنت أدري أنك هكذا ما تركتك تهرب مني..) تركت السيد الرئيس يحترق، ومضيت، أنا والحقيبة، شطر سرير الغربة.

الفصل الثامن

ثانية إلى عمان

في أتوبيس الرحلة الكبير، رجل أعور، قال لي وهو يجلس قربي مرتبكاً حائراً.

– هل سافرت إلى عمّان من قبل؟

وما قلت (نعم) راح يسألني عمّا إذا كان التفتيش عند الحدود العراقية سيشمل أجسادنا، وعند مدى مهارتهم في اكتشاف النقود المخبأة بين الجلد والثياب، وهل سبق لي أن أخفيت شيئاً عنهم وتمكنت من الفرار به، وهل ثمة من يسأل عن أسباب السفر، وكيف يمكنه النجاة إذا كان لديه بعض الحاجيات التي ينوي يبعها هناك؟ وإذا حدث أي شيء من هذا فلماذا يفعلون؟!.

وما اكتفى بما قال، بل راح يسأل عن أشياء لم تخطر على ذاكرتي وما كانت تعنيني أصلاً، أسمعه من وراء شطّ عميق وهو يضرب رأسي بكلام ما عدتُ أفهمه، خليط من حبس، وقسمة، ودعاء، وغش، ورجاء، وضغوط، كان يهزّني بشيء من الغلطة وأنا في حالة نوم، صحوتُ من ضجري ونومي عليه وهو ما يزال يقول:

– ألا تريد أن ترشدني بارك الله فيك؟ ماذا سأفعل إذا حدث ذلك؟ المثل يقول اسأل مجرّب ولا تسأل حكيم.

إذا حدث ماذا، وكيف، ولماذا، ومتى سيحدث؟ لا أدري، أسمع ضجة تزاحم أذني ولا أعرف أي شيء يثرثر هذا الأعور الغريب؟ عن أيّ حكيم وأي مرشد كان يحكي؟ لم أكن أعرف ايّ شيء عما يريد، لكّني جزع موجع أبعدني مسافة ألف ميل إلى الوراء نحو سلمى وأختي ليلى وابنتها عذراء، بينما الأعور ما يزال يشحن أسئلته في زاية من رأسي، لا يكفّ عن النقر والضرب على جبيني، وأظنني صرختُ به:

– ماذا تريد مني، أنا لا أعرف أي شيء، وإذا كنت مرعوباً كما أنت الآن، لماذا تسافر؟.

رأيت رؤوس الركاب تمتد بأعناقها نحونا، تسفسر عما جرى؟ بينما نهض الأعور من مكانه مذهولاً خائفاً يبحث عن زاوية يحفي بين شقوقها كومة أخرى من رعبة وأسئلته.

شعرت بتأنيب وقح تساقط فوق ضميري، ماذا تراني فعلت؟ إنه رجل أحمق مسكين، والحياة هنا في العراق لا تعرف الرحمة، لماذا أترجّل عن صهوة حسناتي وأمزق غلاف طبيتي بهذه الصورة القاسية الموجعة؟ ماذا يحدث في داخل رأسي من أخطاء؟.

لم انتبه عند صعودي هذا الباص الكبير إلى وجوه الركاب، صفراء من الكرب والضيم، تزحف عليها جيوش من الإحباط والتذمر والنكبات، أي حال صرنا نعيشه تحت خيمة الحرمان والذل؟ عجيب ما أرى في هذا الباص الملغوم بالمشوهين والمرهقين والهاربيت من جحيم أولاد

(العوجة).. إنها كائنات تشبه البشر، لها أنف وفم وأصابع، حتى أنها تتكلم مثل البشر، ما إن تقترب منها وتحدق إليها، حتى تسأل نفسك عما إذا كانت على صلة بالإنسان، فقد أصابها الخراب من تحتا إلى رأسها، ومن رأسها المرعوب حتى قاعها الذي تفوح منه رائحة الأفوال، فهذا أصلع يبدو مثل بطيخة معصورة من الجانبين، وذاك طبيب يسافر معنا بجواز سفر مكتوب تحت المهنة (تاجر خردوات) تسعة أطفال لا أثر للخير والصحة في عروق أجسادعم النحيلة، رجب واحد ميسور الحال لا أدري لماذا يسافر في شاحنة الفقراء؟ نفوس محشوة بالقهر لا أحد يبتسم وليس من كلام غير الهمس، تطفو على ممر الباص حالة خوف وغموض وأسرار وأنا بينهم ما زلت أشكو تأنيب ضميري على ما فعلت.

لا قمح في الطريق الصحراوي ولا شعير ولا ورد البنفسج، ليس من أثر لطائر أو حمار، فراغ يولد من فراغ أكبر، عارية من كل شيء هذه الصحراء التي نقطعها بصمت محموم بالحزن، وربما مع رشفة من الذكريات التي تسحبنا ببطء إلى النوم، لا شيء مثل النوم يرحم أعصابنا من طول الطريق ومن أشواك الذاكرة.

صحوتُ في منطقة (طريبيل) على ضجة الحقائب التي أنزلوها للتفتيش، هذه المرة لم أكن بحماية عزيز عارف الدوري، بل أخاف حتى من ذكر اسمه إذا ما ورد سهواً، كان الأعور أكثرهم كسلاً وذعراً وهو يجرجر أسراره من الباص نحو قاعة الرعب والتفتيش التي كادت أن تشلّ

قدميه عن الحركة، ترى ماذا يحمل في حقائبه الثلاث؟ وفي لحظة آسره من نكران الذات رحتُ أحمل عنه واحدة من الحقائب الثقيلة وأمشي أمامه.. راح يجري خلفي مثل طفل طائع وهو يقول (شكراً، بارك الله فيك) إذا بي أتشدّق بالقول:

- لا تحف يا رجل، أنا معك.

قال ببراءة لا تناسب ملامحه المطعوجة:

- عندي أمانة خمسمائة دولار وأخاف أن يأخذونها مني، إنها من يتامى هنا إلى يتامى هناك.

قلت له وأنا ما زلت أسبقه إلى قاعة التفتيش:

- اطمئن يا رجل، خليك طبيعي ولا تخف، أنا معك.

وأظنني حينها أنقذتُ نفسي من توبيخ ضميري، حتى أنني وقفتُ لصقه أمام رجال التفتيش لئلا ينتابه الخوف منهم، وربما كنت أبحث مثلهم عما كان يخفيه من (بلاوي) وممنوعات!.. أسمع صوته يئن وراء مساماتي: إنها من يتامى هنا إلى يتامى هناك.

بعد أربع ساعات انتهى كل شيء، ختم الجوازات وتفتيش طلاسمنا وصفاتنا وردود افعالنا وملامحنا الظاهرة والمخيفة، بعد أن تم احتلالنا قطعة إثر قطعة، سرقونا طبعاً دون أن نعترض، أخذوا الكثير من علب السجائر مع حصة من البقشيش الذي أعطيناه عن طيب خاطر ونحن

نشتم أجدادهم بين ضلوعنا، ما كان من شيء نحتمي به غير الفطنة في طمر مشاعرنا ونقودنا معاً، تحرش أحدهم بامرأة متبرجة تشبه الساحرات لكنها لم تردّ عليه بل اكتفت بمنحه ابتسامة عريضة تعني شيئاً إذا ما عادت من تلك الرحلة، واكتفى بدوره من أرباح اليوم، لا سيما وأنه حصل على قنينة فودكا من أحد المسافرين المذعورين راح بعدها يتهادى بيننا مثل (كاري كوبر) دون أن يرفع مسدسه علينا!.

ثم تحرك الباص نحو حدود الأردن، وتحركت النفوس باتجاه لا حدود فيه، لم تكن المسافة بين نقطة (الرويشد) وبركان الفزع غير تسعمائة متر، وربما أقل، السماوات نفسها، والصحراء ذاتها، لم يتغير أي شيء في خارطة المكان وفضاءات الزمان، لكن تغيرت سحنات الركاب جميعاً عدا سائقنا، طفر الدم فوراً إلى غصون الرؤوس، هبط علينا إكليل من الأرجوان بسعة الشمس وبات الكلام كما الشبق، يزاحم الزجاج والقلوب، انهمر المطر، هل انهمر المطر فعلاً؟ لا أدري، لكنني شعرتُ بالندى يلفّ جلدي، حتى الصغار التسعة شبعوا من الفرح مع أنهم لا يعلمون بما نحن فيه من أورام وعسف وإذلال وحروق وموت بطيء، الكائنات الملغومة بالإرهاق والتشويه والمذلّة عادت بشراً، عافها الخراب من رأسها إلى تحتها وصارت رائحة الفلّ والجوري هي التي تفوح في ممرات الباص الكبير، وعلى غفلة من الدنيا بأسرها جنّ جنون الأعرج وصار يصرخ من فرط اللوعة التي يبدو أنها غادرته تماماً: الحمد لله، الحمد لله، الأمانة وصلت.

حالة إغماء عجيبة سقطت بين باركوتها الشقراء ومن خلف أقراطها الذهبية، تلك المرأة التي تحرّش بها ضابط الحدود، إذا بها تصحو بعد أن رشّ الماء عليها وهي تكرر:

– والله لن أعود إليهم حتى إذا أعطوني قصراً من الماس، الحمد لله يا رب، الحمد لك يا ربي، لقد نجوت أخيراً، لقد نجوت.

ومثل كائن محروق طمس لتوّه غي بانيو من الماء والثلج أوشكت المرأة أن ترقص جذلى بين رجال الجمارك في الضفة الثانية من الصحراء، حيث رأينا كيف كانت الضفة التي مررنا منها تشتعل بالوشايات والتقارير والرشاوي والمطاردات والقتل، قلت لنفسي وأنا أحكي نكتة لنفسي لم أضحك يوم سمعتها وما كنت أفهم معناها:

– ماذا قالت البطة العراقية للبطة الأردنية، قالت تركنا الشطّة وها نحن نسبح في الشط.

وتذكرتُ برغم أنفي "ساطور ابن الزنجية" الذي لم يتمكن من جسدي، ها قد انهتى الصراع على أرضهم وبين قلاعهم المحصنّة، وبات على حمد محمود الصالح أن يدخل حربه الأخيرة وينتقم، لكنني ضحكت من نفسي على فكرة انتقامي منهم، ماذا يفعله مجرد شخص واحد لمن قطعوا رؤوس آلاف الناس، الانتقام للنسوة اللاتي قطعوا رؤوسهن بالسيف حجة الزنا والدعارة، أم الانتقام لمن قطعوا لسانه حجة

أنه شتم الرئيس، أم الانتقام لمن ماتوا في طريق الموت بعد أن شبعوا من الهزيمة والذل؟ المهم خرجتُ من حرقة الشطّة، وها أنا في الشط أعوم.

أرعبني السؤال (ماذا سأفعل في عمّان؟ هل أنتظر المستحيل أم أحتمي بمظلة الأمم المتحدة؟ أم أسافر إلى بلد يعصمني من النار والغرق وأنا على بعد أميال قريبة من المجزرة)؟ عدتُ بذاكرتي إلى أيام المدرسة، الطفولة التعبانة، من بيت فقير إلى بيت أكثر فقراً، مشيتُ تلك الذاكرة من حلاوة بين الجيران إلى مزحة القرين الذي يحتوي جسدي ويرتكب الحماقات بدلاً مني، الناس البسطاء يحملون على أكتافهم (القناعة) كنزاً لهم، ليس ثمة من يكتب التقارير السرّية عن جاره أو صاحبه أو أخيه، حياة فقيرة لكنها صحيحة وطيبة وعادلة أيضاً، وأكثر غنى مما نحن فيه اليوم، مضيتُ إلى ممرات معتمة في رأسي أتشبث بالجزء العذب من أيام عمري، لكن السؤال يلمسني بأصابعه ويكرر نفسه "ماذا ستفعل يا حمد الصالح؟ هل ستبيع الشاي ثانية في الساحة الهاشمية؟ كيف تحقق انتقامك منهم وأنت لا تملك من القذائف غير ما يتساقط عليك منها؟ لا مهارة لديك في أية مهنة وحرفة الحقوق ولي أوانها في أزمنة المماليك، فماذا ستجني من البقاء تحت سقف المجهول ومتى ستثأر لنفسك منهم"؟.

لم يكن في بالي غير فندق (الريفيرا) أتسلّق السلالم إليه وأرمي جسدي على فراش نام عليه مئات المسافري، رأيتُ لصق الحائط تحت

السرير مزق أوراق مكتوب في الجزء الباقي منها "إنها مازوكي مريض وقد عاد إلى بغداد البارحة دون أن يخبرنا بذلك"، وفي جانب من أوراق أخرى كلام لم أفهمه جاء فيه "تجنيد إجباري على الحمص والفلافل ويحتاج إلى إخلاء من الأرض الحرام.." تضاف إلى جمل أخرى أجمل، جاء فيها:

- آلاف الجوعى لا يجدون قوت يومهم، بينما في قصور هؤلاء السفلة تبذل الكحوليات والفواكه على الخدم والحشم وجواري أولاد الرئيس.. إنهم يغرقون في ملذاتهم، والشعب يموت في الشوارع والأزقة والبيوت من حرقة الجوع، فتذكر أيها الصديق البعيد من قال يوماً: لا بد من مطر، نعم لابد من مطر عظيم بعد هذه الرمضاء التي صبرنا عليها والتي دامت أكثر من الصبر نفسه!.

ولا أدري لماذا احتفظت بكل ذلك في جيب البنطلون، بل سألت إدارة الريفيرا عمّن سكن الغرفة قبلي؟ أخبرني أمين الصندوق أن آخر زبون نام في غرفتي وعلى سريري كان اسمه (عبد الستار ناصر).. ولم يسألني لماذا أسأل عنه أو هل ترك شيئاً في الغرفة يستحق إعادته؟ أسعدني أن يكون هذا الرجل الذي قرأتُ له الكثير من القصص، قد نام على فراشي ذات يوم، ترى ما الذي أرغمه على الرحيل؟ لكنني نسيتُ الأمر بعد ليلة واحدة، الأوراق الممزقة نامت في بنطلوني وصارت مثل تعويذة لا تفارقني، ثمة سرّ عويص في تلك الحفنة من الكلمات، إيحاء وتوجس من شخص ما، وربما محض كلام عابر أعطيته أكثر من حجمه!.

باهتاً كان اليوم الأول في عمّان، لم أفعل أيّ شيء غير التسكع في الشوارع، رأيت عناوين الصحف، لكن جريدة (السفير) أرغمتني على شرائها، إذ يقول المانشيت بحروف كبيرة (النظام في بغداد على فوهة بركان).. جلستُ على رصيف الساحة الهاشمية، شربتُ الشاي من صبيّ أحول العينين، رحت أقرأ في الجريدة عساني أعثر فيها على خبر عظيم يؤنسني ويخفف من غلوائي، إذا بها تحكي بالتفصيل قصة إعدام عزيز عارف الدوري مع حفنة من أقرب القادة إلى الرئيس، خبر منمنم ومثير مع معلومات وأسماء أحمّن أن الذي تمكن من تسريبها ليس سوى عميل محنّك، بل يعمل هناك بينهم في داخل القصر الجمهوري وهو بدوره يحيا على فوهة بركان إذا ما أحسّ به أحد من أزلام الحاكم، يقول الخبر إن عزيز عارف الدوري مات بسرعة في أول جولة من جولات التعذيب، واكتفت الجريدة بنشر صورته بعد سلخ جلده بالماء الساخن، ثم أعدموه رمياً بالرصاص مع أنه رحل عنهم قبل أن يصل الرصاص إليه، وأيقنتُ بعد قراءة الخبر أن (شرلوك هولمز) تمكن من اختراق بيت الغزال وربما يصل قريباً إلى مخدع (ساطور ابن الزنجية) بعد أن يقتل في طريقه الحمار الوحشي!.

في مساء اليوم التالي، رحت أبحث عن غرفة تاوي إفلاسي وعظامي، مشيت الممرات الخلفية بين جبل الحسين وتعرجات اللويبدة، بل ذهبتُ إلى البيادر ومنها إلى وادي السير ثم مضيتُ بعد نصف ساعة إلى (حيّ نزال) و(سقف السيل) بعدها عدتُ مشياً إلى مقهى السنترال،

فوجئتُ بالجدع المصري (رضا) الذي تذكّرني حالاً، لا أدري لماذا سألته عمّا إذا كان يعرف أديباً عراقياً اسمه عبد الستار ناصر، فما كان منه غير أنه ابتسم، وأشار إلى رجل في الخمسين يلعب (الكون كان) مع ثلاثة من أقرانه، قال رضا:

إنه هناك، أشيب الشعر ذاك، ألا تعرفه؟

قلت وقد مددّت يدي إلى جيب بنطلوني حيث احتفظ بأوراقه الممزقة:

– قرأت له بعض القصص القصيرة أيام كان في بغداد.

لكن المصري عاد يسألني:

أعني هل تعرفه شخصياً؟

فقلت (كلا) ومشيت ثلاثة أمتار، جلستُ على مقربة منه أكاد أسمع كل ما يقال بينهم وهم يلعبون، تمنيت لو أسأله عمّا قرأته في تلك الأوراق المركونة في جيبي، والتي صارت أقرب شبهاً باليرقات من طول جلوسي عليها، ماذا تعني تلك المفردات الملغّزة "تجنيد إجباري على الحمص والفلافل" أو غيرها مما قرأته ليلة البارحة، ربما أسأل عن المعنى وراء "لابد من مطر بعد هذه الرمضاء التي صبرنا عليها".. لكن الوقت يمرّ من ساعة إلى أربع ساعات وهو منهمك في اللعب وتدخين السجائر، حتى إنه لم يلتفت شمالاً أو شرقاً علّه يراني، الوقت نفسه في حالة إنكفاء يمرّ بطيئاً بالنسبة لي، لا أعرف ماذا أفعل غير السكوت

والنظر إلى الناس والشوارع والحسرات، ترى متى سيكتب هذا الرجل قصصه ومقالاته إذا كانت الساعات هكذا تهرب من بين يديه في المقاهي وخلف أرقام الدومنينو والطاولة وأوراق (الكون كان).. صارت الساعة ما بعد العاشرة ليلاً ولم يرفع رأسه صوب مكاني، فربما رفعتُ يدي بتحية خاطفة إليه أتمكّن بعدها من السؤال أو ربما يرشدني إلى عما لأوأمل أو نجاة مما أنا فيه، إذا أخبرني (رضا) بأنه جاء منذ ثلاثة أعوام وما يزال مقيماً في عمان وأنه يكتب في جريدة الزمان وله حقل أسبوعي فيها، وذلك يعني الكثير بالنسبة لي، أنا أعرف أن العراقي مهما تغرّب أو مضى إلى شعاب الأرض يبقى على عادته وطيبته وخصاله، لكنه نهض في العاشرة والنصف يضحك مختالاً نزقاً ومضى في زفة أصدقاء إلى خارج المقهى، شعرتُ في برهة من الزمن أن عبد الستار ناصر لا نفع منه وما من أمل في الوصول إليه، أتذكر قولاً سمعته وربما قرأته ذات يوم جاء فيه (أن أفضل ما يناسب الأدباء اعتزالهم الناس)، ذلك أن الأديب إذا ما عرفه الناس يخسر بعض خصوصيته وأسراره، وبالتالي سوف يخسر الهالة التي نرسمها له في مخيّلاتنا، والدليل ما جرى مع هذا الكاتب الذي أحببته منذ سنين.

أصابني أرق ظالم، لم أتمكن من النوم حتى شعّ أول ضوء سماوي على نافذتي، وجدتني أسقط عند الصباح في نوم عميق ،جرجرني حلم من أغرب ما حطّ على جمجمتي من عجائب المخ، رأيت أمي وأبي تحت منزل شاهق تسقط حجارته فوقهما وهما يولولان بصوت سلب

الطمأنينة مني، أمد يدي إليهما عساني أنقذ أي واحد منهما، لكن الحجارة تنهال مثل المطر، ثم انتقلتُ فجأة إلى حلم آخر، رحت أعمل عتّالاً في بيت الرئيس عزام جبارة مع قرط أسود في أنفي، علامة العبيد في قصره المنيف الشاسع، أسمع من يقول خلف حجاب سميك: "إن القيامة قامت وما من مفر" وأرى جيشاً من العبيد في أنف كل واحد منهم قرط أسود وهم يركضون نحو شيخ هرم من أتقياء الحوزة العلمية في النجف الأشرف إذا به يفتح عباءته على فضاء شاسع وقد احتوى العبيد جميعاً، بينما بقيت وحدي خارج العباءة مشتت الروح والنفس غارقاً في لوم نفسي كيف أنني لم أركض معهم صوب خلاصي!.

صحوت في الثالثة ظهراً منكسراً محطماً كأن مئات من الخيول مشت على عظامي، مضيت إلى مطعم (هاشم) أحتال على رغبتي في طعام شهيّ لكن الحمص والفلافل أرخص بكثير من أية رغبة تفلسني، وانتبهت فوراً إلى ما تعنيه (تجنيد إجباري على الحمص والفلافل) لابد أن صاحبنا عانى من الجوع في أولى خطواته صوب عمّان، وربما كانت قصاصة عن شيء يفكر في كتابته، من يدري!؟.

أدور في فراغ مخيف، لا أصدقاء لي هنا، وما من بداية أسلك دربها حتى أصل الراحة والأمان، اكتب القصائد وأمزقها، يأخذني الحنين إلى شارع الرشيد، أتسلّل منه إلى سوق السراي أو أجلس في مقهى الشابندر على مقربة من باب القشلة، أمشي نحو جسر الشهداء، أراهم

يتساقطون في الممرات على أهزوجة لا يشاركون فيها، تراهم كاميرات الرئيس خارج ترنيمة (بالروح، بالدم، نفديك يا عزّام) فيأتي الرصاص إليهم من حيث لا يعلمون، ثم أنزوى خجلاً كيف أنني ما زلت حياً ولم أمت في إحدى تلك الحروب التي نثرها القائد على دروبنا وعلى حياة كل فرد منا، حروب يفرضها قسراً وله وحده الحق في نشوبها أو تخفيف نارها، حرب مخلّلة بالطرشي، وأخرى جاهزة للبيع أو التأجير، وثالثة جاء بها مع نوته موسيقية يعزف عليها الهباشون ويرقص معها الوزراء وهم بثياب التدريب عليها، حرب خاصة من أجل الدخول في موسوعة (غينز) للأرقام القياسية، وحرب للتلفزيونات الفضائية حتى يظهر فيها أطول وقت ممكن، حروب جمّة، واحدة للوجاهة والمباهاة وثانية لمنافسة التاريخ على الخلود والبقاء في ذاكرة المعاجم والقواميس، حرب بلا خطط حتى نخسرها قبل أن يتم البلاغ عنها، حرب مع الشركات تبدأ وتنتهي ولا نسمع منها غير كلام عزام جبارة على شاشة التليفزيون "عفية بالنشامي، زين كلشن زين، وإلى أمام"، ولا ندري من هم النشامى ولمن كانت الغلبة وأين تمت الواقعة؟ لا شيء سوى اقتراع على رئاسته نقول فيه كلا) وتظهر النتائج بحروف لم نكتبها أبداً !.

منهكة هي الروح، كيف بي أواسي نفسي وقد خسرتُ ذكرياتي ومحطات طفولتي وصباي، عاد السؤال يرعبني وينام بين طّيات جلدي (ماذا سأفعل في عمّان؟).. ليس عندي من النقود إلاّ ما يكفي مأوى وطعام شهرين أو ثلاثة، وما من أمل في أيّ شيء غير طلب الغوث من

لجنة أو مؤسسة تحميني من الرجوع نحو المشانق والمعتقلات والذل وجداريات الرئيس، ومهما حدث لي فهو أرحم من الخنوع والرعب في بيت الغزال أو بين أحضان الحمار الوحشي، أنا مسلم عربي في بلد عربي مسلم ولا أظنني سأموت جوعاً.

لا مكان لي أتردد عليه غير مقهى السنترال، يبدو أن الوقت ما يزال مبكراً على حضور الشعراء والأدباء، أجلس وحدي على شرفة أرى منها ما يشبه الوادي، محشواً بالعربات والبشر والمتاجر الصغيرة، أطفال ونساء، أزياء ومغالاة في الرقّة، شحاذ يشبه القادة الرومان، كلا، إنه من نسل ملوك، أصابه خلل في رأسه بعد أن خسرت عائلته كل شيء وما عاد يعرف أيّ شي عن سلالته، يجوب الشوارع والممرات الخلفية بثيابه التي تشبه ملابس الجبابرة بألوانها الساطعة ونياشينه العسكرية التي ملأت حيزاً قرب مكان القلب.. رأيته يدخل السنترال وينشر معطفه العريض الطويل الثقيل قبل أن يسعل ويطلب القهوة التي لن يدفع ثمنها دون ريب، ذلك أن أبناء الملوك والأباطرة والقادة الكبار ثمة من يدفع عنهم، نظرت إليه بكثير من الأسى والشفقة، وفي لحظة خاطفة من الزمن حطّت رأس عزّام جبارة في مكان رأسه وهو ما يزال يحمل مئات النياشين والميداليات الذهبية البراقة، وتأكد لي أن هذا نفسه مصير عزّام جبارة إذا ما رحل عنّا ذات يوم وفرّ هارباً من نقمة الشعب!.

بعد خمسة أيام تمكنتُ من الجلوس إلى مائدة عبد الستار ناصر، حتى أنني لم أستغرب سرعة الوصول إليه، اتضح لي في برهة من الزمن أن البساطة شأنها أصعب مئات المرات من وجاهة بعض الناس، كما أنه لم يسألني عن حياتي وأسباب هجرتي، أنا الذي حكيتُ له القصة من الباب إلى المحراب، لكنه توقف عند باب الغزال، وقال دون أن يوقفني عن الكلام: "أنا مضيت عاماً هناك في غرفة طولها أقصر مني"، فوقفتُ مبهوراً وفي حالة ذعر من فكرة أن يمضي الإنسان سنة هناك بين حوافر الحمار الوحشي، وعلى مقربة من ساطور ابن الزنجية وفي غرفة لا ضوء فيها ولا فراش، غرفة ملوثة جدرانها بالبعوض والدم وكتابات الدعاء وأسماء من مرّوا بها ذات يوم، إذا كنتُ قد خسرتُ ثلاثة أيام من عمري في تلك الزريبة ونالني من الذعر فيها ما يكفي عشرات السنين، فكيف تراه أمضي سنة هناك ما بين العتمة والرعب وأصوات المعذبين، في مكان تموت فيه حتى الجرذان هلعاً وخوفاً؟ رحتُ أسأله عن أشياء كنت أحسّها وراء تلك العتمة الخانقة، لكنه كفّ عن الكلام واختصر الحوار في بضع كلمات:

- إنها سنة داخل قبر، حتى أن القبر أوسع!.

بعد يومين اشتغلت في واحدة من دور النشر التي أخذني إليها، صحيح أنه عمل على جانب كبير من الإنهاك، لكنه العمل الذي أحببته برغم سهر الليالي وإرهاق العينين، أصحح بروفات الكتب السياسية والتاريخية، اقرأ القصص والروايات والقصائد ومذكرات الملوك والقادة

والرؤوساء، ولم يكن ما أتسلّمه عن تصحيح الكتاب الواحد غير بضعة دنانير تخفف عني وطأة الخوف من إفلاسي، كثيرة هي الكتب التي قرأتها، بكيت وضحكت واستخفني الطرب، وأصابني الجزع بحسب ما أقرأ من جرائم وحروب وملات وأسفار وأخطاء ومعارك وحكايات عشق عربية، حتى جاء ذاك الكتاب الرهيب، الذي تقشعر له أبدان الإنس والجن معاً، أخبروني بضرورة العناية به إلى أقصى ما يمكن من دقة وتمحيص، قال صاحب الدار وهو يمسك المخطوطة كما يمسك طفلاً يخاف أن يسقط من بين يديه:

– هذا دون سواه، أريده دون أخطاء، بل دون أيّ خطأ تماماً، وسوف تصلك من المؤلف مكافأة تضاف إلى أجرتك المعتادة.

أسعدني أن تكون ثمة (ليرات) ستضاف إلى أجرتي قبل أن أرى الكتاب، لو أنهم طالبوني بدفع تعويض عن قراءته لما رفضت، عنوانه "شاهد على ما جرى"، يليه تفسير تحته مباشرة جاء فيه "التعذيب في العراق"، وكان عن فترة حكم الرئيس عزّام جبارة نذ أن كان نائباً للرئيس السابق والذي أزاحه عن دربه مثل قشة في مهب الريح، أخذت الكتاب المخطوط إلى غرفتي الفقيرة التي استأجرتها قبل أربعة أيام في زاوية مهملة من جبل الحسين بعد خروجي من (الريفيرا) ورحت أقرأ، ربما كنت أمضي إلى عالم خفيّ تحت الأرض لا أحد يدري عنه أيّ شيء سوى الضحايا الذين يقبعون هناك تحت صنوف التعذيب التي تجاوزت

المعقول، حتى أنني نسيتُ تصحيح الأخطاء الطباعية التي أراها ورحت أمشي على السطور والكلمات، وأنا أشعر بالجروح تزداد عمقاً في جسدي.. بكيتُ على العراق الذي أخذوه عنوة إلى مصاطب التقشير والذبح والمهانات، وهتك الرجولة وضرب الأعضاء وقطع اللحوم وبقر البطون وسمل العيون وجزّ الألسن من نهاياتها، لماذا ومن أجل من؟ حتى يبقى عزاّم جبارة متسلطاً على رؤوس الأنام، قرأت فيه عن أسباب اعترافات الكبار في الحزب الشيوعي قبل وبعد الجبهة الوطنية التي طمروها في غمضة جفن، عن انتفاضة الجنوب ورمي الشهداء إلى وليمة الكلاب التي أصابها الجوع فما عاد أمامها غير أجساد البشر، قرأت ما جرى عن دفن الأحياء سراً في ليل حالك لئلا يزداد عدد التوابيت وحمّى الانتقام، أبكي ذاك الشيخ الذي رفض خطبة الجمعة التي سيقول فيها الثناء على (قائد المسيرة!) كيف أنهم طمسوه في برميل من الغائط حتى الموت، عن رئيس الوزراء الذي يمسح البلاط بين عصيّ رجال المخابرات، وهم يضربونه على مؤخرته ذهاباً وإياباً، مع كومة من السباب والشتائم والضحك عليه بصوت داعر، وفي كل مرة يتم تنظيف الممرات يرمون بالوساخة ثانية حتى يستمر رئيس الوزراء في التنظيف، ومن ثم يواصلون الضرب على رأه وفخذيه حتى يغمي عليه بين الأوساخ، ثم تعاد اللعبة ثانية وثالثة كل يوم، قرأتُ عن الحنفية التي تصبّ نقاط الماء على الرؤوس طوال الليل حتى يوشك الرأس على الانفجار، عن الخازوق الزجاجي الذي يولجونه في مؤخرة الرجال لإهانتهم وكسر إحساسهم

برجولتهم، جلدي يتشقق من الخوف والذهول والدهشة التي تجاوزت كل قوانين لأرض والسماء، ثم طوقني الذعر أكثر حين وصلتُ إلى أفعال (ساطور ابن الزنجية) الذي اغتصب العشرات من أجمل وأحلى شبّان السجون مع تصويرهم بالفيديو، وقد ظهرت مؤخراتهم وملامحهم دون التأكيد على إظهاره في الشريط!.

رميت (التعذيب في العراق) وكدت أشعر بلسعة عقرب مرّت على أصابعي، نظرت إليه وقد سقط مني على أرض الغرفة، إذا به مفتوح ما بين الصفحة ١٢٢ و١٢٣ مع صورة لا أدري كيف حصل عليها مؤلفه يظهر فيها واحد من زعماء الكرد، وقد أجلسوه على قنية خمر فارغة والدماء تسيل من بين شقوق وركيه، وقد منعه أخذ حصته من العويل والصراخ بعد غلق فمه بشريط لاصق!.

صرخت نيابة عنه (يارب) وتركتُ الكتاب في مكانه بعد أن أغلقت القنينة ومسحتُ الدم الذي راح يسيل من تحت غلاف (الشاهد الذي رأي كل ما جرى في زريبة الحمار الوحشي) وقلت لنفسي: ما خفيّ كان أعظم!

شلّني هذا الكتاب المخيف، وبرغم كل ما أملكه من حقد على نظام عزاّم جبارة، وجدتُ نفسي أبعد ما أكون عن تلك الحقائق التي أفسدت حياتي، وأرغمتني على حقد أكبر بات من أول أسباب حربي التي سوف أشنّها عليهم مهما طال بي الوقت.

صار التعذيب في العراق هاجسي وكوابيسي وضربة الرأس التي نزلت على نخاعي وأتلفت شرايين مخي، بل أصبح البكاء حالة من حالات قلبي وضميري، أذرف الدموع وأنا أجلس في الباص أو عند احتساء الشاء في مقهى السنترال، بل بكيت ذات مرة، وأنا أطلب صحن الكنافة في الطابق الأول من حلويات (حبيبة) حتى خلت نفسي مجرد مخبول يمشي في الطرقات، وهو يبكي زمانه وزمان من قُتلوا هناك في سراديب الموت، رفعت رأسي إلى السماء، إذا بها تستجيب لمحنتي وتبكي مثلي، أمطرت في غير وقتها حتى أنني آمنت فوراً بأن الله يدري بما أنا فيه من وجع يوازي ثقل السرطان الذي سيأخذني إليه مع أنني لم أزل قبل الثلاثين من شبابي!.

لا أفهم السبب الذي أعادني إلى عبد الستار ناصر، ولماذا أخبرته بما قرات، لكن ردود فعله لم تكن بمستوى ما انتظرت منه، لم يقل أيّ شيء، بل اكتفى بالنظر صوب الشارع المكتظ بالعربات والنساء والضجيج، قلت له بحسرة وجزع:

ألا يعنيك ما سمعت؟!.

رايته يلتقط سيجارة من علبة حمراء راح يشعلها بهدوء كاذب وهو يقول:

– أخبرتك على ما أظن بأنني كنت هناك، وإحدى وسائل تعذيبي أنهم تركوني أرى.. سنة من عمري وأنا أسمع وأرى صراخ البشر وما من شفيع لهم.

لم أستطع الصبر على تلك البلوى، لكنه راح يقول:

– هل تفهم معنى أن يرغموك على رؤية التعذيب وأنتَ جالس هناك لا حول ولا قوة لك، ممنوع عليك وأنت أمام قلع الأظافر وسمل العيون والضرب على الرؤوس وكأنها مصنوعة من الحجر؟! إذا كان من المستحيلات رؤية الدجاجة وهي تذبح، فما بالك برؤية البشر وهم يذبحون أمام عينيك وانت مقيّد اليدين؟.

ربما كنت ساذجاً حين سألت:

وهل رأيت كل هذا وأنت جالس بلا حراك؟!.

قال دون أ يسمعني:

– هناك أسرار لا يدري بها أحد، والذي يراها أو يكشف عنها لن يبقى على قيد الحياة.

لا أدري كيف سألته:

– وأنت رأيت، فكيف تراك بقيت؟

لم ينطق بشيء، ربما أربكه سؤالي، حتى أنه لم يلتفت صوب مكاني، مما أرغمني على تكرار السؤال، وهنا، كانت الطامة الكبرى حين رأيته وقد مضى إلى الصمت بعد أن أغلق عينيه على ذكريات تبدو أعمق جرحاً مما ظننت.. عندها أطفأت وهج سؤالاتي ولم أعد إلى حماقاتي، لكنه هو الذي قال:

– أدباء الوطن العربي كان لهم الفضل العظيم بما أتمتع به اليوم من حرية وانعتاق، فقد تمكنوا من إرغام السلطة على الإفراج عني، ثم جاءت رسالة صارمة من "كورت فالدهايم" الأمين العام للأمم المتحدة آنذاك تنذرهم دون قيد أو شرط بالحفاظ على حياتي وإطلاق سراحي فوراً.

أحنيتُ رأسي أفكر في حال هذا البلد المنكوب، أسمعه من وراء هرج الشارع ومروج النساء، قال أشياء كثيرة مرّت وأنا منحني الرأس تحت حالة من وجع وذل وندم، حتى صحوت على صوته يقول:

– كل هذا الويل والعذاب بسبب قصة قصيرة واحدة!؟.

سألته: ماذا كان عنوانها؟ فقال وهو ينظر إلى شلّة أصحابه الذين دخلوا المقهى:

– سميتها "سقوط الرايخ الرابع"، لكنني نشرتها تحت عنوان "سيدنا الخليفة" مازلت أحفظ الكثير مما ورد فيها، والغريب هو أنني قلت في بعض سطورها ما يحدث الآن فعلاً من ظلم وخراب!.

قلت له وأنا أعرف أنه سيتركني فوراً:

– لقد حضر السادة الخلفاء.. أراك بخير.

يبدو أنه مرّ بحالات لا يريد الحديث عنها، وأعطيته الحق في قلة كلامه عمّا عاشه هناك بين الصمت والخوف والتعذيب وقررت غلق الباب على أية حكاية بهذا الشأن المتشابك الموجع، وما دامت شلة

الأنس قد حضرت فلا فائدة من البقاء في المقهى، إلاّ أنني فوجئت به يسألني، كأنه يمنعني من الذهاب:

ماذا عنك؟ هل قررت البقاء فعلاً؟.

قلت له:

– لا أظنني سأعود، أنا تحت الثلاثين من العمر، لا أحد يطوقني أو يمنعني من اختيار الحياة التي أبحث عنها، لا زوجة ولا أطفال والحياة في بغداد لم تعد ممكنة، صار الواحد منّا يخاف حتى من أخوته وأصحابه، بل صار الأب يخاف من ابنه لئلا يكون من النوع الذي غسلوا دماغه، لا أحد يذكر اسم الرئيس بسوء مع أنهم جميعاً ينتظرون ساعة الخلاص منه، صار الزوج يخاف من زوجته فربما خدعته في الفراش وجرجرته إلى السؤال عن رأيه في عزّام جبارة، وإذا ما قال الحقيقة، سيرى صوته مسجلاً على شريط، والشريط بحوزة الأمن، إذا به مقطوع اللسان وما من أحد يحميه أو يطلب الشفاعة له، لا أحد يمكنه إنقاذ رجل كهذا مادام أقرب الناس إليه قد وشى به دون رحمة ودون أيّ حساب للعشرة أو لرغيف الخبز الذي اشتركا فيه طوال ما فات من سنوات الزواج!.

رأيت حيدر طماطة يدخل المقهى، تشعر وأنت تراه كأن عاصفة من الرمال والغبار تمشي خلفه، اقترب منا وهو في حالة من الدهشة، مدّ أصابعه النحيلة نحوي:

أهلاً يا حمد؟ متى جئت إلى هنا؟

ثم راح يضحك وهو يلتفت نحو عبد الستار:

- أراك تجلس هذه المرة مع تلاميذ الابتدائية!.

لم أغضب مما قال، أعرف أنها مزحة موجعة، لكن حيدر طماطة ما كان يعنيها، إذ جلس بيننا وهو يشكو:

- لم أعد أتمكن من دفع أجرة البيت الذي أسكن فيه، أنا بحاجة إلى صديق يشاركني المكان، فكل من يسكن معي يهاجر بعد شهر أو شهرين وأجرة البيت أكبر من جيوبي.

قلت له وأنا أطرح وأضرب في حساباتي:

كم هي أجرة البيت؟

قال بسرعة:

- كل واحد يدفع ثلاثين ديناراً في الشهر، يعني ديناراً واحداً عن كل ليلة، إنه أرخص بيت في كوكب الأرض!.

لا أدري لماذا ركضتُ خلف نفسي وكيف تراني قلت:

أنا أدفع النصف إذا كان المكان نظيفاً وقريباً من وسط البلد.

كان البيت على بعد أمتار من المقهى في أول انحناءة من جبل اللويبدة، لم أصدق ما رأيت، رحت أتحسس طراوة الهواء ونظافة البيت معاً، ذلك أن حيدر طماطة لا تبدو عليه علامات الرقّة أو الشعر بقدسية

المكان ليعتني هكذا بغرفة النوم والمطبخ وممرات البيت، حتى أننى أشم رائحة الديتول الذي أبعد الصراصير عن احتلال الزوايا.

كل شيء على ما يرام إلاّ قناني الخمرة التي تكدّست في ركن قصيّ من البيت، أسمع حيدر على بعد مترين وهو يقول:
- إنها للبيع، لا تلتفت إليها، سآخذها فوراً ولن تراها غداً.. سأغسل مكانها بعد التخلص منها.

فوجئت بالكمية التي رأيتها، ربما كانت أكثر من تسعين قنينة على أنواع واحجام مختلفة، حداد الذهبي، عرق توما، بيرة أمستل، فودكا، جن، نبيذ، عرق موال، ويسكي السير إدوارد، عرق بكفيا، عرق البستان، وعرق زحلاوي أيضاً!.

لم أصدق أن حيدر طماطة يمكنه أن يشرب كل ما رأيت من كحوليات مهما طال به الوقت في هذا المكان الغريب، لكنه أجابني مبتسماً قبل طرح سؤالي عليه:

- لا تستغرب يا حمد، لست وحدي الذي أحتسي كل هذا، إنهم الأصدقاء، على السوداني، كمال العبدلي، عماد الظاهر، حسن النوّاب، وغيرهم، وبعد كل سهرة أرى القناني تزداد فأجمعها في هذه الزاوية ثم أبيعها دفعة واحدة، القنينة بعشرة قروش وهي تساعدني على العيش في ساعات الإفلاس والبهذلة.

رحت أكرر مع نفسي (ساعات الإفلاس والبهذلة) ثم قلت له وأنا مازلتُ أنظر إلى جبل الخمور:

كم تسهرون كثيراً يا طماطة؟

قال حيدر بكثير من الفرح:

- أيام الخميس فقط، سوف تحبهم، اطمئن، إنهم أدباء وشعراء ورسامون، سوف ترانا نغنّي ونحكي عن النساء والذكريات والمقاهي والحنين، ليس بينهم من شخص شرير أو غير مرغوب فيه، سيعجبك الحال كما أعتقد.

ثم سألني: ماذا تشرب؟ وقال بإصرار: أنا الذي سيدفع حسابك في أول مرة، ستكون السهرة في صحة الهارب الأخير من جحيم عزاّم جبارة.

ذهبتُ إلى غرفة النوم وأشعلتُ زر الضوء، هذا هو سرير الغربية، يتغيّر بين يوم ويوم، من الريفيرا إلى جبل الحسين حتى اللويبدة مع حيدر طماطة، قصائد وقصاصات صحف ومجلات ملصوقة على الجدران، أنقل عيني من أمرأة عارية إلى لوحة رسمها (صاحب أحمد) إلى قصيدة كتبها (حسن النصّار) يقول فيها "أيها الأصدقاء ما أحوجني إليكم، وما أصدقكم حين تكذبون"، ثم فوجئت بصورة عزاّم جبارة وهو يركع قبالة كرسي الحكم المزحوم بالجثث والجماجم والوصايا!.

الفصل التاسع

وكر الدبابير

تحت عنوان "مصرع فرانكشتاين في بغداد " رأيت ملامح عزام جبارة، في مجلة اسمها "الزمن" فوجئت بجمهرة من الناس وهي تشتريها بشيء من اللهفة والفضول، لم أفهم، ذلك أن الرئيس عزام جبارة ما يزال حياً وقد رأيته البارحة على قناة (الجزيرة) بضحك بطريقته (الهوهائية)، كما كان يحلو لصديقي رباح أن يصفها.

مددت يدي إلى جيب بنطلوني، ليس من السهل دفع دينار أشتري به بضعة أوراق ملونة تحكي خبراً أعرف أنه ما يزال محض أمنية تتكرر مثل أسطوانة مثلومة من أعلاها حتى آخر دائرة فيها.

جلستُ في مقهى (بلاط الرشيد) وأنزويت بين حائط سميك ونافذة أطول مني، رحت أقرأ العناوين بحسب تسلسل صفحات الزمن: ياسر عرفات شهيداً ويحارب (الاختيار في أيامه الأخيرة)، العيش تحت وطأة القنابل، حسناوات بالجملة في مهرجان كان السينمائي، فينيسيا تغرق سنة بعد أخرى، باخرة من عيدان الكبريت، رحيل السيد فلاديمير لينن عن السيّاح، غابريل غارسيا ماركيز ينتهي من كاتابة مذكراته، أطفال

يولدون قبل الشهر الخامس، ليلة في بيوت السحر والشعوذة، حكاية العريس الغشاش والعروس الحامل، عنترة بن شداد العبسي يظهر في مقهى زهرة البستان، ماذا يعد عزأم جبارة فرانكشتاين بغداد؟!.

وقبل أن أقرأ، جاءني من يسأل عن طلباتي، فقلتُ بسرعة كأنني أطرده خارج أسراري وخارج خبايا (الزمن): شاي إذا سمحت ثم عدتُ إلى مصير فرانكشتاين العراق عساني أعثر على شيء يستحق الدنيار الذي خسرته على كلام مكرر جاء فيه:

- بغداد صارت قاب قوسين من الخلاص والعراقيون على موعد مع الحرية التي فقدوها منذ سنين، عزام جبارة سيرحل دون حقائب وبلا وداع، وقد كشف محررنا السياسي عن طبخة سرية ثمنها مليارات الدولارات بين العاصمتين موسكو وبغداد، لتغطية هروب عزام جبارة وزوجاته الثلاث وبقية عائلته ولجوئهم عند أطراف موسكو على أرض شاسعة تزيد على خمسمائة هكتار اشتراها نظام بغداد للعيش فيها بعيداً عن غضب العراقيين وفورة انتقامهم، وقد حقق محررنا سابقة في الصحافة العربية حين أعطانا الدليل على أكبر رشوة في التاريخ مدفوعة مسبقاً لحماية عزّام جبارة وأولاده من غضب الشعب العراقي الذي ينتظر الحرية، منذ ما يزيد على ثلاثين سنة من القمع والقتل والتهجير.

ثلاث صفحات احتوت على خمس صور لم أرها من قبل في أية مجلة أو جريدة، واحدة يظهر فيها عزام جبارة بملابس البيت، بيجامة

بيضاء مخطّطة بالأزرق الغامق، يدخل السيجار، بينما ابنه الثاني يقرأ شيئاً في جريدة عربية يبدو فيها عزّام وهو يرفع السلاح نحو السماء، تلك كانت أول مرة أرى فيها الرئيس بملابس النوم، تلك الصورة أعادت الرئيس إلى شكله الحقيقي، مجرد رجل لا يثير الانتباه وليس فيه ما يستحق النظل إليه، لا سيما وأنه بلا حماية عسكرية ودون جماهير تصفق له، والصورة الثانية من داخل قصر باذخ، حيث يظهر ابنه المعتوه بين مجموعة من أجمل الصبايا وأكثرهن فتنة وإغراء، وهن في حالة سكر ورقص، وهو يضحك بينهن بنصف ثيابه، إحداهن ترفع فستانها إلى ما فوق سرّتها وهي توشك أن تسقط أرضاً.

أما الثالثة فقد أخذت نصف صفحة من هذا الزمن اللعين، يتمشى فيها عزّام جبارة في مكان معتم محاط بحمايته وعلى الجانبين رؤوس وأصابع بشر وراء القضبان تتوسل الرحمة والمغفرة، هو قبو تحت الأرض، قد يكون بيتاً من تلك البيوت المنسية المجهزة للتحقيقات والتعذيب، وربما معسكراً مهجوراً رموا فيه المئات من الرافضين حكمه وجرائمه، لكن الصورة الرابعة كانت بشعة، مرعبة، تقشعر لها النفوس والأجساد، لا أدري متى كيف ومن تجرأ على التقاطها، مأخوذة من أعلى حفرة دائرية كبيرة لتسعة كلاب سود مقطوعة الذيل وهي تنهش في رجل ما يزال حياً يصرخ، لابد أنه (راجي التكريتي) الذي تم تصوير قتله بالفيديو كاسيت من أجل زرع الذعر في النفوس، وتبقى الصورة الخامسة مجرد شيء للطرافة وإضحاك القراء، يظهر فيها عزام جبارة بين عشرات

البنات في (مدرسة العزة والكرامة) وهن يرقصن في ذكرى (النصر المبين!) الذي حققه القائد في (أم المعارك) وهزم فيه أمريكا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وتركيا حين مضى إليهم في عاصفة الصحراء وأرعبهم بصوته المجلجل القوي "يا محلى النصر بعون الله"، فما كان منهم غير الهروب من خيمة صفوان يجرجرون الخيبة والهزيمة، وبات كل رئيس من رؤوساء العالم يتوسل تخفيف صوته ومدى حنجرته لئلا تصاب رجولتهم بالعقم والعنّة والخنوثة.

بعد الصفحات الثلاث التي صرعت عزام فرانكشتاين عادت المجلة إلى زمانها السابق، تحكي عن الحرب الدائرة ما بين فيفي عبده وصالات الرقص التي تسرق لقمة الخبز منها، مطرب مخنّث يشطب بالطباشير على تاريخ أسلافه ثم يرقص في إعلانات كرافت وينتعش بعصير الببغاء، شاعر لا تاريخ له يدفع بالعملة الصعبة عن كل مقالة تحكي مسيرته وكفاحه ويجلس مساء كل يوم في (مقهى البستان) تحيطه كوكبة من عشاق الشعر وكل واحد منهم يتأبط بضاعته المخصّصة للبيع!.

كنت أحتسي الشاي بهدوء لا يناسب غلياني، ودون أن أدري لماذا، رجعت أري الصور الخمسة، لكنني وقفت أمام الكلاب السود وهي تأكل هذا الإنسان الذا كان حياً لحظة أن رموها عليه، رأيتُ ثلاثة من الكلاب تنتظر دورها، إنها خارج دائرة الطعام بينما يرفع (المأكول)

يده اليمنى، لكنها يد بلا أصابع، نافورة دم من خمسة ثقوب تشير إلى السماء، بينما الكلاب راحت تنهش في الجزء الطري من الجسد الذي كان – ذات يوم – يحكي ويسافر ويبكي ويضحك يقول كلاماً مفهوماً، وكان له اسم وملامح قبل أن ينتهي إلى قطع وأشياء تمضغها الكلاب ثم تلحس ما بقي منها دون أن تترك أيما أثر للجريمة!.

عدتُ إلى البيت في حالة كنت فيها أقرب شبهاً بحمار رفع الكثير من الاثقال، فتحتُ الباب على صمت لذيذ قررتُ الذهاب إلى فراشي حتى تهدأ الكلاب بعد أن شبعت من عظام ولحم راجي التكريتي، خل تراها ستهدأ، تلك الكلاب مقطوعة الذيل وتكف عن أكل البشر في قصور عزام جبارة؟ وكم تراها أكلت منذ جاء هذا الوحش البشري إلى ديارنا؟ فوجئت بكومة القناني وقد اختفت عن تلك الزاوية وعاد المكان نظيفاً مغسولاً كما اتسعت مساحة البيت، وصار يكفينا أنا وحيدر طماطة حتى إذا ما عادت القناني تتناسل في ذاك المكان المحصور بين المطبخ والمراحيض.

رميتُ أثقالي على حلم داعر، رأيت نفسي أتعّرى داخل حلقة من الرجال تضربني بالسياط وتأمرني بخلع ثيابي جميعها، حتى إذا ما بقيت باللباس التحتاني أسمع من يقول (وما فائدة هذه الرخقة يا حمد؟) نزعتها ومددت أصابعي أغطي بها عورتي، لكن الرجل الذي أرغمني على خلع ملابسي راح يضحك مني وهو يبدأ بخلع قميصه وبنطلونه كما فعلت،

إذا به يتبول على كومة الثياب النظيفة التي كانت فوق جلدي، صرخ بي دون حياء: "تبول على ثيابك مثلما فعلت، هيا تبوّل بسرعة"، وحين أوشكتُ أن أفعل، صحوتُ من كابوسي، ومضيت فوراً إلى المرحاض حتى أتخلص من كمية البول التي كدتُ أسكبها فوق مسامات جلدي.

وما فارقتني الصورة الرابعة طوال شهيقي وزفيري، إنها تشرب الخمرة معي وتنام تحت طيّات بطانيتي وتسخر من رعبي وضعف إرادتي، أنا الذي بدأتُ بجمع القناني في تلك الزاوية الكريهة من البيت، في كل مرة أشعر فيها بالغم والمرارة أستعين بالخمرة والبكاء، أنا بنفسي جئتُ بأول (حداد ذهبي) شاركني فيه حدير طماطة وهو يستغرب ما أقول مع أننا في أول المساء:

- الكلاب لا ذنب لها يا طماطة، الكلاب جوّعوها حتى زهقت من الجوع، ثم رموها عليه، ماذا يفعل الكلب إذا ما جاع ستة أو سبعة أيام ثم رأى طوع أنيابه مخالبه لحمة طرية وما من أحد يمنعه من نهشها ومزمزة عظامها؟ بالله عليك يا صديقي حيدر، ماذا كنتّ ستفعل أنت إذا أهملوك أسبوعاً بلا ماء ولا طعام ثم رأيت أمامك طعاماً دسماً، وأنت الذي كدت تموت جوعاً قبل ساعتين من تلك الوليمة الشهية؟ الكلاب أشرف منهم، أشرف بكثير من عزام جبارة وأولاده وعشيرته، الكلاب لا تفكر مثلنا، ومن حّقها أن تفكر بطريقتها حتى تعيش، لكنهم أرغموها على القتل، هم أرغموها على ولوج المذبحة والفتك بالضحية، لعنة الله عليهم، كم أنا حاقد عليهم.

قال حيدر طماطة وهو يوشك أن يضحك:

- ماذا جرى يا حمد يا صديقي؟ ما حكاية الكلاب هذه الليلة؟ هل عضّك أحد أم تراك تذكرت شيئاً؟

أدري مع نفسي، بأنني أحارب نفسي بهذا الجنون الذي مشيت على دربه، وأنا أحاول طمر ذاكرتي في خمرة ما كنت أحبها لكنني توسلت رحمتها حتى تنقذني من أوجاعي، وما كنت أصدق يوماً أن هذه الخمرة سوف تنقذني من همومي وحسرتي ومرارة أيامي كما فعلت معي في بيت حيدر طماطة، أعطيته المجلة وقلت له بعد أن ملأت كأسه إلى أعلاها.

- أنظر إلى ما نحن فيه، قصور يمرح فيها أنصاف البشر، وكلاب مخبولة تلتهم البشر، وابن عزام جبارة المعتوه يلهو ويمرح عارياً بين النساء، ولا أحد يسأل عن هذا الجحيم الذي نحن فيه، عالم كلال.

أخذ المجلة وراح إلى "مضرع فرانكشتاين في بغداد" وبعد رشفة من الذهبي اللاذع كما يبكي عند الصحفة ٢٩، وهو يرى الكلاب السود الضخمة تسابق أنيابها ومخالبها في الوصول إلى ما تبقى من عظام (راجي التكريتي) إذا به يقول وقد انخرط في نحيب موجع:

- كان عمي، هذا الرجل الطّيب، الذي صار طعاماً لكلابهم هو عمي، لم يكن شقيق أبي، لكنني اشتغلتُ في مصنعه أكثر من عامين، هو نفسه الذي أعطاني ضريبة السفر، وهو الذي أخبرني أن البلاد غادرت حدودها

ونقاء سريرتها ولم تعد هي نفسها دار السلام وملجأ الأمان، فكيف عاد إليها وهو أعرف منك ومني بشياطينها؟ كيف عاد بنفسه إلى القصّاب وأعطى رأسه، وهو الذي علّمني الفرق بين القاتل والقتيل؟ هل من عاقل يصدق أن هذا الرجل الطيّب الكريم أصبح في لمح البصر طعاماً للكلاب.

سمعنا طرقاً على الباب، نهض حيدر طماطة وقد غلبته أمواج من الذكريات، وقبل أن يفتح الباب قله له بهمس ذليل:

– سأذهب إلى غرفتي، أرجو منك أياً كان الطارق، فأنا منهك من التعب ولا مزاج لي حتى أثرثر (الآن) معه.

سمعتُ (أهلاً وسهلاً) مزوّرة كاذبة، ورميتُ نفسي على فراشي، تسلل حيدر قرب مخدتي وأخبرني (إنه صاحب البيت جاء يسألني عن إيجار الشهر الماضي) فما كان مني غير التخلّص منه بدفع حصتي وحصته معاً، ليس هذا وقت كلام في المال، أسمع الباب يغلق وكلام مرتبك يكرره حيدر طماطة بين لحظة وأخرى:

– لا أدري كيف أعتذر، لكنني سأدفع المبلغ كاملاً في أقرب فرصة.. والله العظيم أنا في غاية الخجل.. هذه ليست البداية التي كنت أنتظرها معك.

قلت بلا مبالاة وأنا أرجع صوب مائدة الشراب أحتسي بعض ما يساعدني على النوم:

– المهم ألاّ يرموننا إلى السادة الكلاب!.

ثم غفوتُ في مكاني حتى الصباح، وما كنت أدري بما جرى، لكنني رأيت حيدر طماطة (مبطوحاً) على الأرض وقد انكسرت قنينة العرق الذهبي إلى شظايا بينما (اللبنة والحمص والزيتون) وبقية المزّات الفقيرة صارت فراشاً لحيدر طماطة يتلوّى تحت طعمها ورائحتها خدون أن تجرحه كسور الزجاج!.

في اليوم التالي عند الساعة التاسعة صباحاً، أعطاني مدير النشر الذي أعمل في مكتبه الأنيق كتاباً عن "الرئيس عزام جبارة عدو إسرائيل الرقم واحد" ولم أصدق ما قرأت، ثمة مسافة شاسعة بين (شاهد على ما جرى.. التعذيب في العراق) الذي انتهيت من تصحيحه قبل أيام والكتاب الذي أخذته بين أصابعي، حتى أن المدير أحس بما أفكر فيه، فما كان منه غير أن يقول:

– اسمع يا حمد، الحياة الآن لا تشبه الحياة التي كنا نحياها قبل عشرات السنين، وأنت تريد أن تعيش، ونحن كذلك، لا شأن لنا بما يقال ويكتب، كل واحد له دينه وأفكاره ومبادؤه، والمهم هو أن نطبع ما يصل إلينا، هناك عوائل كثيرة تأكل طعامها من خبرات هذه الدار، وأنت "العراقي" أدرى بالمصاعب والنكبات.

يدي رخوة أكاد أفتحها دون أرداتي، وإذا ما سقط الرئيس عزام جبارة على أرض المطبعة سيكون هو السبب في طردي، لا سيما وأن دار

النشر صارت تكافئني أكثر في كل مرة ترى فيها خلو المطبوع من الأخطاء، بل سمعتُ المدير يكرر للمرة الثالثة:

– أنت يا حمد أفضل من عمل معي، ولا أريد أن أخسرك، هذه دار للنشر وطباعة الكتب وليست وكراً للساسة والأحزاب.

وانتبه إلى الصمت الذي غلفني منذ أن أمسكت برقبة (عدو إسرائيل الرقم واحد) إذا به يبتسم:

– إذا لم يعجبك هذا الكتاب يمكنك رفضه ولن أغضب منك، أنا أفهم جيداً معنى أن تقرأ شيئاً لا تميل إليه.

رأيتُ ما يشبه البرق يخطف تحت أهدابي، لماذا قلت له (أنا لا شأن لي بأحد ولا يهمني عزام أو هتلر أوو هولاكو)؟ لستُ أدري، لكنه طبطب على كتفي وقال:

– بارك الله فيك يا حمد، هذا عمل صحيح، وتذكر بأننا إذا لم نطبع هذا النوع من الكتب، هناك عشرات غيرنا في بيروت والقاهرة ودمشق تلهث وراء هؤلاء المؤلفين، الكتاب سلعة يا حمد مثل بقية السلع المعروضة للبيع والشراء، وإذا كانت هناك فواكه تتعفّن وبعض الخضراوات تذبل فسترى بمرور الوقت عشرات الكتب المتعفنة وعشرات غيرها من كثرة أكاذيبها.

ثم سكت لحظة عاد يقول بعدها وبسرعة:

– أنا شخصياً لا أحب هذه الكتابات (المفبركة)، وأعرف أن أصحابها مجرد بهلونات تلعب على حبال السياسة، لكننا بصراحة نستفيد منها أضعاف ما تأتي به الأعمال الرصينة.

قلت مع نفسي (أنا أعرف هذا)، وأخذتُ معي عزام جبارة عدو إسرائيل، رميته في كيس أسود من أكياس الزبالة وأنا أسمع المدير يمشي خلفي بهدوء:

– أريدك أن تنتهي من تصحيحه في خمسة أيام، وإن كانت أربعة فهذا أفضل، إنها ثلاثمائة صفحة، لكنك ستسهر عليها يا حمد ولك مني مكافأة ترضيك، ومن المؤلف أيضاً.

وكم لسعته كومة من العقارب رحت أكرر بغضب:

– منك نعم، أما المؤلف فلا أريد منه أي شيء، لا أريد منه أيّ شيء، ولا أريد أن أعرفه أو أراه.

وفي أول المساء، كان المطر ينهمر على بيوت عمّان، كمن يغازلها، نظرتُ إلى الغيوم والسحب الماطرة، وشعرتُ بشيء يغسلني تماماً، بدأت أقرأ في برميل التفاهات، قصة كاذبة مزوّرة عن رجل اسمه عزام جبارة قرر أن تكون العدالة والمساواة والحرية والوحدة العربية رسالته التي سيموت من أجلها وعلى طريقتها، وأنه سيحرق إسرائيل أو نصفها إذا ما تجرأت على التحرش بأية أرض عربية أو مسلمة، ويكرر بأنه سيحرق نصف إسرائيل ويترك النصف الثاني منها مغطى بالتراب ورذاذ

البارود حتى تقنع تل أبيب بإعادة الأرض إلى أصحابها وتسكت المدافع في الشرق، ويعمّ الأمان تحت راية الله أكبر، (جاء على خاطري ذاك الشريط السينمائي المسمى "الأيام الطويلة"، كم عرضوه وكم أزهقونا برؤيته في كل مناسبة وبلا مناسبة، وكم حمدنا الله يوم قتل بطله على يد عزام جبارة نفسه، مات المؤلف وبطل الفيلم ولم يبق أمامنا غير عزام الذي صار يؤلف الروايات عسى أن تطول أيامه في الرواية إذالم يتمكن منها في الحياة)!.

يقول المؤلف إنه رأى عزام جبارة (المحفوظ بإرادة الله) ثلاث مرات، وفي كل مرة يزداد إيمانه بأن هذا الرجل العجيب الطالع من فرات النهرين ومن شقوق المستحيل هو عنوان الكرامة والكرم، وهو بطل التحرير القومي الذي على يديه (وحده) مصير العالم من أول ذرّة رمل في الصحراء وحتى آخر نقطة ماء في المحيطات والبحار والأنهار!.

وأيقنت من (عنوان الكرم) الذي ورد مئات المرات بين السطور، أن المؤلف قد غرق حقاً في بحبوحة عدو إسرائيل، وأنه الرقم واحد بين المداخين واللصوص والهباشين وباعة الكلام.. فما تذكرتُ حينها غير رواية (حفلة التيس) وما فعله الجنرال رافائيل ليونيداس تروخييو مولينا في شعب الدومينيكيان وكيف يقول أقرب المقرّبين إليه:

- أنا قوّاد الزعيم تروخيّيو وأفخر بهذا وأعتز به!.

فما الغرابة في أن يكن هذا المؤلف المسخ هو قوّاد رئيسنا عزام جبارة؟ قواد على النساء هناك في الدومينيكان، وقواد على الكلمات والحروف في بغداد، فهي كما نرى محض مهنة ليس فيها ما يخدش الحياء، وحتى إذا ما أصيب الحياء بخدش ما، ستكفيه كومة الدنانير حتى تشفيه من الجروح، فهي المرهم في كل زمان وفوق أي مكان، صارت الحياة مع عزّام جبارة (لعبة) لا تحتاج إلى مهارة ولا شطارة، كل شيء يمر علينا من الصباح إلى الصباح محض لعبة، فما عاد من أحد يسأل عن شروطها مادام اللاعب الوحيد هو عزّام جبارة، والفائز الوحيد هو عزام جبارة وما على الشعب غير أن يتفرّج!.

جاءني حيدر طماطة وسألني ماذا أقرأ؟ نظرتُ إلى هيكله النحيل وثيابه الرخيصة، شعرتُ بالحزن على نفسي وعليه، لكنني قلت له: "أقرأ درساً في الانتهازية والعهر والرذيلة".

انتهيتُ بعد أربع وعشرين ساعة من قراءة "الرئيس عزّام جبارة عدم إسرائيل الرقم واحد"، وقد غرقتُ في الاشمئزاز والقرف، تركت الأخطاء المطبعية والإملائية واللغوية على حالها، ولم أفعل أيّ شيء سوى أنني شطبتُ على كلمة (عدو) وكتبتُ بالماجيك الأحمر كلمة (حبيب).

في اليوم التالي أعطيتُ الكتاب إلى الناشر وأنا أقول:
– هذا الكتاب من تأليف رجل لا يحترم اسمه ولا رجولته، وأنا أرفض تصحيح الأخطاء التي وردت فيه.

قال الناشر مستغرباً وقد هزته الدهشة بعد أن رأى العنوان وقد أصبح "عزام جبارة حبيب إسرائيل الرقم واحد"

– لكنك أخبرتني بالأمس بأنه لا شأن لك بأحد؟ ما الذي تغيّر الآن يا حمد؟

قلت له وأنا أعرف ما سوف أخسره من مال وأمان:

– هذا الكتاب هو أكبر خطأ قراته حتى اليوم، صبرتُ على أخطاء كثيرة، لكن ما جاء في برميل الوساخة هذا لا يمكن الصبر عليه، الكتاب معك ولم أقم إلا بتصحيح كلمة واحدة فقط وعليك الباقي.

ثم تركته ومشيت بهدوء، كانت السماء زرقاء والسحب البيض البراقة تشاركني صحوي، لم ألتفت إلى دار النشر، ولم أفكر في عدو إسرائيل ولا حبيبها، أدري أن الناشر ما يزال يثقب ظهري بعينينه النافرتين، لكنني في تلك الساعة فقط شعرتُ بنشوب الحرب بين عزام جبارة وبيني، وقررتُ خوض المعركة مهما كان حجم الغبار والشظايا والجروح.

كنت قد بدأت الحرب بكتابة "صندوق الأخطاء" منذ أن تحرك قطار المساء من بغداد إلى البصرة، ومنذ أن كان البغل الواحد أغلى من عشرة أفراد بمستوى حمد محمود الصالح بكالوريوس حقوق بدرجة ممتاز، لا سلاح معي حتى أخوض حربي، لكنني بدأتُ أحكي عن حلم قتلوه، عن شهداء وأرامل وضحايا، عن إسراء التي أحرقوها في برميل

النفط، عن راجي التكريتي الذي أطعموا به الكلاب المسعورة، عن بيت الغزال وساطور ابن الزنجية والحمار الوحشي، عن الحب الذي ذبحوه، رحت أكتب في النهار والليل، حتى تصلّبت أصابعي، وغفوت.

لم أصدق نفسي وأنا أرى (صندوق الأخطاء) بين يدي، ماذا تراي فعلت؟ ماذا تراك كتبت يا حمد الصالح؟ غسلتُ وجهي وغطيتُ رأسي بالماء، شعرت بنشوة لم أقربها منذ وقت بعيد، جاءني حيدر طماطة بالشاي والجبنة ورغيف الخبز، قال (ماذا كتبت)؟ قلت (صندوق الأخطاء) ثم عافني وهو يضحك من أخطائي، رحت أقرأ الصفحات بلهفة وجوع كأنني لست من كان يكتبها، كم تمنيت لو أن سلمى قرأتها، فربما غفرت لي رحيلي عنها، رحت أحدق في الصفحات التي تراكمت تحت يدي والتي تصلّبت أصابعي وأنا أكتبها، حملتها مثل طفل رضيع أخاف أن يسقط مني، ولا أدري لماذا أهديتها إلى عبد الستار ناصر مع أنه ما يزال يلعب الطاولة في مقهى السنترال!؟.

أسمعه يقول "شيش بيش" وهو بين شلة من الأصدقاء، وتأكد لي أنه يعني ما يقول، فما عادت الحياة مع عزام جبارة غير لعبة لا مهارة فيها ولا شطارة، اللاعب الوحيد هو عزام جبارة، والفائز الوحيد هو عزام جبارة وما علينا غير أن نتفرج ونقول:

– شيش بيش!.

لكن المقهى لابد أن تقفل في ساعة ما، مهما تأخر الوقت، واللعبة أيضاً ستنتهي في لحظة ما، وعندها سنعود حتماً إلى بيوتنا ونحن نضحك من كل ما جرى، وقد نبكي أيضاً.

عمان ٢٠٠٢

محتويات الرواية

مقدمة ٥

الفصل الأول: متحف الموت ١١

الفصل الثاني: صندوق الأخطاء ٤٩

الفصل الثالث: ماكياج المذبحة ٨٧

الفصل الرابع: بغداد الفزع ١٠٩

الفصل الخامس: حكومة الثعلب ١٤١

الفصل السادس: نظام السيفون ١٧٣

الفصل السابع: وصايا المهرج ٢١٣

الفصل الثامن: ثانية إلى عمان ٢٣٥

الفصل التاسع: وكر الدبابير ٢٦٣

من أعمال القاص عبد الستار ناصر

١ – لا تسرق الوردة رجاءً. قصص. اتحاد الكتّاب العرب. دمشق ١٩٧٥.

٢ – الشمس عراقية. رواية. وزارة الثقافة. بغداد ١٩٨٤.

٣ – الحب رمياً بالرصاص. قصص. الهيئة المصرية للكتاب. القاهرة ١٩٨٥.

٤ – لا عشاء بعد الليلة. قصص. الهيئة المصرية للكتاب. القاهرة ١٩٨٧.

٥ – امرأة في البريد. قصص. وزارة الثقافة. بغداد ١٩٩٠.

٦ – مبارة الميمونة. قصص. دار الأمد. بغداد ١٩٩٣.

٧ – نصف الأحزان. رواية. دار الآداب. بيروت ٢٠٠٠.

٨ – الكوّاش. قصص. المؤسسة العربية للدرسات والنشر. بيروت ٢٠٠٠.

٩ – مختارات قصصية. وكالة الصحافة العربية. القاهرة. ٢٠٠١.

١٠ – حياتي في قصصي. سيرة روائية. المؤسسة العربية للدرسات والنشر. بيروت ٢٠٠١.

١١ – سوق السراي. كتابات في النقد. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ٢٠٠٢.

١٢ – أبو الريش. رواية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ٢٠٠٢.

١٣ – باب القشلة. كتابات في النقد. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ٢٠٠٣.

١٤ – سيدنا الخليفة. قصص. وكالة الصحافة العربية. القاهرة ٢٠٠٣.

١٥ – قطار السمك قصص. وكالة الصحافة العربية. القاهرة. ٢٠٠٣.